برتراند رسل

التربية والنظام الاجتماعي

ترجمة

سمير عبده



منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان

التربية والنظام الاجتماعي

برتراند رسل

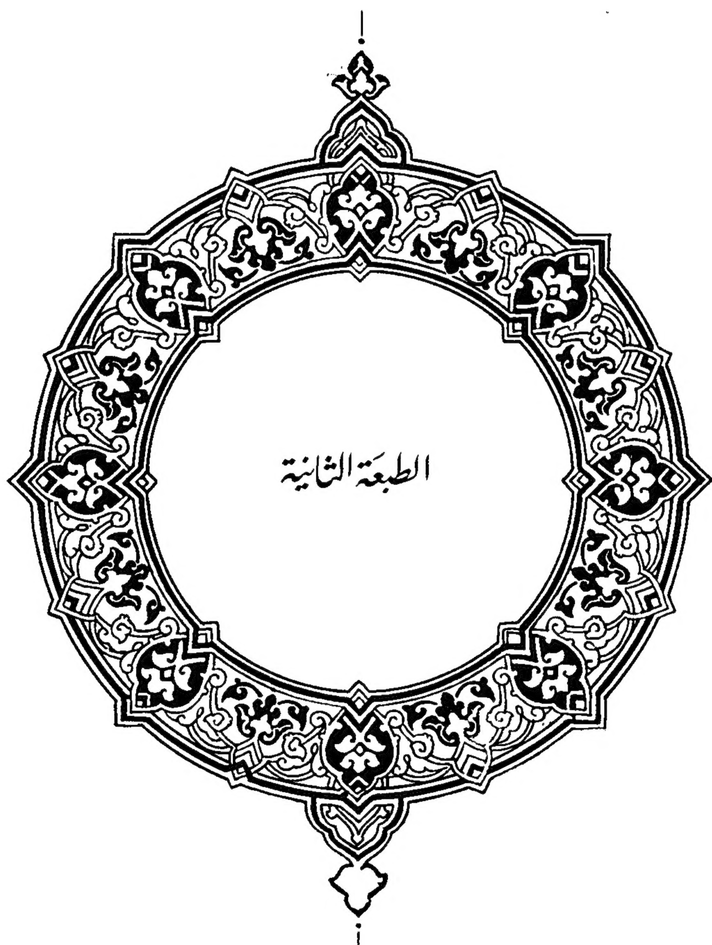
التربية والنظام الاجتماعي

ترجمة

سمير عبده



منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت


الطبعة الثانية

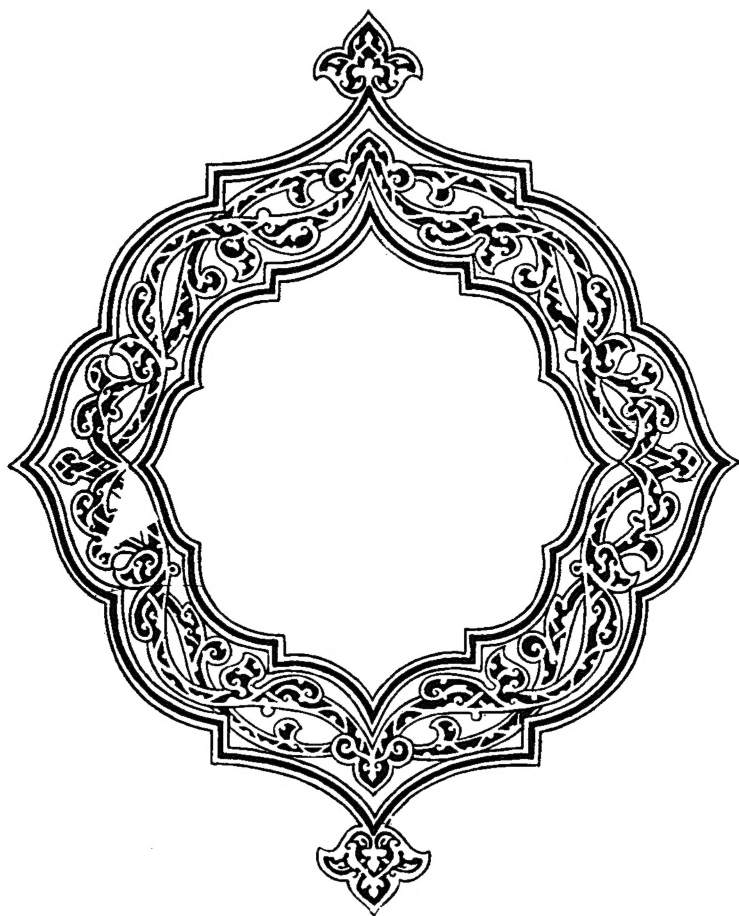
هذه ترجمة لكتاب

Education and the Social Order

by

BERTRAND RUSSELL

L O N D O N
GEORGE ALLEN & UNWIN LTD.
Museum Street

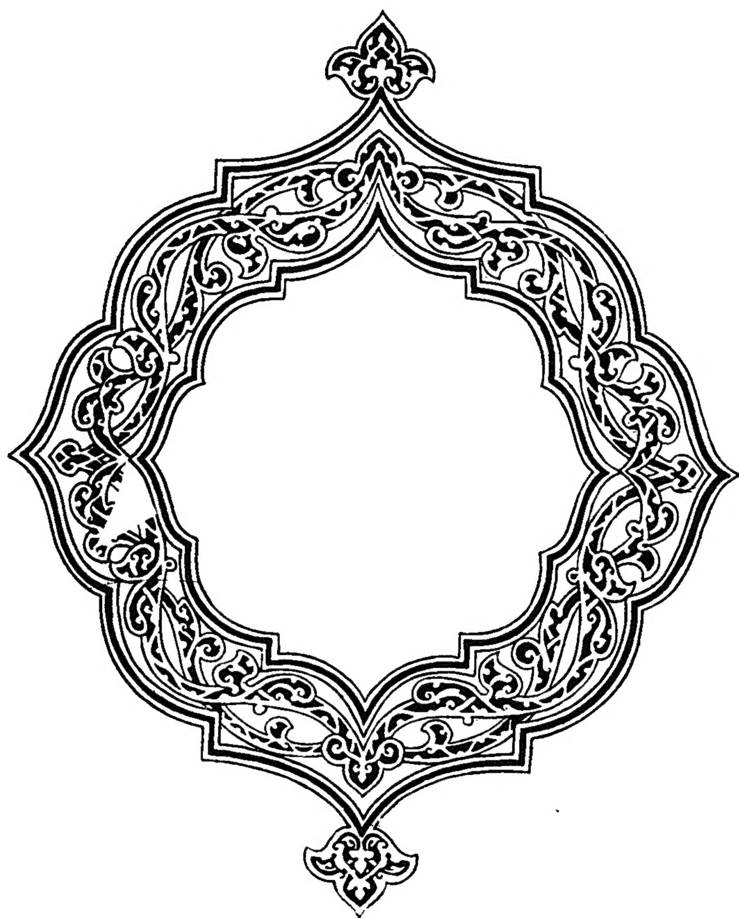


مقدمة الناشر

ان من غايات **دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر** ان تبقى مجلية في كل مضمار يرتبط بالكتاب ، مهما اختلف نوعه ومنحاه ، شرط ان يكون ذا قيمة انسانية ، يسهم في البناء الثقافي العربي المعاصر . وقد ألف القراء مفاجآت هذه المؤسسة النشيطة بكتب التراث العربي الضخمة من امثال « **الاغاني** » لأبي الفرج الاصبهاني و « **محاضرات الادباء** » لأبي القاسم حسين محمد الراغب الأصبهاني و « **مجمع الامثال** » للميداني و « **عيون الانباء في طبقات الاطباء** » لابن ابي اصيبعة ، واخيراً الموسوعة التاريخية الادبية الضخمة « **شرح نهج البلاغة** » لابن أبي الحديد . كما نشرت « **معجم متن اللغة** » للشيخ احمد رضا في خمسة مجلدات . و « **الضوء اللامع** » في ستة مجلدات للسخاوي و « **الحلل السندسية** » في ثلاثة مجلدات للأمير شكيب ارسلان ، مع عشرات الكتب المماثـــلة في الادب والفكر والتاريخ ، يقابلها ثروة من الترجمات العالمية لمفكرين أمثال : اشبنغلر ووايتهد وبرتراند راسل وجان بول سارتر وكامو وجون ديوي وكثيرين غيرهم في حقول مختلفة من اقتصاد وعـلم وسياسة وفلسفة وفن الخ .. وغاياتها من هــذا النشاط الرصين هي اغناء المكتبة العربية وتهيئة الجوار فيها للكتب العالمية ، الآمنة الجوار .

وهي اذ تقدم كتاب « **التربية والنظام الاجتماعي** » في ترجمته الدقيقة هذه فانما تعتبره حلقة من سلسة دراسات عالمية تواصل بهـــا رسالتها لخدمة الثقافة العربية وإغنائها بكل مفيد .

دار مكتبة الحياة – بيروت



مقدمة

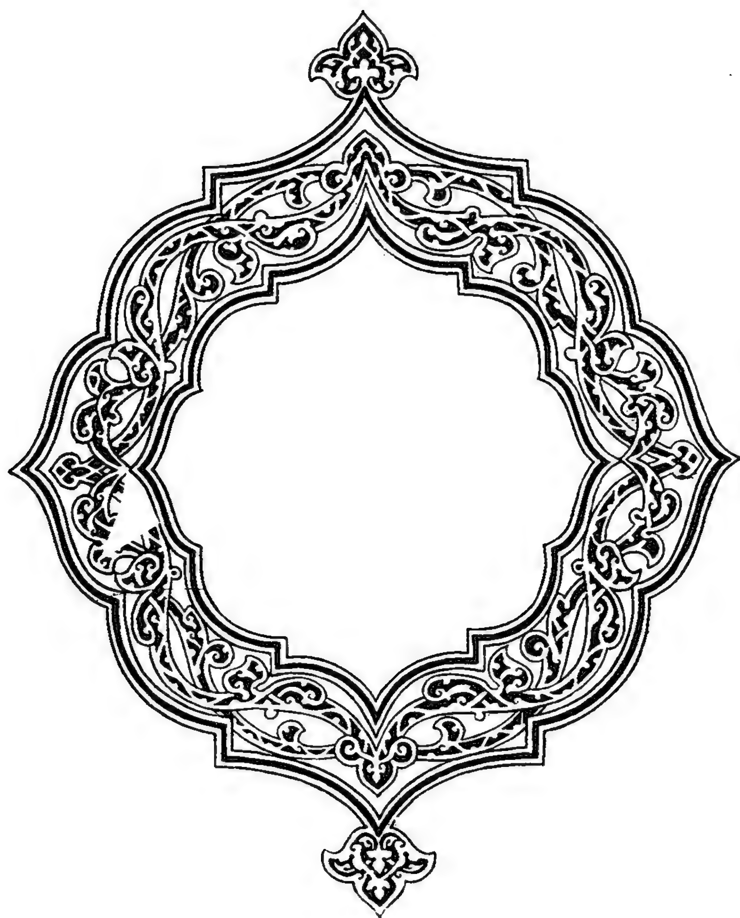
كان النجاح الذي حازه كتاب برتراند رسل (في التربية) الذي قمت بترجمته الى اللغة العربية قبل أعوام ، الحافز الذي شجعني على ترجمة كتابه الذي بين يدي القارىء (التربية والنظام الاجتماعي) ، وهو من المراجع الرئيسية في كتب التربية الحديثة .

ويمتاز هذا الكتاب بشموله على النواحي المتعددة للتربية في ظل النظام الاجتماعي ، عارضاً المؤلف ذلك بصراحته المعهودة ، التي ستبقي اثراً ملموساً لدى القارىء .

إننا بحاجة ماسة في عصرنا الحالي ، عصر العلم والتكنيك ، الى تنمية تربيتنا الخلاقة ، حيث الانسان في اكثر اعماله وأفكاره ليس ابن غرائزه ، بل صنع تربيته من المهد الى اللحد ، ولو ترك لكان في مجموعه ارقى منه اليوم بكثير . ولكن كيف يتسنى له ذلك ونحن بتربيتنا له نشرع بقتل كل مميزاته وهو طفل في البيت اولاً ، ثم في المدرسة – وهذا ما يرويه المؤلف بإسهاب – حتى اذا خاض الاجتماع وبه بقية باقية تكفلت كتبنا الدينية والادبية ، وأقاصيصنا الخيالية والخرافية ، ونظمنا الاجتماعية البالية ، بالاجهاز عليها . فيزول الانسان الطبيعي بالكلية ، ولا يبقى الا الانسان المصنوع على خلاف الطبيعة .

ان حاجتنا الى تربية هادفة ، كحاجتنا الى خبزنا اليومي .

سمير عبده



١

الفرد - المواطن

ان التربية مطلوبة في رأي جميع الدول المتحضرة الحديثة ، ولكن مهما يكن ، فهناك اقتراح كان طيلة الوقت موضع مناقشة من قبل بعض الرجال الذين تتطلب أحكامهم الاحترام . واولئك الذين يعارضون التربية يعملون هكذا بمبررات انها لا تتمكن من التوصل الى اهدافها المطلوبة . وقبل ان نتمكن من فحص آرائهم بصورة كافية ، يجب ان نقرر ما هو الشيء الذي نرغب في التوصل اليه من التربية اذا امكن . فهناك في هذا السؤال العديد من الآراء المتفرعة كما ان هناك قوة اقناع لتصور البشر . ولكن هناك انشقاق مزاجي عظيم يذهب اعمق من اي خلافات اخرى ، وذاك الانشقاق هو فيما بين اولئك الذين يعتبرون التربية اساسية لعلاقات عقلية الفرد ، واولئك الذين يعتبرونها بالنسبة لعلاقاتها مع الجماعة .

انه على افتراض ان التربية ينبغي ان تهيء سبباً يعين على التدريب لا ان تكتفي بمجرد ازالة العوائق التي تحول دون النمو ، فان السؤال لينهض امامنا عما اذا كانت التربية من واجبها ان تدرب النشء ليكونوا

أفراداً صالحين او تدربهم ليكونوا مواطنين صالحين . قد يقـــال ، بل هكذا يقول كل من اخـذ الاتجاهات الهيجلية : انه لا تعارض هناك بين المواطن الصالح والفرد الصالح ، إذ الفرد الصالح هو ذلك الذي ينمو نحو صالح المجموع ، وما صالح المجموع إلا تركيبة مؤلفة من صوالح الافراد .

ولست على استعداد ان أفند او اؤيد هذا الرأي باعتباره حقيقة ينتهي اليها التفكير الميتافيزيقي ، غير اننا في الحياة اليومية العملية ، نرى التربية التي تنتج عن اعتبار الناشىء فرداً مختلفة جـداً عن تلك التي تنتج عن اعتباره مواطن المستقبل ، فتثقيف العقـل الفرد ليس كما يبدو من ظاهر الأمر ، هو نفسه التثقيف الذي ينتج مواطناً نافعاً . ففوته مثلاً كان مواطناً اقل نفعاً من جيمس وات ، اما باعتباره فرداً فلا نزاع في انـه متفوق عليه ، واذن فهنالك صالح للفرد متميز من الشطر الضئيل الذي هو نصيبه من صالح المجتمع . ان الناس المختلفين عندهم افكار مختلفة عن وجهة نظري . ولكن مهما يكن الرأي المتخذ فانه صعب الإنكار ان تنمية الفرد وتدريب المواطن يكوّنان اشياء مختلفة : مـا الذي يتضمنه صالح الفرد ؟ سوف احاول اعطاء جوابي بدون الاقتراح لأي إيحـاء بأن الغير يجب ان يوافقوا معي .

اولاً واخيراً ، الفرد مثـل جوهر ليبنز ، يجب ان يستعرض العالم . لماذا ؟ لا أقدر ان اقول لماذا عدا ان المعرفة والادراك يظهران لي صفات رائعة في الفضيلة ، التي افضل نيوتن لأجلها عن اي نوع من المحار . ان الانسان الذي يحوز على اجماع وتألق في عقله ، كما في خفـايا الكاميرا ، من عمق الفضاء ، ونشوء الشمس والنجوم ، والعصور الجيولوجيـــة للأرض ، وتاريخ البشرية القصير ، تظهر لي لتعمل ما هو امتياز للبشر والتي تضيف اكثر

الى المناظر المختلفة للطبيعة . وسوف لا ارفض وجهة النظر هـذه حتى اذا برهنت مثلمـــا تظهر الطبيعيات الحديثة : ان عمق الفضاء والماضي « المظلم » والزمن غير المرتكز على قاعدة كانت علامات ضرب حسابيـة فقط في علامات المساواة للرياضي . وفي هذه الحالة يصبح الانسان من اجلها اكثر شهرة مثل مخترع السموات النجمية والعصور الفلكية القديمة ، وما يفقده في المعرفة يكسبه في التخيلات .

ولكن في حين ان الجزء المدرك للانسان هو قاعدة جودته وانهـــا بعيدة عن أن يكون الكل منها . فانها ليست كافية لتستعرض العالم . يجب ان تستعرض بالعاطفة ، وعاطفة مميزة متعلقة بالهدف ، وسرور عام في مجرد فعل المعرفة . ولكن المعرفة والشعور معاً لا يزالان غير كافيين للانسان الكامل . وفي العالم مد للبشر الذين يأتي نصيبهم كأسباب للتحول ، وفي ضمائرهم ضمن انفسهم كأسباب يمارسونها سوف تصبح مدركة للقوة . ان المعرفـة والعاطفة ، والسلطة ، جميعها يجب ان توسع لأقصى حـد في قصد كمال المخلوقات البشرية . والسلطة ، والعقـل ، والحب ، حسب العقيدة التقليدية تكوّن الصفات الخاصة للثلاثة أشخاص من الثالوث المقدس . وفي هـذا وعلى اي حال ، فالانسان صنع الإله في تخيله الخاص .

وفي هذا نفكر بالانسان كفرد . اننا نعتبره كما كان يعتبر من قبـل البوذيين ، والرواقيين ، والقديسين المسيحيين وجميـع المتصوفين . ان عوامل المعرفة والادراك في الفرد الكامـل كما كنا نصفه ليست اجتماعية أساساً . انها بواسطة الارادة فقط ، وبواسطـة ممارسة السلطة على ان الفرد الذي كنا نتخيلة يصبح عضواً فعالاً في الجماعة . والى هذه الدرجة فان المكان

الوحيد الذي تكون الارادة به هكذا بامكانها ان تعطى للانسان تكون تلك ارادة الدكتاتور . ان ارادة الفرد المعتبرة في معزل هي مشيئة الله التي تقول « دع مثل هذه الاشياء تكون » . وصفات المواطن تكون مختلفة جداً . فهو مدرك ان ارادته ليست الوحيدة في العالم ، وهو له علاقة في أسلوب واحد او سواه ، ليجعل الرخاء من الارادات المتضاربة القائمة ضمن الجماعة . يكون الفرد هكذا منكمشاً على نفسه ، بينما يكون المواطن ذاته محدوداً بواسطة جيرانه . وباستثناء روبنسون كروزو ، فاننا جميعاً في الحقيقة مواطنون ، والتربية يجب ان تأخذ اعتباراً من هذا الواقع . ولكن من المحتمل التمسك بأننا في النهاية سنكون احسن مواطنين اذا كنا مدركين اولاً لجميع فعالياتنا كأفراد قبل أن ننحدر للمساومات والنتائج العملية للحياة السياسية .

ان المميزات الاساسية للمواطن هي تعاونه ، في القصد اذا لم يكن في الواقع بمقدور الانسان الآن الذي يرغب في التعاون ، ما لم تكن هناك واحدة من السلطات الاستثنائية ، فانه سوف يبحث عن هدف جاهز ليتعاضد به . فقط انسان ذو عظمة استثنائية بمقدوره ان يقنع بمفرده الى هدف يكون للناس حسناً ليتعاضدوا . وكونه قد أقنعهم بامكانه ان يغريهم باتباعه . لقد كان هناك مثل هؤلاء الرجال .

افتكر فيثاغورس حسنا عندما درس الهندسة ، والتي من اجلها كل طالب مدرسة ليومنا هذا عنده مبرر ليعلنه . ولكن هذا الانفراد والشكل المختلف للوطنية يكون نادراً ، وليس من المحتمل ان يكون ناتجاً بواسطة مخطط تربوي لتدريب المواطنين . والمواطنون كما تتصورهم الحكومات هم الاشخاص المعجبون بالنظام القائم ، والذين هم على استعداد لاجهاد انفسهم في سبيل الاحتفاظ بذلك النظام ، وانه لمن عجب

انـــه بينا تستهدف الحكومات جميعاً اخراج رجال من هـــذا الطراز دون اي طراز آخر ، ترى ابطالها من رجال الماضي هم على وجه الدقة رجـــال من ذات الطراز الذي تحاول الحكومات ان تمنع ظهوره في الحاضر ، فالامريكيون يمجدون جورج واشنطن ، وجفرسن ، لكنهم يزجون في السجن كل من شاطرهما في آرائهما السياسية ، والانجليز يمجدون (بوريقيا) لكنهم كانوا ليعاملونها بالضبط كما عاملها الرومان ، لو انهـا ظهرت في الهند الحديثة . والأمم الغربية جميعاً تمجد المسيح ، مع انه لو عاش اليوم لكان يقيناً موضع ريبة من رجـال سكوتلنديارد في انجلترا ، ولامتنعت عليه الجنسية الامريكية على اساس نفوره من حمل السلاح . هذا يوضح الوجوه التي تجعل الولاء للوطن غير كاف وحده ان يكون مثلاً أعلى ، لأنه باعتباره مثلاً اعلى ينطوي على انعدام قوة الابداع ، وعلى الرغبة في الخضوع لأصحاب السلطان أياً كانوا ، او حكم القـــلة تكون حكومتهم ديمقراطية ، وهو اتجاه يناقض الطابع المميز لعظماء الرجال ، ويميـــل اذا بولغ فيه الى الحيلولة دون أفراد الناس ان يبلغوا العظمة الى الحد الذي تمكنهم منه كفاياتهم .

ولا اعني أن اكون مفهوماً مثل محامي العصيان . ان العصيان بحـد ذاته ليس احسن من الاستسلام ، حيث أنه مقرر بالتساوي بواسطة العلاقات، والتي هي خارج انفسنا اكثر مما تكون بواسطة التقدير الشخصي الخالص للقيم . وسواء امتدح العصيان او احتقر فانه يعتمد على السبب الذي من اجله يعصي الشخص ، ولكن يجب أن تكون هناك الامكانات للعصيان على مناسبات وليس مجرد استسلام اعمى ناتـج عن تربيـــة صارمة في الأذعان . والذي ربما يكون اكثر اهمية سواء في العصيان او الاستسلام ، على أن يكون هناك الامكانية لاصابة خط جديد كلياً كما فعل من قبل

فيثاغورس عندما أوجد دراسة الهندسة .

ان الحاصل فيما بين المواطنية والفردية يكون هاماً في التربية ، وفي السياسة ، وفي السلوك ، وفي الميتافيزيقا . ففي التربية هناك بالمقارنة مظهر عملي بسيط ، بامكانه أن يكون لدرجة ما معتبراً بعيداً عن الحاصل النظري . ان تربية الأحداث لكامل الجماعة هي عمل يكلف باهظاً ، وهو على العموم ، واجب يقع على الدولة . والمنظمة الوحيدة الأخرى المهتمة كفاية في جعل عقلية الاحداث يكون عندها نصيب هام حقيقي في التربية هي الكنيسة . ان هدف الدولة يكون طبعاً تدريب المواطنين . ولبعض الأسباب التاريخية المعينة ، فان هذا الهدف حتى الآن مستلطف لدرجة بواسطة التقاليد . كانت التربية في القرون الوسطى تعني تربية الكاهن. ومن عصر النهضة حتى الأزمنة الحديثة اخذت تعني تربية «الجنتلمان». نتج ذلك بتأثير ترفع الديمقراطية واصبحت تعني التربية التي تجعل الانسان يظهر مثل «الجنتلمان»، اشياء عديدة ذات فوائد تافهة للمواطن التي كانت تعلم في المدارس، ومع وجهة نظر لجعل الباحثين دمثين .

ان الأسس الأخرى في التربية باقية من التقاليد الكنسية للقرون الوسطى ، التي كان الهدف منها جعل الانسان يخشى طرق الله . والكياسة والعبادة ، هي صفات الفرد اكثر مما هي صفات المواطن . الدين المسيحي كدين هو للفرد ، نظراً لحقيقة انه بعث فيما بين البشر المجردين من السلطة السياسية . انها تعتبر بدائية فيما يخص علاقة الروح بالله ، في حين انها تعتبر علاقات الانسان بجيرانه ناتجة عن شعور الانسان الخاص ، وليس عن القوانين والمؤسسات الاجتماعية .

ان العامل السياسي في النصرانية ، كما هو الحال في وقتنا الحاضر ،

اتى مع قسطنطين . فقبل عهده كان من واجبات المسيحية عـدم اطاعة الدولة . ومهما يكن ، فقد ترك الاساس الفوضوي للنصرانية خميرة اوصلت خلال تاريخها انتعاشاً للصفات البدائية لعـــدم الطاعة . ورفض Cathari و Albigenses والفرنسيسكان الروحانيون جميعهم في طرقهم المختلفة القدرة لصالح نورهم الداخلي . والبروتستانتية بدأت في ثورة ضد السلطة ، ولم تجد أي انصاف واقعي لمثل هذه التجربة من التسلط العقائدي . ذلك لانهـا كانت تميل للمطالبة في التوصل الى الاشراف على الحكومة . وتباعاً كانت البروتستانتية تساق بمنطق داخلي لتقبل الاحتمالات الدينية ، ومثل وجهة النظر هــذه لم تخترها الكاثوليكية بعقيدتها ، وتقبلتها عملياً فقط ، وذلك لأسباب الراحة المؤقتة ففي هـــذا يمثل الكاثوليك تقاليد الامبراطورية الرومانية ، في حــين أن البروتستانية قـــد عادت الى الفردية من عهد ابوستليس Apostles والآباء السابقين .

يمكن تقسيم الاديان الى سياسية ، وتلك التي تهـــم روح الفرد . الكونفوشسية هي دين سياسي ، كما ان كونفوشيوس قد قـام من بلاط الى بلاط ، فقد اصبح في الأساس مهتمـاً بمشكلة الحكومة ، وباستدراج مثل هذه الفضائل هكذا ليجعل حكومـة صالحة سهلة . امـــا البوذية فبالعكس ، فبالرغم من الحقيقة التي كانت في ايامها الباكرة ، لقد كانت دين الامراء . وبالاساس هي ليست سياسية ، ولكني اعترف انها سياسية بمعدل البابوية ، ولما قابلت رئيس كهنة البوذيين في اليابان ذكرني برئيس الأساقفة البريطاني . ومهما يكن فان البوذي في لحظاته الاكثر تدينـــاً يعتبر نفسه بالاساس كأنه المخلوق الوحيد . كان الاسلام على العكس من ذلك ، اذ كان منذ بدايته الاولى ديناً سياسياً . وقد جعل محمـــد نفسه

حاكماً الناس ، ومن ثم الخلفاء الذين اعقبوه بقوا هكذا حتى انتهاء الحرب العظمى . ان هناك فوارق ظاهرة فيما بين الاسلام والمسيحية والتي ركبها الخلفاء بالنسبة للمسلم بدون التصريح ، في حين ان النصرانية جرت بواسطة طباعها غير السياسية لإثارة تنافس بين سياستين اسمياً ، البابا والامبراطور ، والتي دعم الاول مطالبه بالسلطة الدينية على غير الهام من الحكم اللاديني . والشيوعية كونها قد اقيمت في روسيا فانها دين سياسي مشابه للاسلام . ولا يمكن بأي حال تجنبها ، ومؤثر عليها بواسطة التقـــاليد البيزنطية . وهناك امكانيـــة ان الحزب الشيوعي من المحتمل ان يحل مكان الكنيسة تاركاً الحكومة اللادينية لتلك الدرجة من استقلال السلطة الدينية، والتي كانت تملكها قبل الثورة . وفي هذا كما في الامور الاخرى ، فان روسيا مقسمة فيما بين العقلية الشرقية والغربيـــة . وطالما ان روسيا آسيوية فان الحزب الشيوعي يحتل مكان الخليفة ، وفي حـــين تكون روسيا اوروبية فان الحزب الشيوعي يحل مكان الكنيسة .

ان الهدف من وجهة النظر الدقيقة دقة عين العصفور لتاريخ الاديان ، كان الاقتراح على ان المبـــادىء في التربيـــة السارية والتي هي محصورة بثقافة الفرد ، تكون في الاساس من حصيلة التقاليد ، ومن المحتمل ان تتلاشى اكثر فأكثر بواسطة تربيـــة مواطنية . فالتربية المواطنيـــة اذا كانت حكيمة ، بإمكانها الاحتفاظ بما كان الاحسن في تربيـــة الفرد . ولكن اذا كانت بأي حال قصيرة النظر فانها سوف تهز الفرد كي تجعل منه اداة لينة للحكومة . انهـــا هامة اذن لادراك الاخطار المطبوعة في تقاليد المواطنين عندما تضيق بالخداع . فأولئك الذين يقيمون انظمـــة الدولة للتربيـــة سوف يجعلون البشر عبثيين حتى كمواطنين اذا اتخذوا

وجهة نظر ضيقة الى ما يشاء المواطن الصالح . ويقدر الرجـال الذين عندهم ثقافـة واسعة للفرد على استحسان مـــا تساهم تربية الفرد بالنسبة للمواطنية . ولسوء الحظ ، مثل هؤلاء الرجال في يومنا الحاضر يميلون ليحل مكانهم اكثر فأكثر رجال ذوو كفاءة تنفيذية ، او مجرد سياسيين يجب ان يكافأوا على خدماتهم .

ان التربية التي من شأنهـا ان تعمل مواطنين صالحين لها شكلان مختلفان ، حسبما تكون موجهة لدعم او للقضاء على النظام القـائم . ومن الممكن الافتراض نظراً لأهمية الدولة في التربية ، ان تلك التربية ستكون على الاغلب موجهة دائماً لدعم نظام الدولة للظروف الراهنة . وهذا مهما كان ليس هو الحال . عـدا روسيا ، حيث ان النفوذ الديني والطبقـــة الوسطى هما قويان جداً كفـــاية ليحكما قسماً كبيراً من التربية لتبقى رجعيـــة ، حيثما الاشتراكية تكون قـــد وصلت للسلطة . ومن الجهـة الاخرى ، قبل الثورة الفرنسية ومرة ثانية قبل الثورة الروسية ، كانت التربية في الاساس عندما لم تكن منتشرة معـــادية للدولة . ففي اغلب الاجزاء المختلفة من الولايات المتحدة ، هناك ميل مماثل في الوقت الحاضر . ان جامعات الولايات تميل الى تعليم قواعد بأكثر او اقل قصداً ، والتي هي غير ملائمـــة للمزارعين الجهلاء الذين يدفعون الضرائب التي تعيش الجامعات عليها . ومن غير الطبيعي ان يفكر المزارعون ان اولئك الذين يدفعون الى العازف ، يجب ان يطلبوا اللحن ، ولكن عندمـــا لا يقدرون ان يفهموا العازف او يعرفوا اي لحن يعزف فانهم يجدون هذا صعباً نوعاً ما . وبالرغم من هذه الاستثناءات ، فان التربية في العالم الحديث تميل لتكون قوة رجعية تدعم الحكومة عندما تكون محافظة ،

وتعارضها عندما تكون تقدمية ، ولسوء الحظ ايضاً ، ان عناصر المواطنة الجيدة التي تعلّم في المدارس والجامعات هي من أسوأ العوامل وليست الاحسن ، والذي يؤكد على الاسس يكون ولاء في شكل ما عسكرياً . وهذا يؤكد القول ان الادراك الضيق للأشخاص الذين يعيشون في منطقة معينة ، كمعارضين لأولئك الذين يعيشون في مكان آخر ، والرغبة بتوسيع مصالح الاشخاص في المناطق المختارة بواسطة استعمال القوة العسكرية . اما فيما يتعلق بالشؤون الداخلية ، المواطنة ، كما بصورة عامة ، تخلد عدم العدالة التقليدية . ان السواد الاعظم من الشباب الاغنياء يشعرون على سبيل المثال بالاخلاص اثناء اضراب ، عندما يقومون بدور الأرجل السوداء (أي يحلون مكان المضربين في العمل) ، انه من الضرورة تصور اي واحد قد تعلم كي يكون قادراً على تصوّر القضية لصالح المضربين ، ومن الممكن حينما تكون عدم العدالة سارية اثارة الرأي الشرعي والدستوري لمساندتها . ان المثقفين في كل بلد – عدا روسيا – يميلون ليكونوا شرعاً جبناء ، وسواء من قبل دخلهم او من انتهازيتهم ليكونوا مساندين للأغنياء . ففي كلا الحالتين يميل علمهم للتأكيد بصورة اكثر على اهمية القانون والنظام ، مع العلم ان هذه تعطي تفوّقاً عن الحاضر . وكردّة فعل ضد هذا التأكيد ، فان اولئك الذين يرغبون في اي تحسن جذري في العالم مرغمون ان يكونوا ثوريين ، والنظرية الثورية لواجبات الجماعة تكون عرضة ان تصبح ضيقة ، وعلى المدى البعيد تكون خطيرة مثل ذاك المدافع عن القانون والنظام .

هناك بأي حال ، امور معينة من المحتمل ان يكون بها المدافع عن التحول احسن تربية من المدافع عن الوضع الثابت . ان تقاليد الحيوانات

كافية بحد ذاتها لتجعل الانسان يحبذ الاساليب القديمة مثلما تجعل الحصان حيث يجب ان يعدو على الشارع والتي ترجع الى العادة ، ولا احد من تقدمي المقليين الكبار مطلوب من اجل ان يكون من المحافظين. ان المدافع عن التحول عليه ان يكون على العكس عنده درجة معينة من التخيل ، وذلك ليكون قادرا لتخيل اي شيء مختلف عما هو ساري. ويجب ان يكون ايضاً عنده قوة الحكم للحاضر من وجهة نظر القيم ، ومنذ ذاك ليس بامكانه ان يكون غير مدرك على ان الوضع الراهن له المدافعون عنه ، وان يدرك ان هناك على اقل تعديل وجهة نظر هي ممكنة للكائنات البشرية ، اضافة الى انها ليست ملزمة لاقفال عواطفها ضد ضحايا الظلم السائد ، او لاختراع اسباب معقدة ، الغاية منها اثبات ان المآسي السهل منعها يجب ان تمنع . ان كلا من الذكاء والتعاطف يظهران اذاً انهما اقل كبحاً بواسطة التربية المعادية للوضع الراهن عما هو صديق لها .

ولهذا هناك على أي حال حدود معينة . فالعداء للوضع الراهن يمكن التوصل اليه من احد مصدرين : يمكن أن ينبع من التعاطف مع التعساء ، او من الحقد على المحظوظين . فاذا نبعت من الأخير ، فانها تشمل حدوداً كثيرة التعاطف كما تكون مشمولة في المحافظة . ان الكثيرين من الثوريين في احلامهم اليومية ليسوا مهتمين لدرجة بالسعادة التي تأتي لعامة الشعب كما هو بالنسبة للانتقام الذي سيكونون قادرين على انزاله بالسفهاء المتمسكين بالسلطة ، والذين يعانون منهم في الحاضر . ومن جانب الذكاء هناك مرة ثانية ميل للمدافعين عن التحول لينظموا انفسهم في فئات ملتحمة مع بعضها في استقامة دقيقة ، يكرهون الهرطقة ، ويفكرون بها

كخيانة مسلكية اصالح الخاطئين المتفوقين . ان الاستقامة هي قبر الذكاء ، ولا يهم مهما كانت الاستقامة . وفي هـذا الشأن فـان الاستقامة الجذرية ليست احسن حالاً من الرجعية .

ان احدى الطرق الهامة التي يهذب بهـا الفرد الخصومات مع تربية المواطن ، يفكر بهـا ضمن حدود ، وتكون بشأن الصفات العلمية باتجاه الأمور المشكوك فيها . ان تطور العلم نمّى تكنيكاً معيناً ، وهو في الاساس تكنيك الاكتشاف ، وذلك في القول عن التحول . ولنتكلم بصراحة عن الاطار العلمي للعقل فهو يكون ذاك الذي يسهل الاكتشاف وليس ذلك الذي يجعل الانسان يكون عنده اعتقاد غير مهتز في الاوضاع الحاضرة للعلم . من المحتمل أن يكون المواطن المثقف عالياً غير قادر على الاكتشاف ، طالما انه سيحترم من هم اكبر منه سناً ، ويقدم الاحترام للرجال العظام في الاجيال الغـابرة ، ويتطلع برعب الى جميع العقائد المدمرة . الدول الحديثة التي تكون مبنية على اسس علمية تكون اذن في مأزق . فبعض الدول بفضل الناس غير المستقيمين يخترعون متفجرات حديثة ، وبعضهم يفضل ان يكون شبانها مستقيمين يتمسكون بالتقاليد الغـابرة العظيمة . فالبيزنطيون حينما تمكنوا من الحصول على مساعـدة الغرب بواسطة نظريات عقائدية ، اختاروا بدلاً من الاحتفاظ باستقامتهم قساوة الاندحار على يد الاتراك . ونفس الشيء في البحرية البريطانية عندما جوبهت بالمناقض المزعج سواء الاذعـان لمعـاكسة الشباب او ان يصبحوا عديمي الفـائدة بواسطة تخيل نيلسون . ولقد فضلوا المنـاقض الاخير ، مهما كانت المآسي التي كانت ستحل بواسطة احترامها للتقاليد العظيمـة لأسلافنا . وهكذا على اقل تعديل قيل من قبل الذين يجب ان نعرفهم .

انها احدى المناقضات لوقتنا ان العلوم التي هي مصدر السلطة ، وعلى الأغلب خاصة سلطة الحكومة ، تعتمد في تطورها على حالة نظام ضروري للعقل في الباحث .

ان الوضع العلمي للعقل ليس مشككاً ولا عقائدياً . الشك يتمسك في ان الحقيقة غير قابلة للاكتشاف ، بينما العقائدي يرى أنها قد اكتشفت . إن رجل العلم يرى أنها قابلة للكشف مع كونها لم تكتشف ، وفي اي حال في الامور التي يبحثها . ولكن حق في القول ان الحقيقة قابلة للاكتشاف ولنقل نوعاً ما اكثر من اعتقاد رجل العلم الواقعي ، طالما انه لم يتوصل لاكتشافاته بصورة نهائية مطلقة ، ولكن حسب التقديرات تكون عرضة لتصحيحات في المستقبل .

ان غياب النهاية هي من اسس الروح العلمية . واعتقاد رجل العلم يكون اذاً تجريبياً وليس عقائدياً ، ولكن فيما يتعلق بما سينتج عن ابحاثه الخاصة فهي شخصية وليست اجتماعية . ويعتمد هذا على ما هو بنفسه قد أكد بواسطة المراقبة والتدخل ، وليس على ما يعتبره المجتمع مخططاً للمواطن الصالح ليؤمن به .

ان هذا النزاع فيما بين الروح العلمية وفائدة الحكومة من العلم من المحتمل في النهاية ان يوصل التقدم العلمي الى الجمود ، طالما ان التكنيك العلمي سيكون مستعملاً بزيادة لتثبيت الاستقامة والاستعداد . فاذا لم يحدث هذا ، فانه سيكون من الضروري على الاولاد الذين يظهرون درجة معينة من الكفاءة للعلم ان يستثنوا من التدريب العادي للمواطنين ، ويمنحوا رخصة للتفكير . وسيكون الاشخاص الذين يتوصلون الى مستوى معين في الامتحانات مسموح لهم ليضعوا بعد اسمائهم حرفي (L. T.)

والتي تعني « مجاز للتفكير » . ومثل هؤلاء الأشخاص يجب ان لا يجردوا فيما بعد من اي منصب تحت ظروف انهم يفكرون ان من هم اعلى منهم هم مجانين .

ولنتكلم بجدية اكثر ، فان جميع إدراك الحقيقة هو واحـد يصعب اخفاؤه مع الأفكار العادية للمواطنين . ومن الممكن القول طبعاً كما يقال من قبل الذرائعيين ، ان إدراك الحقيقة في شكلهـا التقليدي ليس له اي واقع ، وان الحقيقة تكون مناسبة الاعتقاد فقط . فاذا كان هـذا هو الحال ، فبالامكان تقرير الحقيقة بقوانين البرلمان . وقـد وجد ليغ هنت Leigh Hunt انه ليس من السهل لنصدق ان الأمير ريجنت كان سميناً ، طالما ان هذا الرأي سبب له دخول السجن .

فاذا تتبعت ان الامير ريجنت كان نحيلا ، فانه من الصعوبة في هذه الحالة تقبل فلسفة الفيلسوف . وليس بإمكان احـد ان يقـاوم بصعوبة الاقتناع ان هناك شيئاً ما مقصوداً وحقيقة مطلقة عن وضع ان الامير ريجنت كان بديناً . وطبعـاً بإمكاني ان اتخيل عدداً كبيراً من المجلدات الموضوعة للتهرب من هذه النتيجة . ان كلمة « بدين » هي شرط علاقة . واني اذكر انه عندما كان آخر تلميذ المسيح ، وليس بأي حـال انسان صغير ، وجد نفسه على العشاء فيما بين اثنين مع المع كتـّاب زماننـا ، وأشار انه يجتاز التجربة غير العادية لشعور انه نحيل .

وبالمقارنة لبعض الخنازير الضخمة فانه من المحتمل ان الامير ريجنت كان نحيلا . ولذا جعلت افـادة ليغ هنت مضبوطة ، وسيكون ضرورياً القول ان الامير ريجنت ينتمي الى ابدن نسبة مئوية من الذكور البالغين ،

او بعض مثل هذه الافادة لتلك . وانه سيكون ممكناً القول « ان معدل وزن الأمير ريجنت لارتفاعه بالطول يفوق عن الجميع في واحد بالمائة ، من رعايا جلالته من الذكور البالغين » . هذه الافادة من الممكن طبعاً ان تكون على هامش الشك ، ولكن اذا كانت هكذا من الممكن ان تجعل بالتأكيد مضبوطة باستبدال اثنين بالمائة ، بواحد في المائة . وليس بالامكان التثبيت ان مثل هذا الافتراض هو حقيقة ، ذلك لانه يسهل تصديقه ، او انه سيصبح كذباً من خلال حقيقة انه من الاجرام مقاطعته . لقد اخترت مثالاً من زمن مضى عليه اكثر من مائة سنة ، ومنذ ذاك الوقت لا احد يظهر بعد الغضب السيامي ، ولكن الأمور المطابقة مع الحقائق هي في يومنا هذا ذات اهمية للحكومات ، ولكن لا يرغب اي شخص في البقاء خارج السجن ويقاطعها .

ان جميع الحكومات في العالم تتبع اساليب متقنة لاخفاء الحقائق التي تعتبرها غير مرغوبة ، وتفرض اشكالاً مختلفة للعقوبة لأولئك الذين ينشرون المعرفة والتي يظن انها سيئة للسكان . وهذا ينطبق خاصة على المعرفة من النوع الذي يعتبر مثيراً ومهيجاً ، والنوع الذي يعتبر مسيئاً . وسوف لا اقدم امثلة لذلك ، لأني اذا فعلت فسوف اوقع نفسي تحت طائلة القانون .

وللسبب الذي كنا نبحثه ، التربية في المواطنة لها أخطار محزنة . مهما كان الجدال لصالح بعض التربية المقررة لانتاج اتحاد اجتماعي يكون عاماً .

ان اماني الحياة الحضارية تعتمد على التعاون ، وان كل زيادة في المتطلبات الصناعية هي زيادة في التعاون . فمثلاً الصين لديها جميع الامكانيات

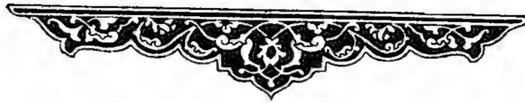
للازدهار والثقافة العالية ، عدا قيام الحكومة المركزية القوية . واميركا اللاتينية حررت نفسها منذ زمن بعيد من اسبانيا والبرتغال ، ولقد بقيت متخلفة بواسطة الميول الفوضوية لسكانها . هناك بعض الاثبات على ان الولايات المتحدة تستعد لاتباع مثال اميركا اللاتينية . ومن المؤكد ان الخطر الأعظم الذي تعاني منه الولايات المتحدة في الوقت الحاضر هو فقدان اي احساس حيوي للمواطنة من جانب قسم كبير من مواطنيها. وهذا لا يمكن ان يعود لأي فشل في شرح المواطنة في التربية .

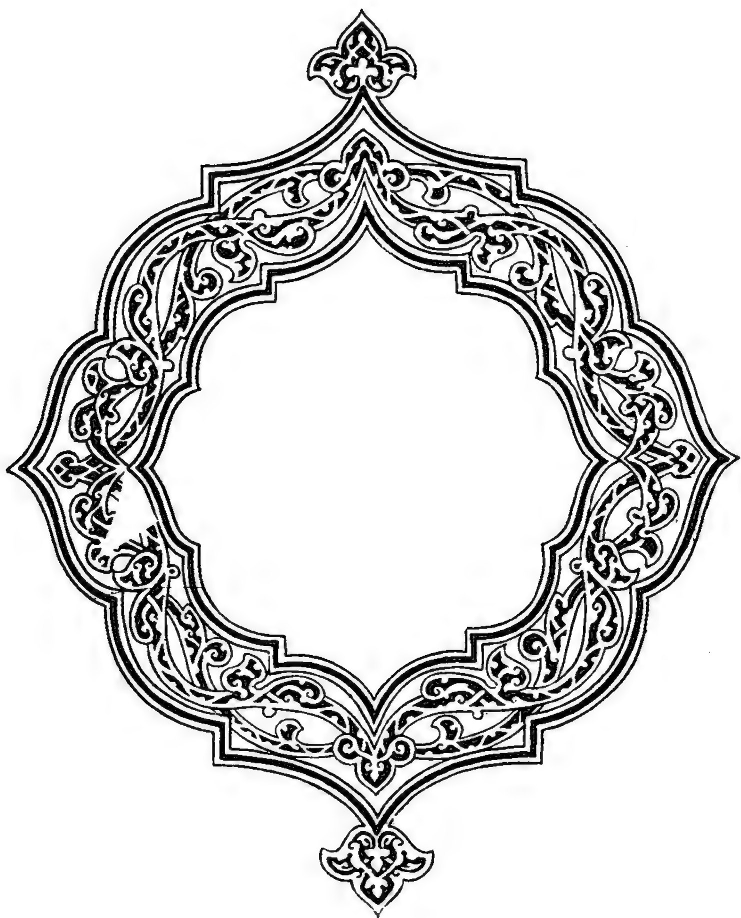
وعلى العكس ، جميع الجهاز الثقافي في اميركا ، من المدارس العامة الى الجامعات مهتم في شرح المواطنة ، وفرض واجباتها على عقول الشباب . بالرغم من الجهود الثقافية هذه ، فان الفرد الاميركي العادي سواء من نظرته للتقاليد السائدة او لحقيقة ان اسلافه الحديثين كانوا اوروبيين ، ليس عنده الشعور الفعال للجماعة الذي كان سائداً في البلاد الأقدم في اوروبا . وما لم يتوصل له فانه سيكون هناك خطر في ان جميع النظام الصناعي يمكن ان ينحل .

ان جانباً من الارتباط القومي ضمن الدولة ، والذي هو كل ما تحاول جميع تربية الدول التوصل اليه حالياً ، هو الارتباط الدولي بادراك جميع العنصر البشري كوحدة تعاونية واحدة ، حيث يصبح بصورة متزايدة ضرورياً لحضارتنا العلمية ، وان انشاء دولة علمية ومؤسسة ناتجة عنها لاقامة نظام تربوي مقرر ، ينتج الاخلاص للدولة العالمية . ومما لا شك فيه ان مثل هذا النظام سوف يتطلب بأي حال قرنا او قرنين من الشدة المعينة ، والتي ستعمل ضد تطور الفرد ، ولكن اذا كان نقيض هذا، يكون الاضطراب وموت الحضارة ، والثمن سيكون مستحق الأداء .

ان المجتمعات الحديثـة محبوكة بتقارب اكثر من تلك التي كانت في الايام الغابرة في اجهزتهـا الاقتصادية والسياسية ، واذا كانت ستكون ناجحة يجب ان يكون هناك زيادة مطابقة في ادراك المواطنة من جانب افراد الرجال والنساء . كما ان الاخلاص للدولة العالميـة سوف لا يتطلب طبعاً اسوأ الصور من اخلاص الفرد للدول القائمة ، اي بالتحديد تشجيع الحرب . ولكن من الممكن ان يتطلب تخفيضاً معتبراً من الذكاء والميول الى الجمالية . واعتقد انه مهما كانت الحاجة الاكثر حيوية للمستقبل فسوف تكون تنمية الافكار لامعة للمواطنة العالمية .

وحينما يصبح العـالم مرة واحدة (وحدة) اقتصادياً وسياسياً ، تصبح مؤمنة وممكنة التربية للفرد لينتعش . ولكن لغاية ذاك الوقت تبقى جميع حضارتنا في خطر اعتبارها ثانوية النوع . ان تربية الفرد بالنسبة لرأيي شيء اجمل من تربية المواطن . ولكن اعتبارها سياسياً بالنسبة لعلاقتها بحاجة الوقت ، فان تربية المواطن يجب ، كما اخشى ، ان تحتل المكان الاول .





٢

النظرية السلبية للتربية

هنالك ثلاثة فروع للنظريات التربوية ، جميعها لها انصارها في وقتنا الحاضر . الاولى تبحث في الهدف الوحيد للتربية ، وهو تجهيز الفرص للنمو وازالة نفوذ التخلف . والثانية تتمسك في أن هدف التربية هو منح ثقافة للفرد وتطوير امكانياته لاقصى حد . والثالثة تأخذ في أن التربية يجب أن تعتبر نوعاً ما علاقاتها بالمجتمع اكثر من علاقاتها بالفرد ، وبذلك يكون عملها تدريب المواطنين النافعين .

فمن هذه النظريات ، الاولى هي الأحدث . في حين أن الثالثة هي الاقدم . والثانية والثالثة اللتان بحثناهما في الفصل السابق عندهما على وجه العموم وجهة نظر ان التربية تقدم شيئاً ما واقعياً ، بينما الاولى تعتبر عملها سلبياً خالصاً . ولا تربية حقيقية تستمر كلياً وتماماً عند أي من النظريات الثلاث . ان كل الثلاثة في اجزاء مختلفة توجد في كل نظام يكون واقعياً سائداً . واظن انه ليست ولا واحدة من الثلاثة بحد ذاتها واضحة تماماً ، وان اختيار النظام المناسب للتربية يعتمد لحد كبير على اختيار الجرأة المطلوبة فيما بين الثلاث نظريات .

واعتقد من طرفي انه توجد حقيقة اكثر في النظرية الاولى التي يمكن تسميتها وجهة النظر السلبية للتربية، ولا اظن انها تحتوي بأي وسيلة على كافة الحقيقة. ان النظرية السلبية قد وطدت تفكيراً تقدمياً اكثر في التربية. انها جزء من العقيدة العامة للحرية التي اوحت بأفكار تحررية منذ زمن روسو. ومن المستغرب حقاً ان التحرر السياسي كان مرتبطاً بالاعتقاد في التربية الاجبارية، بينما الاعتقاد في حرية التربية سار على نطاق شاسع بين الاشتراكيين وحتى الشيوعيين. ومهما يكن، فان هذا الاعتقاد مرتبط عقلياً مع التحرر، وله نفس درجة الصدق والكذب كالذي ينتمي الى فكرة الحرية في محيطات اخرى.

والى اوقات حديثة جداً، لم يستوضح اي شخص وجهة النظر على ان من واجبات التربية تدريب الطفل في الطريق الذي يجب ان يسلكه. كأن يتعلم قواعد السلوك، وتقاليد الصناعة، ومعدل علم مناسب لمركزه الاجتماعي. اما الاساليب التي كان يتوصل بها الى هذه، فقد كانت صارمة وجاهزة. وفي الواقع ليست غير شبيهة لتلك الاساليب المستعملة لتدريب الخيول. ما كان يفعله الكرباج للحصان كانت تفعله العصا للطفل. لا يمكن الانكار ان هذا النظام من اجل كافة قسوته اعطى على وجه العموم النتائج التي كان يهدف اليها. لقد كانت قلة فقط تلك التي عانت التربية، ولكن في تلك الاقلية تقاليد معينة قد شكلت تقاليد النظام الذاتي والتآلف الاجتماعي، والقدرة على القيادة، ومن القسوة التي لم تأخذ أي اعتبار لحاجات البشر.

ان الناس الذين تدربوا على ايدي الدكتور كيتي Keate وامثاله من

الاساتذة المحدودي العقلية ، جعلوا بلدنا انكلترا كما هي الآن ، ووسعوا رحمات حضارتنا الى الوثنيين الجهلاء في الهند وافريقيا . انني لا ارغب في ان اخفض من قيمة هذا الجهد ، وانني لست متأكداً انها كانت ستكون ممكنة بواسطة اي اسلوب آخر ، وبنفس الاقتصاد في الجهد . لقد كان حصيلتها نظراً لقساوة معينة ، ولعدم الطاقة الكلية لشك الاذكياء ، انها حصلت على الصفات المطلوبة من قبل عنصر امبريالي فيما بين الشعوب المتخلفة لقد كان بمقدورهم ان يطبقوا الحكم الصارم الذي تعرضوا له عندما كانوا شباباً ، وليتجنبوا الادراك انه مهما افترض ان تكون ثقافتهم ، فقد اجاعوا العبقرية والشعور كي يقووا الإرادة . ففي اميركا توصّل لنفس النتائج بواسطة البيورتانيه Puritanism في حين انها بقيت قوية .

كانت الحركة الرومانتيكية في الاساس احتجاجاً في اسم الشعور القوي ضد الاصرار الزائد السابق على الارادة . وقد توصلت الحركة الرومانتيكية الى شيء ما فيما يخص معاملة الاطفال حديثي السن ، ولكن كانت في الاساس السلطات التربوية محاطة بشدة بالغة ، ومعتادة كثيراً لتأمر ان يكون لها تأثير مستحسن من قبل الافكار الانعم من الرومانتيكية . انها فقط في يومنا الحاضر ، على ان وجهة نظرها العامة للحياة باشرت لتنتج تأثيراً واسع المدى على فكرة التربية . ولكن تماماً مثل حالة الفوضى في الاقتصاد ، كان عليها ان تفسح الطريق لأشكال جديدة من النظام المخطط هكذا في فوضى التربية على انه دور ضروري ، ولا اعتقد انها الكلمة الأخيرة . انني اقترح في هذا الفصل شرح القضية في صالحها وان اقوم بفحص حدودها .

ان الحال لأعظم حرية ممكنة في التربيـة تكون قوية جداً . ولنباشر في فقدان الحرية التي تشمل الاختلاف مع الراشدين ، والتي بصورة مستمرة لها اثر عقلي عميق عمـا عرف لغاية وقت حديث جداً فالطفل الذي يرغم بـأي وسيلة بالقوة يتظاهر بالاذعان في كراهية ، واذا كان كالعادة غير قادر ليعطي مخرجاً حراً لكراهيته فانها تكمن داخلياً . ومن المحتمل ان تنغمس في عدم الادراك مـع جميع انواع العواقب الغريبة ، خلال فترة باقي حياته . فالأب كهدف للكراهية يمكن ان تحل مكانه الدولة ، والكنيسة ، او امـة غريبة . وهكذا تقود الانسان ليصبح مضطرباً او عسكرياً كمـا يمكن ان يكون الحال . او كراهية السلطات ثانيـة التي تضغط على الطفل ، يمكن أن تتحول الى رغبة تسبب ضغطاً فيما بعد على الجيل التالي . او من المحتمل ان يكون هناك مجرد ظلم عام حيث يصبح السرور الاجتماعي والعلاقات الشخصية غير ممكنة . لقد وجدت يوماً في المدرسة ولداً من حجم متوسط يسيء معاملة ولد اصغر منه . واستجوبته ولكنه قال : « الاكبر يضربني ، وهكذا انا اضرب الاطفال ، وهـذا عدل » . ففي هذه الكلمات مثال لتاريخ العنصر البشري .

هناك تأثير آخر للارغام في التربية هو انهـا تدمر مصالح الاصالة والذكاء والرغبة للمعرفة . ففي اي حال ، مقدار جيد من العلم هو طبيعي للصغار ، ولكنه بوجه عام مقضي عليه من حقيقة انهم يمنحون اكثر مما يستحقون ، او أن ما بأمكانهم ان يستوعبوا .

ان الاطفال الذين يرغمون ليأكلوا يحصلون على كراهية للطعام ، والاطفال الذين يرغمون ليتعلموا يحصلون على كراهية للعـلم . وعندما

يفكرون فانهم لا يفكرون تلقائياً في الذي يركضون فيه او يقفزون او يصرخون له . انهم يفكرون بوجهة نظر لإسعاد بعض الراشدين . وهكذا مع محاولة للاصلاح اكثر مما هي غريزة طبيعية . ان قتل النشاط يكون بصورة خاصة بلية في الاتجاه الفني . والأطفال الذين يتعلمون الآداب او الرسم او الموسيقى لدرجة زائدة ، او مع وجهة نظر الاصلاح اكثر مما تكون لتعبير نفسي ، فانهم يصبحون بصورة متفوقة اقل اهتماماً في تذوق جانب جمال الحياة . حتى اهتمام الولد في الاختراعات الميكانيكية يمكن ان يقتل من خلال التعليمات الشديدة جداً . فاذا كنت تعلّم ولداً قواعد الضغط العام في وقت الدرس ، فانه يحاول ان يتجنب الحصول على العلم الذي تحاول ان تشرحه ، في حين انه اذا كان عندك ضاغطة في الساحة الخلفية ومنعته ان يمسها ، فانه سيصرف كل فراغه ليدرسها .

الكثير من هذه المتاعب يمكن تجنبها في جعل الدروس اختيارية . فلم يعد هناك اي عداء فيما بين الاستاذ والتلميذ ، وتقريباً في اغلب اجزاء القضايا يعتبر الطلاب العلم المقدم من قِبل الاستاذ يستحق الحصول عليه . فان بداهتهم ليست مخربة ، لأنها حسب اختيارهم الخاص ، يتعلمون ويحملون الكراهية لتبقى مغروسة في ضمائرهم خلال الباقي من حياتهم . ان الجدال في سبيل الخطابة ، والتحرر من الآداب والحرية فيما يخص معرفة الجنس تكون اقوى . ولكنني سوف أبحث هذه الأمور منفصلة في مجال لاحق .

من اجل جميع هذه الاسباب ، يتظاهر الاساتذة المستجدون ، وأظن لنهم يتظاهرون بحق ، باتجاه المبدع وحرية المبدع في المدرسة . ولا افكر ،

مهما كان ، ان الحرية في المدرسة يمكن اقامتها على قاعدة مطلقة اذ انه لها حدودها وأهميتها لتدرك ماذا تكون .

وكأحد الأمثلة الواضحة ، بإمكاننا ان نأخذ النظافة . انني أحبذ ان اقول لنباشر في ذلك ، لأن اغلب الاطفال الذين يكون اباؤهم في وضع مادي جيد ، يبقون نظيفين لدرجة بالغة جداً . ان الآباء يوضحون سلوكهم تحت مبررات ان النظافة صحية ، ولكن الشعور لجعلها بصورة متزايدة تكون احدى الأبهات . فاذا رأيت طفلين احدهما نظيف والآخر قذر فانك تميل للافتراض ان والدي الولد النظيف عندهما دخل اكثر من والدي الولد القذر . وتباعاً يجرب الآباء ليحفظوا اطفالهم نظيفين جداً . ان هـذا الطغيان غير سار ، والذي يتدخل في الاطفال يعمل اشياء كثيرة كان يجب ان تعمل احسن .

وأما من وجهة نظر الصحة فانه من المستحسن ان الاطفال ينظفون مرتين في اليوم ، حينما يستيقظون في الصباح ، وعندما يذهبون الى النوم في المساء . وفيما بين هاتين اللحظتين المؤلمتين كانوا يزحفون على الارض ليكتشفوا العالم ، خاصة اقسامه القذرة . يمزقون ملابسهم ويمرغون الايدي الملطخة بالوحل على وجوههم . وتجريد الاطفال من هذه المسرات يكون في تقليل بداهتهم وميلهم باتجاه الاستكشاف وحصولهم على عوائد تقوية العضلات المفيدة . ولكن ، مع العلم ان الوسخ هكذا يكون شيئاً مستغرباً ، والنظافة ايضاً لها مكانتها في الصباح والمساء كما ذكرنا سابقاً ، وحتى هذا المكان المحدود ، سوف لا تؤمن حياة الطفل إلا بواسطة مقدار جيد من العناية . فاذا كنا لا نلبس اي ثياب ونعيش في طقس حار ،

فعلينا أن نحصل على كافة النظافة التي تكون ضرورية بواسطة الغطس في الماء لنبقى باردين .

ومما لا شك فيه ان انسان جاوه المنتصب كان يدار بهذا الاسلوب ، ولكن من يرتدي الملابس ويعيش في طقوس معتدلة وليس عنـده مثل هذا الشعور المتزايد للنظافة كما تتطلب الصحة . فاذن ، علينا ان نتعلم لنغتسل ، ونفس الشيء ينطبق على تنظيف الاسنان . اذا كان « الرجوع للطبيعة » الدينية يقارن مع الصحة ، فيجب ان تكون الحياة تشوبها الخشونة وعليها ان تشمل تجنب الملابس والطبخ . واذا كنا لسنا على استعداد للسير بهـذا المدى ، فيجب ان نعلـّم اطفالنا عادات معينة ، سوف لا يحصلون عليها بأنفسهم . ففي أمر النظافة والتعقيم اذن ، تشمل التربية العادية درجة بالغة من تحديد الحرية حيث ان بعض الحدود تكون ضرورية لصالح الصحة .

هنالك فضيلة أخرى نوعاً ما متواضعة ، وليس من المحتمـل أن تظهر على التربية الحرة كلياً وهي الاتقان . ان الاتقان نوعية ، تكون الحاجـة اليه مرتبطة كلياً مع التعاون الاجتماعي . ليس له أي ارتباط في علاقة الروح بالله أو بالتكهن الروحي ، أو في أي من الشؤون التي يهتم بهـا المترفعون والعلماء الروحيون . فإن الشخص يذهل عندمـا يعرف أن القديس يسكر ، ولكن الشخص لا يذهل حين يجد انه تأخر عن موعد . في حين أنه في الأشغال العادية للحياة يكون الاتقان ضرورياً جداً .

إنه لن يجدي لسائق المحرك ان ساعي البريد ينتظر لغاية ما أن الروح تحركه ليقود محركه أو ليجمع الرسائل . إن جميع المنظمات الاقتصادية

من أي نوع كانت سوف تصبح غير فعالة اذا كان من يقومون بأمرها غالباً متأخرين . ولكن عادات الاتقان من الصعب تعليمها في محيط حر . فإنها لا يمكن ان تكون موجودة في انسان يسمح لطباعه ان تطغى عليه . ولهذا السبب لربما يكونون غير مقترنين مع أعلى أطوار الجهد .

كان نيوتن ، كما نعلم غير محافظ على اوقات وجبات طعامه حيث ان كلبه كان يأكلها بدون ان يكتشف نيوتن ذلك . إن على الجهود في معظم الاتجاهات تتطلب طاقة لاستيعابها في طباع . ولكن اولئك الذين عملهم أقل مهارة من الملوك الى أسفل ، يسببون ضرراً اكثر اذا كانوا عادة غير محافظين على الأوقات . فاذاً تظهر صعبة التجنب ، اذ الشباب سيكونون عرضة الى ضرورة عمل أشياء معينة في اوقات خاصة ، اذا كانوا سيعملون ملائمين لأخذ اي جزء عادي في الحياة الحديثة . اولئك الذين يظهرون مهارة تفوق العادة ، كالشعراء او المؤلفين او الرياضيين يمكن ان يستثنوا . ولكن ٩٩ ٪ من الجنس البشري يحتاج الى نظام في المحافظة على الوقت ، والذي هو غير ممكن تعلماً اذا سمح لهم ان ينموا بحرية كما تملي عليهم ميولهم الطبيعية . فالنبيل المتوحش الشخصي يحسب انه ذهب للصيد عندما كان جائعاً ، وليس الساعة ٨،٥٣ صباحاً مثل نسله في المنطقة . ان تربية النبيل المتوحش اذاً لا تقدم جميع ذلك الذي يتطلبه المقيم في المنطقة .

وهناك أمر نوعاً ما اكثر جدية ، وتنطبق عليه نفس الاعتبارات وهو الشرف . انا لا اعني هذا الشرط في اي شعور خيالي ، بل اعني فقط مجرد الاحترام لملكية الآخرين . هذه ليست شيمة طبيعية للمخلوقات

البشرية . الانسان غير النظامي كان يغتصب ملكية الغير عندمـا يعتبر انه أمين ليعمل هكذا . ولعل الانسان النظامي يفعل هذا ، ولكن ليس بصورة مستمرة ، بل النظام علّمه ان السرقة تكون غالباً غير امينة عندما تظهر في اول نظرة هكذا . واني أفكر ان هنالك في بعض العقول البشرية الحديثة اضطراب معين في الافكار فيما يخص هذا الموضوع . وقد اكتشف ان هناك شيئاً ما مثل غريزة السرقة ، تحتوي على سرقة اشياء غالباً لا يريدها اللص في الواقع ، وفي الظروف التي يكون بها متأكداً تماماً انه سيقبض عليـه . لقد كانت قاعدة في بعض المصادر العقلية ان السارق بدون ادراك لنفسه يسرق الحب او يمانع ان يكون عنـــده جمال جنسي .

إن غريزة السرقة لا يمكن معالجتهـا بالعقاب ، ولكن فقط بواسطة الفهم العقلي . والسرقات العادية مهما كان الأمر ليست بأي وسيلة غـــير معقولة ، واذا كانت معقولة تماماً لا يمكن منعها بكونها معاكسة للاهتمام النفسي بواسطة العقوبات الاجتماعية . ففي مجتمع الاطفال ، والذين هم اكبر منهم يتركون أحراراً ، واللص ما لم يكن الاكبر في المجموعة فانـــه سوف يعاقب بشدة من قبل الآخرين . الكبار يمكن ان يغسلوا أيديهم من العقاب ويقولوا انــه في نظامهم ليس هنالك اي قانون عقوبات ، ولكنهم في هذا هم مجرمون في خداع انفسهم . والفرص تكون في ان قانون العقوبات وجد باستمرار من قبل فئة من الاطفال ، اكثر صرامة وغير معتمد عليها من قانون يوضع من قبل الراشدين . فمن اجل اللص نفسه اذن ، تكون على الاجمـال حكمة في ان الراشدين يجب ان يتولوا استدراك قوانين السرقة ويتصرفوا بها في أسلوب يمنع الاطفال من التحطيم

بالعنف على حسابهم الخاص .

ان احتراماً كاملاً لملكية الآخرين تكون بصعوبة وليس إلا بواسطة خلق وضع إلزامي ، وتحت نفوذ الإحراج تكون فرصة الاكتشاف دائماً ، تظهر اقل مما تكون ، والشخص الذي تكون السرقة بالنسبه لـه ممكنة فعلياً ، من الصعوبة ان يستمر عبر الحياة بدون الاذعان للالزام بدرجة كافية ، وغالباً ما يقبض عليه في النهاية .

وهناك احترام آخر ، وهو برأيي ، الكثير من معتنقي الحرية يضيعون به . وذلك لأنهم فشلوا في الاعتراف لدرجة كافية بأهمية الروتين في حياة الشباب . ولا أعني ان الروتين يجب ان يكون صارماً ومطلقاً . بل ان تكون هناك ايام تختلف مثل عيد الميلاد والأعياد الأخرى . ولكن حتى هذه الاختلافات يجب ان تكون على وجه الاجمـال متوقعة من قبل الطفل . ان حياة الشكوك تكون دائمـاً منهكة في جميع الاوقـات ، خاصة عند الشباب . والطفل يتوصل الى شعور الأمان من معرفته اكثر او اقل مما يحدث يوماً بيوم . فإنه يرغب لعالمه ان يكون أماناً وعرضة لحكم القانون .

واعتقادنا في وضع الطبيعة هو بصورة كبيرة التخطيط عـلى الكون لرغبة الطفل من اجل روتين حديقة الأطفال . والمغامرات والشجاعة هي صفات مرغوبة جداً ، ولكنها تنمو بسهولة فائقة ضد قاعدة أمن ثابتة .

كما ان هناك نقطة ابعد في صالح عنصر كبير للروتين ، وهو ان الاطفال يجدون انفسهم متعبين ومنهكين حين يكون عليهم اختيـار مهنتهم الخاصة في جميع الاوقات المستغربة . وأنهم يفضلون في كثير من

الاوقات ان لا تكون البديهـــة لهم ، وأن اختيارهم يجب أن يحصر ضمن اطـــار العمل المفروض من قبل الراشدين من الاصدقاء . الاطفال كالنامين يتمتعون بلذة السيطرة على صعوبة ما ؛ ولكن هذا يتطلب استمراراً للجهد ، وتوجد قلة قليلة قادرة عليه بدون تشجيع خارجي . ان الاهلية للاتجاه الشخصي المستمر هي من الاشياء القيمة جـــداً التي بإمكان المخلوق ان يحوز عليها . فانهـــا عملياً غير معروفة في الاطفال الاحداث ، ولا تنمى سواء بواسطة نظام صارم او حرية كاملة . ان النظام الصارم مثل نظام الجنود في وقت الحرب ، يجعل الانسان غير قادر على العمل بدون اوامر خارجية . ومن الجهة الثانية ، الحرية الكاملة طيلة عهد الطفولة ، لا تعلمه ليقاوم دوافع الغريزة الوقتية . فانه لا يتوصل الى اهلية الاجماع على امر واحد ، في حين انه مهتم في شيء آخر ، او لمقـــاومة الملذات ، وسوف يسبب تعباً ، يتدخل في العمل التالي . ان تقوية متطلبات الارادة اذ تكون شيئاً ما مزيجاً دقيقاً من الحرية والنظام ، وهي مدمرة بواسطة زيادة اي من كل منهما .

فما هو هام كفرض الحدود على مقدار النظام المرغوب ، هو ان جميع التدريب يجب ان يحوز على التعاون مع ارادة الطفل ، مع التحفظ امام الميول العـابرة . ان كل طفل يكون محاطاً من قِبل اصدقاء راشدين يكون مدركاً في النهاية ، لوفرة الارشادات الحسنة من قِبل اولئك الذين يثق بهم ليكونوا حقيقـــة مهتمين بمصالحه ، وليس فقط لمجرد راحتهم ونفوذهم

الرياضيون يعرضون انفسهم للنظـــام كأمر عادي ، والشباب الذين يرغبون بالحصول على انجـازات الذكاء هي رغبة عظيمة بمعدل رغبـــة

الرياضيين من اجل النجاح في حقلهم . وسيكونون على استعداد تماماً ليعرضوا انفسهم للنظام الضروري ، ولكن في محيط حيث يفكر بجميع النظام انه شر . انه لا يظهر للشباب ان الاستسلام الاختياري من هذا النوع يكون ضرورياً لأجل جميع انواع النجاح . ان النجاح الصعب كفكرة يجب ان يكون حاضراً لأفكار الشباب اذا كانوا على غير استعداد ليصبحوا عصاة وعديمي الجدوى . ولكن هناك قلة ستظهر لهم في محيط حيث تكون الحرية مطلقة .

ان استعمال السلطة ، كمقابل للاقناع ، بإمكانها ان تخفض تقريباً الى لا شيء ، حيث ان النوع المستقيم من البالغين لا يكون مسؤولاً عن عدد كبير من الاطفال . خذ على سبيل المثال مثل هذا الامر في المعاملة الحسنة . اني لا أفكر ان حكم القاعدة او العقاب بإمكانه ان يفعل شيئاً يجلب اوضاعاً حسنة في ان يمنع اعمال القساوة . ان الوضع الحسن يتطلب من الوجهة الاولى سعادة غريزية . ومن الجهة الاخرى ، مثال السلوك الحسن من جانب الراشدين . ومجرد تعليم اللطف كقاعدة سلوكية هو تماماً عديم الجدوى برأيي .

انه من الاهمية بمكان حين يكون النظام سائداً ، ان لا يشمل اكثر من اقل قسط ممكن من الكبح العاطفي للطفل الذي يشعر بنفسه انه مغلوب على امره في اي امر هام وانه كفؤ ليطور مختلف الصفات غير المرغوبة ، والتي بطبيعتها سوف تعتمد على قوة سلوكه . فاذا كان قوياً فانه سيصبح عاصياً غاضباً . وفي حين كونه ضعيفاً سيصبح مدعياً ثرثاراً . فالنظام اذاً ، في حين انه لا يمكن فقدانه كلياً ، يجب ان يخفض لدرجة يكون متفقاً معها مع تدريب الناس الطيبين الاكفاء .

ان مسألة الارشادات هي الجزء الرئيسي لجميع المشكلة . لقد اقتضت الخبرة نوعاً ما لدرجة استغرابي انه ممكن اعطاء ارشادات كافية، يكون من حصيلتها تربية المخلوقات البشرية ، بدون فرض اي التزامات تكون حاضرة في وقت الدرس . والعمل هـــذا يتطلب توحيد الظروف ، التي ليست حالياً ممكنة على نطاق واسع . انها تطلب ضمن الراشدين واقعية واهتماماً فعالاً في ملاحقة الذكاء . وكذلك تتطلب صفوفاً صغيرة، وعطفاً وحذاقة ومهارة في الاستاذ . وتتطلب محيطاً تكون بـه ممكنة لصرف الطفل خارج الصف وتخبره ان يذهب ليلعب ، واذا رغب ان يكون في الصف بمفرده بقصد إثارة اضطراب فانها ستأخذ وقتاً طويلاً قبــل ان يكون بالامكان ادراك هذه الاحوال في المدارس العادية . وعندها والى الوقت الحاضر ، من المحتمل ان يكون الاصغـــاء الاجباري في الصف ضرورياً في الأغلبية العظمى من الحالات .

هناك بعض الذين يجادلون ، انه اذا ترك الطفل سوف يعلم نفسه ليقرأ ويكتب وسواها من رغبة حيث لا تكون اقل من جيرانه . ولذلـك يسبب فقدان الارغـام في الغالب تأخير سنة او سنتين في الحصول على العلم . وأظن ان هذا الوضع بدون ادراك اتكالي . ففي عام يكون كل طفل فيه يتعلم ليقرأ ويكتب ، فانــه من المحتمل ان اي طفل موهوب سوف يرغب في التهرب من فكرة الفشل التي تكون صادرة عن الجهل . ولكن في عالم يتهرب به الاطفال من الارغام ، سوف لا يكون هناك مناسبة لفكرة الفشل هذه . وكل جيل سيكون نوعاً ما اكثر جهلاً من أسلافه . ان القليل من الاطفـــال عندهم ميول طبيعية ليتعلموا جدول الضرب ، في حين ان جيرانهم ملزمون ليتعلموه . ومن المحتمل جـداً ان

يشعروا انه يتوجب عليهم ان يتعلموه ايضاً ، ولكن في مجتمع لا يكون أي طفل قد أرغم ليتعلمه ، من الممكن بعد وقت ليس بطويل ، ان تعرف قلة فقط من المتعلمين المتعبين ماذا تكون التسعة ست مرات .

إن الحصول على معرفة متينة يكون ساراً لجميع الاطفال : فاذا عاشوا في مزرعة فانهم سيراقبون اعمال المزارعين ويتمكنون من أن يعرفوا كل شيء عنهم . ولكن المعرفة المجردة محبوبة من قبل قلة نادرة . ومع ذلك هي معرفة مجردة يمكنها أن تجعل مجتمعاً متحضراً ممكناً . ان الاحتفاظ بالمجتمع المتحضر يتطلب اذا بعض الاساليب لجعل الاطفال يسلكون سلوكاً غير طبيعي بالنسبة لهم . ومن المحتمل أن يكون ممكناً استبدال الإقناع بالارغام ، ولكن ليس ممكناً ترك الأمر لعمليات الطبيعة غير المساعدة . ان فكرة التربية هي مجرد تقديم الفرص للنمو الطبيعي . ولا اظن انها احدى العوامل التي يمكن التمسك بها من قبل شخص يدرك تعقيدات المجتمعات الحديثة . انها طبعاً ممكنة القول ان هذه التعقيدات مأسوف عليها وانه سيكون مستحسناً العودة الى اسلوب اسهل للحياة . ولكن لسوء الحظ ، التقدم في مثل هذه العودة سوف يشمل الموت من المجاعة لنسبة كبيرة من السكان . وهذا النقيض هو مزعج لدرجة حيث اننا عملياً مدينون بجميع هـذا الوضع المعقد للعالم الصناعي الحديث . وكوننا هكذا مدينين فاننا ملزمون ايضاً لملاءمة اطفالنا ليساهموا في تنفيذه . ان النظرية السلبية للتربية عندها العديد من العناصر الهامة للحقيقة . وانها منتشرة على نطاق شاسع ، طالما ان الشعور له شأن لا يمكن قبوله في كليتها فيما يخص الذكاء والتدريب التكنيكي . حيث ان هذه لها علاقة وضع اكثر واقعية مطلوبة .

٣

التربية والوراثة

إن خلق النبات المتفتح او الحيوان ينتج من تفاعل المحيط والنبات او الحيوان منذ لحظة الإخصاب وفيما بعدها . لقد جربت ان اقدم هذه الحجة بدون تلوين وجدال بقدر الامكان ، لأن اي شيء اكثر تحديداً ، يكون امر نقاش ان دور الوراثة والمحيط في تشكيل سلوك الانسان هو بالغ القدر من قبل السلطات المختلفة . هناك فيما بين رجال العلم ميل طبيعي للوراثة يركز عليه من قبل علماء التطور ، في حين ان المحيط يركز عليه من قبل علماء السلالة . ومهما يكن ، هناك خط آخر للشق في هذا السؤال ليس علمياً ولكنه سياسي . ان المحافظين والأمبرياليين يضعون ارتكازهم على الوراثة ، ذلك لأنهم ينتمون الى العنصر الأبيض ، ولكنهم نوعاً ما غير متعلمين . وان المتطرفين يركزون اهتمامهم على التربية لأنها عملياً ديمقراطية ، ولأنها تقدم اسباباً لتجاهل فوارق الكون . ان هذا الشق السياسي على الاجمال ، يسيطر على عالم التناسليات والعالم النفساني . ومع ان هوغبن Hogben عالم سلالات ، يجد القليل ليقول في صالح علم سلالة الانسان . في حين ان علماء النفس الحكوميين امثال جودارد Goddard

وتيرمان Terman اهتموا في التركيز على الوراثة . وأكد الأميركيون من نفس المدرسة دائماً بصمت تفوق النوردكس Nordics ، في حين ان اشد المحافظين فيا بينهم كانوا مرغمين ان يعترفوا ان سكان الجبال في شمال كارولينا Carolina وكينتكي Kentucky والذين هم من اصل انكليزي واسكتلندي خالص ، على اقل تعديل ، عندهم بالنسبة اقل نصيب من الذكاء مما وجد فيا بين المهاجرين اليهود .

ان هناك فاصلاً كبيراً من الجدال ، فدعونا قبل كل شيء نقيم بعض نقاط حدود لا يشك فيها . ان أشد المتحمسين من المعتقدين في التعليم لا ينكرون ان اطفال المخلوقات البشرية هم بشر وأكثر قابلية للعلم من الحيوانات ، انهم لا يتساءلون عن مثل هذه الحقائق الواضحة ، وكيف ان اطفال البيض هم بيض فيا اطفال الناس من اللون الأسود هم من لون اسود . وبالعكس ، ان المعتقدين بمذهب الوراثة لا ينكرون ان طفلاً موعوداً يمكن ان يتلف من قبل التهاب الدماغ السباتي او انه أمر سيء من أجل ذكاء الطفل ان تعطيه مخدراً منذ الطفولة ، كما ان العديد من الأمهات الجاهلات يفعلن هكذا . مثل هذه النقاط من التوافق لا تأخذنا ، مهما كانت ، بعيداً جداً .

عندما يبحث الأمر علمياً فان الصعوبة تنبع من حقيقة ان الآباء الذين ينقلون عناصر الوراثة هم ايضاً جزء هام جداً من المحيط . لهذا السبب يجب ان يقدم للأطفال في مأوى الايتام مواد جيدة . ولكن لسوء الحظ ، ان المعلومات المتوفرة فيا يخص اباءهم من شأنها ان تكون غير مكتملة لدرجة ان دراسة التوأمين المتشابهين تكون عادة لأن بينهما

تشابه قريب في محيطهم . يؤمل ان أحد مليونيرية العلماء سيخطط حالاً لفصل التوأمين المتشابهين في الولادة ، وينشئهم في ظروف متباعدة مختلفة . اني لا اعتقد اذا وضعت ملكة توأمين متشابهين ونشأ احدهما في القصر والآخر في مكان قذر أن التشابه العقلي فيما بينهما سيكون متقارباً في سن العشرين ، ولكن مع فقدان الخبرة عليّ ان اعترف بأن رأيي هو نادر ما يكون علمياً . لقد كان يعتقد سابقاً انه كان هناك صفات سلوك للأمراء تعتمد على الدم الملكي .

وقص هيرودتس Herodotus ان سيروس بعد ان تربى كمزارع منذ الولادة لغاية سن الثانية عشرة ، تعرّف عليه اجداده ، وذلك نظراً لسلوكه الملكي . وأنني أشك ، مهما يكن الأمر ، فيما اذا كان حتى المعتقدون لدرجة بالغة في سمو النوردك Nordic سوف يعتبرون هذه القصة حقيقة .

ان قوة التعليم كان مبالغاً بها تماماً بمعدل المبالغة في قوة الوراثة . وعلى ما يظهر ان الدكتور جون ب. وطسون يعتقد ان اي طفل بواسطة تربية مناسبة بإمكانه ان يتحول الى موزارت او نيوتن . ولكن لسوء الحظ ، لم يعلمنا بعد اي نوع من التعليم يجب ان يكون هذا . ففي اعتقاده ان مقدرة التربية ليست بأي وسيلة مبدعة . وعلى سبيل المثال فان كودوين Godwin مؤلف العدل السياسي ووالد زوجة شيلي ، نجد اراءه في هذا الموضوع (*) غير مؤكدة : « انها ليست غير محتملة

(*) راجع الجريمة ازاء القضاء في الانكليزية ترجمة السيدة ج. ب. س. هالدن .

اذ وجد ان طاقة التجديف لرجل حكيم تكون اعظم من طاقة رجل أبله ، وعلى ان هذا التضخيم يجب ان يكون ناتجاً بواسطة العمل المستمر لطاقات الذكاء ، خاصة اذا استجمعنا كيف ان المواد سهلة الانحناء ، فان تجديف الأحـــداث يكون اجماعياً ، وكم يكون مبكراً من العمر على الاشخاص الاذكياء الحاذقين حيث يتوصلون لبعض اجزاء من صفـــات سلوكهم للمستقبل » .

إن الفوارق الضرورية التي يجب ان توجـد فيا بين شخص وآخر لتكون من الدراية التي يشكلونها والظروف التي تسيطر عليهم . وانهـا من غير الممكن الاعتقاد أن نفس التدريب السلوكي من شأنه ان لا يعمل تقريباً نفس الانسان .

دعنا نفترض مخلوقـاً سمع جميع الجدال ، وكان عرضة لجميع المثيرات التي وجهت لأي سلوك محتقر بـه ، فان نفس الجدال مع جميع قوته ، وجميع ضعفه غير مرفق بأقـل زيادة او اختلاف ، اعيد وضعه تماماً في نفس المقاطع من شهر الى شهر ، ومن سنة الى سنة ، فأكيد يكون قـد انتـــج نفس الآراء ، ونفس المثيرات بدون اي تحفظ سواء مباشرة او عرضاً ويكون قد ركز نفس الميول . ومهما كان العلم ومـا يتبعه مختاراً بواسطة هـذا الخلق المعروف ، يجب أن يحب من قبل الشخص الذي يحترمه والذي نفترض فيه هذا التعريف من الانطباعات . فحصراً ، انـه الانطباع الذي يحمل الانسان وبالمقارنة مع سلطان الانطباع تكون فوارق هيكل الحيوان غير واضحة وهامة وضعيفة . « استبدل » الاحوال الالزامية « بالآراء » ، و « الاثارة » « بالجدال » ، يكون عندك المخرج الذي (عدا ما يخص الشكل) يمكن انه كتب من قبل الدكتور وطسون .

وضد هـذا الرأي عن مقدرة التربية ، هنالـك الكثير من النقاش . فرأي كودوين هو ان عادة التفكير توسع الجمجمة ، وانها احدى الآراء التي لن يبحثها اي حديث ، إلا في الاحوال البالغة . ان الحماقـة تكون غالباً مرتبطة بتركيب خطأ منذ الولادة للجمجمة ، واما التخيل ان حق الدكتور وطسون سوف لا يعتبر الحماقة كأنها عائدة لتربية سيئة . فان قضية درجة النقص العقلي هي فقط درجة واحدة اقـل وضوحاً . وفي الدرجة البالغة الاخرى ، خذ مثالاً الاولاد الاذكياء (*) : فانه من غـير الممكن أن تتصور اي شيء في المحيطات التي بامكانها أن تسبب واحداً من قائمة اخوة ليكون قادراً أن يأخذ جذوراً متينة لاعداد ضخمة في رأسه ، بدون أي تدريب زائد في الحساب عمـا ينطبق على الجميع من معدل الولد . فاذا كان مما يسلم بـــه ان الولد الأبله ، والولد الذكي هما مختلفان في الولادة عن الولد العادي ، فانها تظهر غير محتملة لدرجة انه ليس هناك آخرون مختلفون لحد ما في اختلاف الولادة ، في حين انهـا خطرة لتثق بانطباعات غير علمية . اعتقد انـــه يجب أن يسمح بنسبة بعض الأمر الى خبرة المدرسين العملية ، ولا واحد منهم لدرجة مـــا تمكنت من اكتشافه ، يوجد عنده اي شك في ان هناك فوارق ، عائدة الى الوراثة بين تلاميذهم . ولكن باعتبار ان جزءاً من فوارق الذكاء فيما بين شخص راشد وآخر تكون بالولادة برأيي هو اكيد تقريباً .

هناك عنـــد كل من كودوين ودكتور جون. ب. وطسون نقاش ، يدعوان به ليبرهنا عن نظرياتها . والنقاش هو ان المخلوقات البشرية ليس

* لاجـل روايتهم باختصار ، انظر هولنغوردث ، « الاطفال الموهوبون » ، الصفحات ٢١٠ — ٢١٦ .

عندها غرائز طبيعية ، وان عقل الطفل ليس له سلوك مستقل من الخبرة .
ويمكن ان يجيب واحد على الدكتور وطسون من خلال نقاش مع السلطة .
ان بافلوف يؤكد على كلابه لتعلن عن الاربعة انواع من الصفات المحصاة
من قبل هيبوكرتس Hippocrates ، وتعاني من انواع مختلفة من الاضطراب
العصبي طبقاً للنوع الذي تنتمي اليه . ولعل الدكتور وطسون يجيب ان
هذه الفوارق في الطباع يمكن ان تسبب بواسطة الظروف التي لم يكن
بافلوف يدرّسها ، وان جميع الكلاب تخلق متساوية . فاذن يتوجب علينا
مقابلة هذا النقاش النظري .

دعنا نسلم بـه من اجل النقاش في ان العوامل المطلقة (والتي حلت
مكان الغرائز) هي نفس الشيء في جميع الاطفال المولودين حديثاً . هل
يتبع انه لا يمكن ان يكون هناك اي فوارق عقلية في الولادة ؟ مؤكداً
لا . خذ تعليم الانعكاسات المشروطة بعضهم يتعلم أكثر سرعة من الآخرين ،
وبعضهم يتعلم اكثر فعاليـة ليفرق فيما بين المتشابهات التي تتفرق قليلاً
فقط . حتى اذا سلمنـا ان جميع التربيـــة تحتوي في تشكيل الانعكاس
المشروط ، والذي هو وضع مختلف عليه ، فانها لا تزال لا تتبع ان
جميع الأطفـال هم بالتساوي قابلون للعلم . انّ الوضع بالنسبة الى اقصى
النقاش عن التربية هو انها ضد الوراثة ، ولا يكون عندها اساس احسن
في نظري عما في المراقبة العملية .

ولكن مع ذلك ، فان اهميـة الفوارق في الولادة فيما بين المخلوقات
البشرية لا يمكن انكاره . فان الأدلة العملية المرسومة من قبل علمـــاء
التناسليات في قسمها الاكبر غير علمية . ولا احد يعرف ما هي العوامل
الدافعة للصفات الاجتماعية المرغوبة . ولا واحـد من مثل هذه العوامل

سائد تماماً او منتشر . حتى انه لا يوجد هناك اي اتفاق حول ما هو اجتماعي مرغوب به .

من نظرة محدودة جداً ، انا ميال للتفكير ان هنـاك بعض التقارب فيما بين الامتياز في فن التصوير وعدم الكفاءة في الحساب ، وأحسب ان هذا هو الحال . فماذا يتوجب على علماء التناسليات ان يفعلوا بشأنـه ؟ هل يتوجب عليهم تقديم سباق للرسامين ، والذين ليس بإمكانهم ان يعملوا حسابات ، او سباقـاً للمحاسبين الذين لا يهمهم الفن ؟ ان فحوص الذكاء المعترف بها ليست بدون قيمة في مناطقها الخاصة ، ولكن لا يعمل شيء لفحص صفات السلوك او الفن . ولا تقصّي الحقائق ، ولا الأسس العلمية، التي هي ضمانة كافية لأي مقياس من علم التناسليات العملي ، عدا انـه ممكن تعقيم ضعفاء العقول . وأن التقديرات التالية غير مضمونة .

ان الزنوج السود هم في الولادة أحط من الناس البيض .

وإن الاشخاص المولودين في آسيا هم أحط من اولئـك المولودين في أوروبا واميركا .

وإن الأوروبيين المولودين على خط عرض ٤٥ هم في الولادة أسمى من اولئك المولودين جنوب ذاك الخط .

كما ان الاشخاص الذين دخـل آبائهم ألف جنيه في السنة هم من معدن احسن من أولئك الذين عند آبائهم دخل اقل .

جميع هذه الافتراضات هي مصدقة من قبل أغلب علماء التناسليات، والثلاثة الأوائل قد أثروا على قوانين هجرة الولايات المتحدة .

فاذا كان موضوع وراثة الكفاءة يعالج علمياً ، فانه سيكون هناك حاجة الى كمية وافرة من العمل الأولي . كما سيكون هناك قبل كل شيء، الحاجة لاكتشاف الصفات العقلية التي يمكن تقديرها والتي لا تعتمد على التعليم . ان فحوص الذكاء المقصود منها لتقوم بهذا تقدم في احسن وجه ضمن محيط اجتماعي متناسب . توجد اسئلة عن النقود ، على سبيل المثال ، سيجاب عليها باستعداد اكثر من قبل اطفال المدن مما هو من قبل اطفال الارياف . هناك اسئلة تتطلب ترنيماً لكلمات معينة تكون اسهل لأطفال تثقفوا في الشعر مما لسواهم . فحالما تطبق فحوص الذكاء في المقارنة بين الاطفال مع اختلاف شاسع في منطلقهم ، فانهم يصبحون ضائعين تماماً ، في حين بمثل هذه المطابقات نرى الكثير من المعتقدين بالوراثة ضد البيئة يستحصلون على نتائجهم .

وطالما ان الاطفال يعيشون مع آبائهم ، فانه من غير الممكن ان تفرق الوراثة والعوامل التربوية في اي تشابه عقلي يمكن ان يكون سائداً . فاذا كان جميع السكان عرضة لفحص الذكاء ، فان المواد القيمة ستكون مع الوقت من مأوى الايتام . واذا وجد انه في اي مأوى كان هناك تقارب فيما بين ذكاء الاطفال وذكاء آبائهم فان ذلك سيكون دليلا جيداً للوراثة . ولكن حالياً مثل هذا الدليل لا يزال بحاجة لبحث .

وفي البحث عن قوانين الوراثة العقلية ، فان الصفة المختارة يجب ان تكون بسيطة ، محدودة ويمكن تقديرها . فمثلا ، يمكن ان يلفظ شخص جملة ، ويفضل ان تكون غير معقولة ويطلب ان يعيدها الطفل . فان عدد الكلمات في اطول جملة والتي بامكان الطفل ان يعيدها بالضبط ستقيس نوعية العقل ، في حين انه ليس ضرورياً ان تكون جملة مرغوبة.

وكما يعرف مكالوي Macaulay ، كل شخص حائز على هـذه النوعية لدرجة بالغة جداً ، ولكن لا يوجد لسوء الحظ ، اي دليل فيما اذا كان والده او والدته حائزين عليها . فاذا كان جميع الطلاب قد فحصوا في هذا الشأن في كل عيد ميـلاد طيلة سنوات دراستهم ، من المحتمل ضمن اربعين سنة التوصل الى مواد ذات قيمة معتبرة فيما يخص الوراثة العقلية. مثل هذه الأساليب الاحصائية مهما كانت سوف لا ترضي أتباع المندلية Mendelian الذين يرغبون في حصر الخلية الخاصة او فئـة الخلايا المختصة في اي مثال للوراثة . النوعية العقلية معقدة لدرجة بحيث يظهر هـذا لوقت طويل ليصبح عملاً بدون أمل . انها ممكنة مهما كان في ان بعض النوعيات العقلية من المحتمل ان تكون اكثر قدرة على الانفراد مما هو الحال بالنسبة لأغلب الآخرين . ان الطاقة الحسابية والموسيقية كلاهمـا يفترض نفسه كمناسب في هذا الشأن . وكلاهمـا نادر احصائياً ، ولكن حيث مـا يكونان سائدين فهما عرضة ليكونا لحد يزيد على المعدل . كلاهما يظهر سارياً في العائلات ، ولكن من غير الممكن ان نعرف لأي مدى هذا عائد للتعليم . وعلى سبيل المثـال ، كان موزارت عنده والد موسيقي ، ولكن والده اقتبس التعليمات الموسيقية وكذلك الكفاءة الموسيقية. ولدرجة ما اعرف ، لم يسبق موسيقار عظيم او محاسب عبقري قد خرج من مأوى الأيتام . وهكذا فان هذا الأسلوب لفحص الوراثة أفشلنا .

ان عمل كالتون Galton وأتباعه في تخطيطهم ليبرهنوا ان الكفاءة موروثة ، وانها بعيدة عن الاقناع العلمي ، هي ممكنة في ان هناك بعض الحقيقة في نظرياتهم . ولكن لغاية ان تكون الأساليب قـد خططت لإقصاء تأثير البيئة الأبوية ، فان جميع الموضوع يجب ان يبقى مفتوحاً للشك .

إن نتيجـة الأمر من الموقف العملي هو بسيط ، انـه متوقع ان يكون هناك فوارق للكفاءة بين الطلاب ، والـتي لا يمكن اكتشافها بالنسبة لتـأثير البيئة . فمها تكن صفـات الولادة المكتشفة ، يجب ان تنمى ، واذا كانت بالحقيقة ملحوظة ، يجب ان يسمح بها من عمر مبكر لتأخذ وقتاً يجب أن يمنح للتربية العامة على أية حال . ولكن لا شيء يجب ان يقـدر سواء من اجل او ضد ذكاء طالب او فئـة من الطـلاب على حساب العنصر او الوضع الاجتماعي او الجهود الشخصية لآبائهم . هناك متسع للتحقق فيما يتعلق بوراثة الكفاءة ، ومن السهل ان تخطط اساليب يمكن بواسطتها دراسة الأمر علمياً . ولكن اذا مثل هذه الأساليب كانت قد اختبرت ، فانه سيكون من الضروري على اقل تعديل قبل جيل ، حيث يصبح بإمكانها ان تثمر . وفي نفس الوقت فان الوضع السليم علميـاً هو ان نعترف بجهلنا فيما يتعلق بتوزيع كفاءة الأهـالي وقوانين وراثتها .



٤

العاطفة والنظام

كان للتربية في جميع الاوقات هدف مضاعف وهو الارشاد والتدريب على السلوك الحسن . ومفهوم السلوك الحسن يختلف في المؤسسات السياسية والتقاليد الاجتماعية للمجتمع . ففي القرون الوسطى ، عندما كان هناك نظام طبقي يرقى من العبد تدريجياً لغاية الآلة ، كانت الفضيلة الرئيسية هي الطاعة . وكان الاطفال يتعلمون ليطيعوا آباءهم وليحترموا من هم أعلى منهم اجتماعياً ، وليشعروا بالرهبة في حضور الكاهن ، والخضوع في حضور سيد الولاية . ولم يكن حراً غير الامبراطور والبابا . وهكذا فان قواعد السلوك لم تقدم اي دليل للرجال الاحرار ، فانهم قضوا وقتهم في محاربة بعضهم البعض ، وحيث ان الرجال الحديثين يختلفون عن رجال القرن الثالث عشر في كل من الهدف والاسلوب . فالديمقراطية حلت مكان التعاون للرضوخ والشعور الاجماعي للاحترام ، والفئة فيما يخص الشعور الاجماعي والتي هي الاكثر فعالية قد اصبحت الأمة ، التي كانت سابقاً تحسب بدون اهتمام بواسطة عالمية الكنيسة . وبنفس الوقت ، اصبحت الدعاية مغرية اكثر مما هي بالقوة ، وقد تعلمت للسير بواسطة تركيز

مزيج مناسب في الشباب المبكر . موسيقى الكنيسة ، أغـاني المدرسة ، وتحيـــة العلم بواسطة تأثيرها على الولد . والاجراءات الناتجة للانسان في لحظات الانفعال القوي وضد هذه التأثيرات ، كانت وثبـة العقل تتمتع بنفوذ قليل .

أن تأثير الافكار السياسية في التربية الباكرة ليست دائماً واضحة ، وغالباً تكون بدون ادراك من جانب المدرس . فحالياً ارغب ان ابحث التربية في السلوك ، باعتبار قليل بقـــدر الامكان للنظام الاجتماعي الذي سأعود اليه في دور لاحق .

عندمـا يُبحث لانتـاج نوع معين من السلوك في طفل او حيوان ، هناك اسلوبان مختلفان يمكن اتباعهما . بإمكاننا من جهة واحدة ، بواسطة وسائل المكافآت والقصاص ، ان ندفع الطفل او الحيوان ليقوم او يحجم عن افعال معينة دقيقة . او بإمكاننا من الجهة الثانية ، ان نبحث لنخلق في الطفل او الحيوان مثل هذا الشعور الذي من شأنه ان يوصل على وجه العموم لأعمال من النوع المرغوب .

وبواسطة توزيـع مناسب للمكافآت والقصاص فانه سيكون ممكنـاً الاشراف على قسم كبير جداً من السلوك الظاهر .

عادة ، الشكل الوحيد للمكافأة او القصاص يكون الامتداح او اللوم . وبهذا الاسلوب بامكان الاولاد الذين هم طبيعياً جبنـــاء الحصول على شجاعة صحيحة . والأطفال الذين هم حساسون للألم بامكانهم ان يتعلموا عدم المبالاة . واذا لم يفرض السلوك الجيد مبكراً ، بالامكان تعلمـه في سن الرشد بوسائل قصاص ليست أسوأ من دفع حـاجب العين . ومـا

يدعى شكلاً جيداً ، يستحصل عليه من قبل اغلب الذين هم عرضة له ، بمجرد الخوف من الفكرة السيئة الصادرة من التوعد بها . اولئك الذين تعلموا في عمر مبكر ان يخشوا غضب فئتهم كأسوأ تعـــاسة ، سوف يموتون في ساحـــة المعركة في حرب . والذين لا يفهمون عنه اي شيء اكثر من ان يعانوا احتقار المجانين . ان المدارس الانكليزية العامة قامت بتنفيذ هذا الاسلوب لدرجـة الكمال ، وعممت الذكاء على نطاق واسع بواسطة جعله مخيفاً امام الجمهور . وهـذا يجعل الولد شجاعـاً . وكقوة اجتماعية ، فان اسلوب السلوكيين للملاءمة يكون اذاً قوياً جـداً وناجحاً جداً . بالامكان جعل الرجال يتصرفون بطرق مختلفة تماماً عن تلك التي كانوا يتصرفون بها خلاف ذلك ، وهي قادرة على انتاج وضع مؤثر من السلوك الواضح . ومهما يكن فان لها حدودها .

لقد كانت بواسطة فرويد في ان هذه الحدود عرفت اولاً في اسلوب علمي ، في حين اقنع رجال علم النفس منـــذ وقت طويل في اسلوب اغرائي . ومن اجل اهدافنا ، فان الاكتشاف الضروري للتحليل النفسي هو كهذا : ان الغريزة منعت من قبل اساليب علماء النفس من ايجـاد تعبير واضح في الفعل ليس من الضروري ان تموت ، ولكنها تساق تحت الأرض وتجد مخرجاً جديداً لم يكن قد منع بواسطة التدريب . وغالباً سيكون المخرج الجديد اكثر ضرراً واستهلاكاً غير مفيد للنشاط . انها اذاً ضرورية لتعطي انتباهاً اكثر للشعور كما تمانع للسلوك الظاهر عمـــا يعمل من قبل اولئك الذين يشرحون الاوضاع كأن ذلك وحده كافياً في تدريب الاخلاق .

هنالك بالاضافة ، بعض العادات غير المرغوبة . والتي بخصوصها يكون

اسلوب المكافأة والقصاص فاشلاً تماماً حتى من وجهة نظرها الخاصة . وواحدة منها تبليل الفراش . فعندما يستمر هذا بعد العمر الذي يتوقف به عادة القصاص يجعلها اكثر عناداً . مع العلم ان هذه الحقيقة كانت معروفة منذ زمن بعيد لعلماء النفس ، فانها لا تزال غير معروفة من قبل اغلب اساتذة المدارس ، والذين يقاصصون الاطفال لسنوات في النهاية ، لوجود هذه العادة عندهم بدون ان يلاحظوا ان القصاص لا ينتج الرجوع عنها . ان سبب هذه العادة في الاولاد الأكبر سناً يكون عادة اضطراباً عميق الجذور نفسياً ، الذي يجب أن يظهر للعيان قبل اعطاء أي علاج .

ان نوع التركيب النفسي ينطبق على أمثلة أقل وضوحاً . ففي حالة الاضطراب العصبي الواضح فان هذه الآن معترف بها على نطاق واسع . فغريزة السرقة على سبيل المثال ليست غير مألوفة في الاطفال وليست مشابهة للسرقة العادية ، ولا يمكن معالجتها بواسطة القصاص . لكن فقط في ايجاد دوافعها وازالة مسببها النفسي . وما هو أقل اعترافاً هو ذاك الذي نعانيه جميعاً لدرجة أعظم او أقل من الاضطراب العصبي ، وله اساس ادراكي . يدعى الانسان بالعاقل عندما يكون عاقلاً بمستوى اقرانه ، ولكن في الرجل العادي ، الكثير من التركيبات التي تقرر افكاره ،وأعماله هي غريبة جداً لدرجة بالغة ، بحيث في عالم حقيقي عاقل سوف يدعون غير عقلاء . انها خطيرة في انتاج سلوك اجتماعي جيد بواسطة وسائل ستترك الشعور غير الاجتماعي بدون أن يمس . فطالما ان هذا هو الشعور ، بينما هي مستمرة ينكر عليها كل مخرج ، فانها ستنمو اقوى فأقوى ، وتقود الى ميول الظلم التي ستصبح في النهاية

لا تقاوم . ففي الرجل ضعيف الارادة ، يمكن أن تنفجر هذه الميول الى اجرام . او في شكل للسلوك الذي تلحق بـه العقوبات الاجتماعية . انها في الرجل قوي الارادة ستأخذ اشكالاً غـير مرغوبة . من الممكن أن يكون طاغية في البيت ، مهملاً في الاعمال ، مشاغباً في السياسة ، مضراً في تصرفاته الاجتماعية . من اجل جميع هذه الصفات ، سوف يعجب به الرجال الآخرون بنفس المطل الاخلاقي ، وسوف يموت محترماً عالمياً بعد أن يكون قد نشر الكراهية والمآسي في المدينة او الأمـة او التاريخ وفقـاً لمقدرته والفرص السانحة له . ان السلوك الصحيح المرتبط بالشعور السيء ليس كافياً اذن لجعل الانسان مساهماً في سعادة الجنس البشري . فاذا كان هذا هو حكمنا بالنسبة للسلوك المرغوب ، فشيء ما اكثر يجب أن يبحث عنه في تربية الاخلاق .

مثل هذه الاعتبارات ، وكما تقترح ايضاً المراقبة العاطفية للاطفال على أن اساليب علماء النفس لتدريب الاخلاق ليست كافية وتحتاج لأن تدعم بواسطة اساليب مختلفة تماماً .

تظهر الخبرة في الاطفال انهـــا ممكنة للعمل حسب الشعور ، وليس فقط على السلوك باتجاه خارجي بواسطة اعطاء الخبرة في الاطفال بيئة يصبح بها الشعور المرغوب مألوفاً ، والشعور غير المرغوب يصبح نادراً . بعض الاطفال (وبعض الراشدين) هم في اوضاع مرحة ، وان الآخرين يكونون حانقين . وبعضهم يكون قانعاً بسهولة بأي سرور يقـدم ، بينما يكون الآخرون غـير قانعين مـا لم يحصلوا على السرور الخاص الذي ركزت قلوبهم عليـه . وبعضهم في حـالة فقدان الدليل يعتبرون مجموع المخلوقات البشرية بثقة صداقـة بينما يعتبر الآخرون اغلب الناس باشتباه

مزعج ، ان الصفة الشعورية السائدة للطفل عامة تبقى مثل شعور الراشد في حين انـه في الحياة الاخيرة ، تعلم الناس ليخفوا خجلهم وكراهيتهم بواسطة التظاهر بأعظم او أقل فعالية . انهـا اذن هامة جداً في أن الاطفال يجب أن يكون عندهم بتفوق هذه الصفات الشعورية ، والتي تكون في الطفولة ، وبعـــدها سوف تجعلهم سعداء ناجحين ومفيدين اكثر من تلك التي تقود الى التعاسة والفشل والحقد . فـلا يوجد هنالك شك انهـا ضمن نفوذ البسيكولوجية لتقرر نوع البيئة التي تنمي الشعور المرغوب ، وبامكان عواطف الاذكياء بدون عـــلم أن تصل غالباً الى النتيجة الصحيحة . فعندما يستعمل هذا الاسلوب بصواب ، فـان تأثيره على الاخلاق يكون اكثر مراقبة ومرضياً تماماً لدرجة بالغة عن التأثير الذي يحصل عليه بواسطة المكافآت والقصاص .

ان البيئة الشعورية المناسبة للطفل هي أمر دقيق ، وطبعـاً تختلف بالنسبة لعمر الطفل طيلة عهد الطفولة . مع العلم انـــه باستمرار بامتداد أخف ، هناك حاجة لشعور الأمن . ولهذا القصد ، فان اللطف والروتين الساريين هما ضروريان . ان العلاقة مع الراشدين يجب ان تكون علاقة لعب وراحـة طبيعية ، ولكن يجب ان تكون للقبل العاطفية وان يكون هنـــاك تعارف قريب مع الاطفال الآخرين . وفوق الجميع ان تكون هناك فرصة للمبادهة في الانشاء والتنقيب ، وفي العلم والاتجاهات الفنية . ان الطفل عنـــده حاجتـان معاكستان : الأمن والحرية ، والاخيرة تنمو تدريجياً على حساب السابقة . ان العواطف التي تمنح من قِبَل الراشدين يجب ان تكون هكذا لتسبب شعور الأمن ، ولكن ليس هكذا كي تحـــدد الحرية او لتبعث شعور تجـاوب عميق في الطفل .

اللعب الذي هو حاجة حيوية لعهد الطفولة يجب ان يساهم فيه ليس فقط من قِبل الاطفال الآخرين ، ولكن ايضاً من قِبل الآباء ، وهو ضروري لأحسن العلاقات فيما بين الآباء والأطفال .

ان الحرية من اصعب العوامل ضمانة تحت الظروف السائدة . اني لست مدافعاً عن الحرية المطلقة لأسباب بحثت في فصل سابق ، ولكنني مدافع عن اوضاع معينة من الحرية والتي سيجدها اغلب الراشدين غير محتملة . يجب ان لا يكون هناك احترام اجباري للبالغين في العمر والذين عليهم ان يسمحوا لأنفسهم ليدعوا بلهاء عندما يشاء الاطفال ان ينادوهم هكذا . ليس بإمكاننا ان نمنع اطفالنا من التفكير بأننا بلهاء بمجرد منعهم من التفكير . ففي الحقيقة انهم اكثر احتمالاً ليفكروا بنا مرضى اذا لم يتجرأوا ان يقولوا هكذا . يجب ان لا يمنع الاطفال من القسم ، ليس لأنه يتوجب عليهم ان يقسموا ، ولكن لأنه مرغوب ان يفكروا في انه لا فرق ان فعلوا اعمالاً طالما ان هذا افتراض حقيقي . عليهم ان يكونوا كلياً احراراً من عبادة الجنس وأن يقاطعوا عندما تظهر محادثتهم لتعنف الراشدين وتكون غير لائقة . فاذا عبروا عن آرائهم في الدين او السياسة او الاخلاق ، من المحتمل ان يقابلوا بجدال شريطة انه جدال حقيقي . لكن ليس اذا كان حقيقة ايمان الراشد بإمكانه ان يقترح اعتبارات لهم ، بل ان يفرض قرارات .

ان اعطاءهم مثل هذه الأحوال ، من الممكن ان ينمو الاطفال بدون خوف وسعداء في الاساس ، بدون ضغينة تتأتى من الحرمان او الطلبات المتزايدة ، التي تكون ناتجة بواسطة جو عواطف البيت الزجاجي . فان ذكاءهم سيكون غير محدود ووجهة نظرهم للشؤون البشرية سيكون لها

اللطف الذي يأتي من الرضا .

ان عالماً من المخلوقات البشرية بهـــذا الجهاز الشعوري سيجعل عملا قصيراً من نظامنا الاجتماعي مع حروبه وظلمه وعدم عدالته الاقتصادية ورعبه من حرية الكلام ، وحرية التحري وقانونه الاجتماعي الجائر . ان تحمل هذه الشرور تعتمد على مــا فيها من الخجل وشعور الحقد العائد لفقدان الحرية . ومهما يكن ، فان الدكتور وطسون الذي خفض وجهات نظر السلوك منذ الولادة ، سمح كردة فعل غير علمية للأطفال ، في الغضب بأي تعقيد للأطراف . ان هذه الحاسة الفعالة هي قاعدة حب الحرية . الرجل الذي لسانـــه معقد بواسطة القوانين او المنع ضد حرية الكلام والذي قلبه معقد من قِبل الرقابة ، وحبه ملجم بواسطة السلوك الـذي يعتبر الجسد شيئاً احسن من العواطف . والذي كانت طفولته سجينـــة قوانين السلوك ، وشبابه منغمساً في استقامة صارمة ، سوف يشعر ضد العـــالم الذي وهبه نفس الغضب الذي يشعر به من قبل طفل ذراعاه ورجلاه مربوطة بدون حركة . ففي غضبه سيعود للدمار ويصبح ثائراً ، عسكرياً او كإنسان ضار حسب مقدرته والفرص السانحة له . ان جعل المخلوقات البشريـة الذين سوف يخلقون عالمــاً افضل ، معضلة في البسيكولوجية : هي مشكلة جعـل المخلوقات البشرية والذين عنـدهم ذكاء حر مرتبط بأوضاع طبيعية سارة . وهذا المشكل ليس أسمى من سلطة العلم ، انها الارادة وليست السلطة المفتقر اليها .

٥

البيت - المدرسة

انه لرأي ان يكون على الاطفال أن يثقفوا كلياً في البيت والذي هو الآن مهمل ، مع العلم انه مشمول في مؤلفات لوك وروسو ، وكان قد اتبع في مجيء الاسكندر وهنيبال وجون ستيوارت مل . انها ممكنة في الواقع فقط فيما يخص الاغنياء ، وعلى هذا الاساس وحده لا تحتاج لأي نقاش ابعد . ولكن الافتراضات التي يجب ان تسود فيما بين البيت والمدرسة والعمر الذي به يجب ان يباشر الاطفال بالذهاب للمدرسة هي أمور قانونية للنقاش .

ان وجهة النظر المختارة من قبل جميع الدول الأوروبية فيما يتعلق بأغلب اطفال اصحاب الدخل المحدود هي انه عليهم ان يذهبوا الى مدرسة نهارية من سن السادسة لغاية سن الثالثة عشرة . ونسبة معينة من الاكفاء من ابناء وبنات الطبقة العاملة يشجعون في المكافآت المدرسية ليتابعوا دراستهم بعد ذاك للعمر . بينما اولاد وبنات الاغنياء يفعلون هكذا كأمر عادي . لا يوجد هناك اي اتفاق فيما يتعلق بالعمر ، اي

لغاية ان يكون مرغوباً بعيداً عن الصعوبات نظراً للمصاريف العامة ليقوم بدراسة جامعية ، وليس هناك اي اتفاق سواء المدارس النهارية او المدارس الداخلية تكون مفضلة في أنفسهم ، تظهر للرأي العام في أن هناك شيئاً مـــا يدعى « البيت الصالح » والذي يكون أحسن من أي مدرسة داخلية . ولكن بعض النسبة غير المحدودة من البيوت ليست صالحة في الفكرة المقصودة . اني أفكر من جانبي ان المسألة صعبة ، اذ هناك جدال قوي في الجوانب المختلفة . المسألة بالواقع مضاعفة : (١) في اي عمر يجب ان تبتدىء المدرسة ؟ (٢) هل يجب ان تكون مدرسة نهارية او داخلية ؟ دعونا نأخذ هذه المسائل بالنظام .

في أي عمر يجب ان تبتدىء المدرسة ؟ الجواب هو أن يعتمد على البيت ، ولكن نوعا مـــا على الطوبغرافي خاصة ، اكثر من سلوكه او أخلاقه العقلية . الطفل الذي يعيش في مزرعة في الريف ، بامكانه بفائدة وسرور ان يقضي وقته بالتجول من مكان لآخر ، مراقباً الحيوانات ملاحظاً قص الأعشاب ، وجمع الغلة ، ودراسة الحقل والحراث . لغاية مـــا يحين الوقت عندما تكون ضرورية ليباشر ارشادات واضحة . ولكن بالنسبة للطفل في المدينة ، حيث يعيش والداه في شقة محصورة ، فان المسألة تكون تماماً خلاف ذلك — بالنسبة له المدرسة مرغوبة كمهرب الى الحرية ، حرية الصوت ، وحرية الرفاق . لقد قابلت باستمرار رجال طب مانعوا في مدارس الحضانة لأنهم افترضوا ان كل مدرسة يجب ان تكون مكان للارشاد في دروس محدودة . ان النوع الصالح من مدارس الحضانة سيكون له الكثير من الارشاد كما في الاشراف والتدخـــل ، حيث على الغالب لا يمكن تجنبها في البيوت الصغيرة .

الأطفال المدنيون الذين آباؤهم ليسوا أغنياء عندهم حاجـــات معينة جسمانياً ونفسياً لا يمكن ارضاؤها في بيوتهم . الاولى من هذه هي النور والهواء . وقد وجدت مرغريت ماكميلان نسبة مئوية كبيرة جـــداً من الاطفال في مدارس الحضانة مصابين بالكساح عند مجيئهم للمرة الاولى ، وكان شفاؤهم دائماً في وجودهم بالهواء الطلق . والحاجة الثانية هي الغذاء المناسب . إن هذا ليس ثميناً ويمكن تقديمه في البيت ، ولكن عملياً يكون هذا غير ممكن نظراً لنقص المعرفة في طبخ الأغذية . الحاجة الثالثة هي الفسحة ليمارك ويلعب . إن اطفال الفقراء جداً يجدون هذا في الطرقات ، ولكن الآخرين ممنوعون ان يعملوا هكذا . وفي أي حال ، فان الشوارع ليست احسن مكان للعب . الحاجة الرابعة هي الصوت ، انه ظلم للطفل ان تمنعه من عمل الصوت ، ولكن في أغلب البيوت عدة اولاد مشاغبين . بامكانهم في الحـــال جعل الحياة لا تطاق المتقدمين في العمر . الحاجة الخامسة هي مرافقة الاطفال الآخرين من نفس العمر تقريبـــاً ، وتباشر هذه الحاجة حوالي نهاية السنة الثانية وتزداد بسرعة . الحاجة السادسة هي الهرب من اهتمام الوالدين . ان هذا عامل اكثر أهمية حيثما يكون الأغنياء معنيين بذلك اكثر مما هو بالنسبة للطبقات الأفقر ، حيث تكون الأمهات مشغولات جداً ، عن الاضرار بأطفالهم كما تفعل أمهات الطبقة المتوسطة بالمراقبة المستمرة مهما يكن ذكياً ولطيفاً . الحاجة السابعة هي البيئة التي تحتوي على الملاهي الملائمة ، ولكنها مضمونة صناعياً بدون أشياء مثـــل الدرج الحجري او الزوايا الحادة او الاشياء الثمينة القابلة للكسر . ومن المحتمل ان يكون الاطفال المجردون من جميع هذه الحاجات لغاية سن السادسة مرضى غير شجعان وعصابيين .

إن مشكلة الاعتناء بالاطفال الأحداث في المدن الكبيرة هي واحدة لم تنتبه لها الدولة الحديثة ، باستثناء بلدية فيينا انها لدرجة بالغة مسألة هندسية . ففي الاحياء الفقيرة من المدن ، يجب ان تبنى الشقات على ثلاثة جوانب ، ويترك الجنوب مفتوحاً للشمس . الفسحة الوسطى يجب ان تخصص للاطفال الذين عليهم ان يلعبوا ويأكلوا هناك تحت الاشراف ويعودوا لآبائهم من اجل النوم . ان هذا من شأنه ان يخلص فوراً الامهات ، وبدرجة كبيرة يفيد الاطفال . ولكن في الوقت الحاضر ، إفرادية البيت المنفصل تقف في الطريق ، خاصة في انكلترا ، حيث يحتل التعمير مكانة اكثر من اي بلاد اخرى .

افترض انه يجب ان تقدر على ان الاغنياء سوف لا يسمحون لأطفالهم ليساهموا في المرح في مثل ساحات اللعب العامة هذه . لكنها هامة لدرجة اطفال الاغنياء كما هي للفقراء ليهربوا الى الحرية في قسم كبير من اليوم . وليس هناك بيت مدني مهما كان ممتازاً بامكانه ان يزود ما هو ضروري للعقل السليم ونمو الجسد للطفل . يمكن تأمين الاختيار الاجتماعي بواسطة الاسعار العالية ، ولكن بعض الاشكال لمدرسة الحضانة هو ضروري في أية طبقة .

لقد كنا نبحث ما يسمى سنوات ما قبل المدرسة ، بينما ينمو الاطفال وينمو معهم النقاش لصالح المدارس الداخلية ، وينمو الكثير من اثقل هذا النقاش في ان المدارس الداخلية بامكانها ان تكون في الريف في احسن المحيطات ، في حين ان المدارس النهارية لأغلب الاطفال يجب ان تكون في المدينة . نقاش آخر ينطبق في الكثير من القضايا مع العلم انه ليس في جميعها . ان البيت يكون الطفل فيه عرضة لضعف عصبي .

ومن المحتمل ان يكون ذلك حين يتعارك الآباء او ان تكون الام مزعوجة اكثر والأب غير لطيف . ويمكن ان يكون هناك اخ او اخت محبذة تسبب للآخرين معاناة من الحسد ، وكلا الابوين يمكن ان يكونا غير عادلين في عواطفهما . ففي طريقة اخرى ، يكون البيت دائماً حساساً لدرجة . فالأطفال يحتاجون الى حياة هادئة تحتوي على التمتع والنشاط مع قليل من الشعور القوي . واني اعتقد انه ضد الجميع يجب ان يكون معترفاً به ان الكمية المستحقة من العواطف الأبوية الحكيمة تكون جيدة للطفل ، وتعطيه حاسة من الامان وقيمته كإنسان . فيما بين هذه الاعتبارات ، ليست المعاكسة سهلة لتصيب التوازن .

ان مسألة ان البيت معاكس للمدرسة هي صعبة النقاش في هذه النظرية . اذا كانت البيوت التامة مقرونة بمدارس حقيقية ، فان الميزان يميل لطرف واحد . واذا كانت المدارس التامة مقرونة ببيوت حقيقية ، فان الميزان يميل للطرف الآخر . لا يوجد عندي اي شك في فكري الخاص على ان المدارس التامة أحسن من البيوت التامة . ففي اي حال ، البيت المدني التام يسمح للكثير من النور والهواء والحرية للحركة ومرافقة الاقران . انه ليس بواسطة اي وسيلة تتبع في ان المدرسة الحقيقية سوف تكون أحسن من البيت الحقيقي . وأغلب الآباء يشعرون بعطف على اطفالهم ، وهذا ايضاً يضع الحد للضرر الذي يسببونه لهم . ولكن سلطات التربية ليس عندها اي عطف للاطفال المعنيين . ففي أحسن دور ، يلقنون بواسطة روح الجمهور ، الذي هو موجه باتجاه المجتمع ككل وليس تقريباً باتجاه الاطفال . وفي الاسوأ ، فانهم سياسيون مشغولون في النزاع من أجل النفوذ . في الوقت الحاضر ، يلعب البيت دوراً هاماً في تكوين عقلية

الحدث كجزء ليس بأي وسيلة جيداً كلياً ، ولكن ربما أحسن من ذلك الذي سيلعب من قبل الدولة اذا كانت منفردة في الاشراف على الاطفال . البيت يقدم للطفل خبرة من العواطف وعن منظمة صغيرة يكون بها هاماً . وأيضاً عن العلاقات مع اناس من كلا الجنسين وذوي اعمار مختلفة ، وعن عوامل الاعمال المختلفة لحياة الراشد . ففي هذا الاسلوب يكون مفيداً كمصلح للتسهيلات الاصطناعية للمدرسة .

هناك فضيلة اخرى للبيت وهي انها تحافظ على الفوارق فيما بين الافراد . فاذا كنا جميعاً متشابهين . من المحتمل ان تكون ممكنة للبيروقراطيين والاخصائيين ، ولكنها ستكون ساذجة وسوف تقود الى مجتمع غير تقدمي . حالياً الفوارق فيما بين الافراد هي لدرجة بالغة مميزة بواسطة الفوارق فيما بين بيوتهم . الفوارق الكثيرة هي عائق للوحدة الاجتماعية ، ولكن بعض الفوارق ضرورية لأحسن شكل من التعاون ، ان الجوقة الموسيقية تتطلب اناساً بمواهب مختلفة وضمن حدود معينة وأذواق متباينة ، فاذا اصر الناس على عزف الترومبون trombone فان موسيقى الجوقة ستكون غير ممكنة . التعاون الاجتماعي بروح المحبة يتطلب فوارق في الأذواق والمواهب تكون اقل احتمالاً للسود اذا اظهر الاطفال تماماً نفس التأثيرات عما اذا كانت فوارق الأبوة مسموحاً لها ان تؤثر عليهم . هذا لعمري جدال هام ضد النزعة الافلاطونية في ان الاطفال يجب ان يكونوا محميين كلياً من قبل الدولة .

ففي العالم ، كما هو عليه الآن ، هناك مؤسستان خارج العائلة متعلقتان بالاحداث : الدولة هي واحدة فقط منها ، والاخرى هي الكنائس . ففي انكلترا بين اطفال ذوي الدخل المحدود حوالي الثلثين يتعلمون من قبل

الدولة ، امـا البـاقي فهم منقسمون فيما بين مختلف المؤسسات الدينية ، وبصورة رئيسية الانجيلية والرومانية والكاثوليكية . يتعلم اطفال الاغنياء بصورة رئيسية في محيط الانجيلية . وأغلب « أحسن » بنـات المدارس هم انجلو – كاثوليك ، وقبضة الدين على تعليم الطبقـة العالية والمتوسطة هي في ازدياد .

كل من الدولة والكنيسة في الوقت الحاضر مختارة ، لها بعض العيوب كالنفوذ في التربية ، انني سوف أبحث هـــذه العيوب مطولاً في فصول لاحقة ، وسوف أقول بواسطة أسلوب التأمل أن كلاً من الكنيسة والدولة تتطلب الموافقة للمقترحات ، والتي ليس من انسان منصف يعتقد بها . والقواعد صارمة لدرجة انه يمكن قبولها فقط من قبل اولئك الذين كانت عواطفهم ممنوعة بواسطة عقيدة . من الاقتراحات التي أبعد عن الايمـان ، يمكن العرض التالي ان يخدم كأمثلة . تتمسك الكنيسة الرومانية الكاثوليكية في أن الكاهن بامكانه ان يحوّل قطعة الخبز الى جسد ودم يسوع المسيح بتكلمه باللاتينية معها ، الدولة البريطانية تتمسك في أن الامبراطورية رحمة تنعم على الأمم كي تجعل الناس الأحداث يصدقون مثـل هذه الافتراضات ، فمن الضروري أن تتركهم بلهـــاء ولتعلمهم ان يستخدموا قوتهم العقلية في اتجاهات معينة . وتكون القواعد الصارمة التاليـة أمثلة : الكنيسة الرومانية الكاثوليكية تطلب تشريعـــاً مثلاً اذا أصبحت امرأة حاملاً بواسطة رجل مريض بالسفلس فيجب ان لا يوقف اصطناعياً حملهـا ، ولكن ان يسمح لأن يولد طفل مسفلس ، حتى بعد سنوات قليـلة من التعاسة على الارض ، من الممكن ان تقضي الأبدية في السماء . (مقدرين ان والديه يكونان غير كاثوليكيين) . الدولة البريطانية تقدر انـه من

واجبات الرجل الانكليزي ان يقتل الناس الذين ليسوا انكليزاً عندما تأمره مجموعة من الرجال الأكبر سيادة في ويستمنستر ليفعل ذلك . مثل هذه الامثلة كافية لتوضح الحقيقة في ان الكنيسة والدولة هما اعداء لا يمكن إقناعهما لكل من الذكاء والفضيلة .

إنه اذاً لأمر خطير ان تخفض نفوذ البيت في التربية لغاية ما نعرف ما الذي سيحل مكانه . خذ دولة عالمية متحررة من الدين ، من المحتمل ان يكون البيت ذا قيمة أقل بكثير للناس الاحداث . وأن يصبحوا بالنسبة كلاهما اسعد وأكثر ذكاء من خلال إزالة النفوذ الأبوي . ولكن حالياً إلا في روسيا ، فإن كل تقدم يكسب هو ضد الكنيسة والدولة . وان أي شيء يزيد من تسلطهم على افكار البشر يجب ان يستعرض بانذار .

ان امر نقل الاطفال من الآباء ليربوا من قبل الدولة يجب ان يبحث ، ليس فقط فيما يتعلق بالاطفال ، ولكن ايضاً فيما يتعلق بالآباء . ان المزاج الأبوي له نفوذ قوي على السلوك لا في النساء فحسب، ولكن ايضاً في الرجال . ليس لدينا التفاصيل لتمكننا ان نحكم ماذا سيكون شعور الرجال والنساء اذا انتقل المزاج ، ولكن بامكاننا بأمان ان نراهن على انهم سوف يتغيرون لدرجة كبيرة . فانه من المحتمل ان تشعر أغلب النساء برغبة قليلة للأطفال في مثل هذه الظروف ، وان حمل الطفل سيصبح مهنة مأجورة تختار كفرع من الخدمات المدنية . ومن المحتمل ان تنمو علاقات تافهة بين الرجال والنساء ، وان تصبح العواطف الزوجية الحقيقية نادرة . كما أن الرجال سيصبحون أقل ميلاً ليعملوا بجد طالما انه حالياً في الحياة المتوسطة يكون الهدف الرئيسي لكثير من الرجال

هو الرغبة ليجهزوا عائلاتهم . هكذا ثبت بواسطة الرجال ذوي الدخل الكبير حيث يعملون لتأمين الحياة ، والتي تبين انهم يهتمون بما سيحدث لعائلاتهم بعد ان يموتوا . من المحتمل ان يشك في عـــالم لا توجد فيه العائلة ، ان الرجال العاديين سوف يشغلون أنفسهم بالاحداث التي ستحدث بعد موتهم . من الممكن في اي نوع من الشك سوف يحـل في المجتمع مثل الذي يحل على خلية نحل عندما تحرك الملكة بالنسبة لهـذا . ان الخبرة فقط بامكانها ان تقرر ، ولغاية الآن الخبرة مفقودة .

ان هناك شيئاً كثيراً ليقال على الجانب الآخر . جميع الشعور الواقعي خطير ، وليس اقل من شعور الآباء من اجل اطفالهم . ان شعور الآباء لاطفالهم هو اناني ومتنافس لدرجة بالغة . والكثير من الرجـال الذين بينما هم بدون اطفال يكونون ممتلئين بالروح العامة الـتي تصبح منغمسة في رفاهية عائلاتهم الخاصة ، وحالما يصبحون آباء ، فان الشعور من اجل الملكية الخاصة مرتبط كلياً مع العائلة . ان الشيوعيين من عهد أفلاطون هم على حق في التفكير في ان نظامهم الاقتصادي يتطلب ايقاف الملكية الخاصة في الاطفال . ان ما هو معجب بـــه ومفيد في الشعور الابوي كما اعتقد هو المصدر الرئيسي للصالح العام ، والكثيرات من النساء بدون اطفال قد بينوا كم ستصبح قيمة عندما تصبح عامة . ربمـا اذا كان بالامكان تحريرها من حوزة الفساد التي يجب ان تكون ، بينما هي متحدة مع الابوة الواقعية الطبيعية . فالعالم يمكن ان يفقد بعضاً من قساوته ، والرجال يمكن ان يصبحوا راغبين حسناً لجميع المخلوقات البشرية. جميع هذا تقديري ، لكنه نظريات يجب ان يحتفظ بها في العقل.

إن مسألة ان البيت يعاكس المدرسة في واحدة ، والتي هي لدرجـة

معينة يمكن تقديرهـــا على قاعدة الفكر السليم بدون إثارة قرارات اساسية ، عندما نحاول ان نتخطى هذا الحسد . فاننا نقابل بجهلنا النفسية البشرية ، ولا نعرف كم يكون شعورنا غريزياً او كم يكون ناشطـاً شعورنا وبامكانه ان يكون اذا دربوا تماماً خلافاً لما هم عليه حالياً . انه يؤمل ان روسيا سوف تزود مع الوقت تفاصيل تمكننا ان نعرف اكثر عن هذه المسائل ، وبنفس الوقت فان الصفة العلمية الوحيدة هي واحدة مشكوك في الحكم عليها .



٦

الأرستقراطيّة ، الديمقراطية والبيروقراطيّة

ان الاسرة والدولة قوّتانِ متشاحنتان منذ أُقيمت الدولة لاول مرة ، وبامكان الطرفين في العائلة المالكة فقط ان يتفقا شعورياً . وظهرت تباعاً عقيدة ان الأُمة هي عائلة كبيرة يكون الحاكم فيها هو الرئيس .. ووجهة النظر هذه ظهرت في الصين واليابان ، وفي المكسيك والبيرو ، وبعض الحد حينما تكون فكرة انحدار الملوك قوية . وبواسطة مثل هذه الوسائل ، يمكن ان تُقام دولة قوية . ان الفكرة التي جعلت الناس مخلصين كانت لحَدٍّ ما الوقار الديني ، وجزئياً الاحترام لرئيس العائلة . وكانت الدولة غير الشخصية من اختراع اليونان والرومان ، خاصة الاخيرة . ان بروتوس الاكبر ضحّى بأولاده من أجل الصالح العام ، انها قصة ضخمة يصح ان تسمى دين روح الشعب . ففي الشرق ، هذا الدين حديث جداً ، ولقد مَكّن النفوذَ الأوروبي . ان الامتزاج هو بتأني وضع الطاعة والوقار فوق القانون ، ووضع اللوم على الإبن الذي سلّم اباً مجرماً للعدالة .

في اليابان لا تزال الوطنية لها مقدار كبير من الطباع القديمة في العبادة لرئيس العائلة . عندما يحدث شيء كثير ، فان هذه العقيدة تزول

تحت تأثير الإيمان ، ومن المشكوك فيه ان يستمر اليابانيون أدبياً بهـا ، وانهـا ليست غير محتملة ان تفتح مجـالاً للحكومة لتكون اقرب الى الطراز الروسي . ففي الصين كانت هناك محاولات مقاومة وخلق وطنية حديثة بدلاً من شعور العائلة القديمة ، وهـذه المحاولات تركزت حول جماعة كيو منك تانك Kuo Ming Tang وأغلب الوقار الديني للشمس في صن يات صان Sun Yat - sen . وفي الهند انبعثت وطنيـة جديـدة من كراهية الانكليز . ولكن في جميع هذه البلاد ، طالما انهـا تفتقر الى التقاليد الرومانية الوطنية كما نفهمها لا تزال شيئاً ما نادراً .

ان اقرب شيء متصل بالعقيدة الرومانية وجد في الطبقة الرفيعـة البريطانية . وفي اي مكان آخر لغـاية الثورة الفرنسية ، كانت الدولة محصورة في الملك . ففي انكلترا بعد القضاء على شارل الاول ، فان الدولة والملك اصبحا منفصلين تماماً في عقول الناس . عبر الفترة من عام ١٦٨٨ لغاية ١٨٣٢ كانت انكلترا بالواقع جمهورية نبلاء ، والتي بها كانت العائلات الحاكمة لها تفهم حساس لشؤون الشعب الذي طبعهم بالرومانيين في أيامهم العظيمـة في انكلترا . اني لا اعني ان الارستقراطية في انكلترا اظهرت عدم الفوارق لشؤونها الخـاصة . فبروتوس الاصفر ، ذاك النموذج لفضيلة الجمهوري العنيف ، قرض نقوداً الى البلدية بمعدل ٦٠ ٪ . وعندما فشلت في دفع الفائدة ، استأجر جيشاً خاصاً لحصارهـا . والإرستقراطية الانكليزية في القرن الثامن عشر ، استخدمت اشرافها على كل من مجلسي البرلـمان ، وذلك لسلب الشعب العـام حقوقـه بواسطة وسائل قوانين الحصر ، ومهما يكن في كلا الحالتين ، فان طبقات الحكومة اشعرت الدولة انـه من اختصاصها الشخصي بأسلوب يكون نادراً ممكناً لأي فرد في الديمقراطية

الشاسعة في يومنا الحاضر .

ان كل نظام اجتماعي له عدته التربوية الخاصة ، والتي فيما يخص شكل الحكومة البريطانية كانت المدرسة العـامة – ايتون Eton اولاً وأخيراً ، ولكن ايضاً بدرجـة أخف مدارس مثل هـــارو Harrow ونشستر Winchester ، وركبي Rugby . وبواسطة عمليـات هـذه المدارس ، بقيت عقلية ارستقراطية القرن الثامن عشر متمسكة بالسلطات السياسية طيلة القرن التاسع عشر ، بالرغم من التغييرات الجذرية في ظواهر النظام . ان المدارس العامة لا تزال قائمة ، ولا تزال تعتبر من قبل الأثرياء الانكليز انها تجسد كل ما هو حسن في تقاليدنا . انها اذاً لا تزال ضرورية لبحث هذه المساهمة في حياتنا القومية .

ان اهم مظهر نفسي من النظام الاعدادي والمدارس العامة هو انه في سن مبكرة ينقل الولد من البيت ومن تأثير النساء ، ويتركه عرضة بدون دفاع لسوء معاملة الاولاد الأكبر سناً وللعداء الممكن من اجياله . نرغمه ان يحفظ لنفسه جميع الرغبة للطف والأمومة التي له من عهد الطفولة ، ونرغمه ان يركز هذه العقيدة بما انه غير قادر ليضغط كلياً على الاولاد الآخرين . ففي البداية ، من المحتمل ان يكون تعيساً جداً ، ولكن تدريجياً اذا لم يكن فوق المعدل سواء في الحساسية او الذكاء فانه يتعلم ليلبس درعاً وليظهر صارماً . وفي حياته المدرسية يهدف الى القوة والعظمـــة باستثنـــاء جمع الاهداف الاخرى ، فاذا كان جيـداً في ألعـاب القوى ، استطاع ان يتمتع بكرامة سوف لا يمارسها في حياته لغاية ما يتوصل الى مركز له شهرة معتبرة هامة . وفي سنواته الاخيرة في المدرسة ، فان احترام من هم اصغر منه وسلطته عليهم تجعله ينسى تعاسته البدائيــة .

ومع الزمن عندمـا يصبح في سن الأربعين ، يفكر ان سنوات دراسته كانت اسعد وقت في حياته . ولكن سعادته مثلما كانت ، فقد أتت من ممارسة سلطاته التافهة والاعجاب الذي تلقـاه من صفات غير هامة ، وباهتمام يتطلع لغرض فيه نفس الملذات في حياته الاخيرة . انـه يرغب الناس ان يحكموا الاناس الذين يظهر انه يحبذهم . وهكذا يذهب ليعيش بين اناس غير متحضرين ، او على اقل تعديل اناس يعتقـد انهم غير متحضرين : انه باني الامبراطورية ، وحامي الثقافة ، والانسان الذي رسالته جلب الانارة الغربية الى الاماكن المظلمة . فاذا اعتبروه « فطري » كما فعل الولد الصغير اثناء ايامه الاخيرة في المدرسة ، فانّ كل شيء يسير حسناً : انـه لطيف وشجاع ، مستقيم ونشيط ، جلود للانفراد والازعاج الذي ليس اسوأ مما تحمله في سنواته الاولى في المدرسة .

ولكن اذا فشل « الفطريون » في الاعجاب به ، فانه يباشر في تقديم صورة أقل سروراً . وبالاتصال مع المتوحشين ، حيث تفوقه لا يضاهى ، فانه غالباً يعمل حسناً وذلك بسبب شجاعته وجلده ، ولكن بالاتصال مع حضارة اجنبية مثل تلك من حضارة الشرق ، فانه يصبح مرثياً له . لقـد رأيت في الشرق اناساً يعتبرون انفسهم انقى زهرة لتربية مدرسة عامة بالمقارنة مع المتعلمين الشرقيين ، وذلك جعلني أخجل أن أكون انكليزياً ان مواطني يمكن أن يكونوا حمر الوجوه ، يسكرون بكثرة ويصرفون ساعات عملهم في المفاخرة وساعات فراغهم في الرياضة والبريدج جاهلين كلياً الثقافة الغربية وليسوا مدركين أن هناك ثقافة شرقية قائمة . ومع كل ، فالاتصال مع اناس لا يعرفون شيئاً عمـا يستحق المعرفة في حضارتهم الخاصة ، يكون اكثر بكثير من أغلب المدارس العامة . ان

رجالاً من حضارة الغرب ، اولئك الصفقاء الجهلة ، يحتفظون بسفاهة الغزاة العسكريين ، قانعين بادعاء التفوق بمدافع سفنهم الحربية . ولهذه الهمجية المخزية أجاب اليابانيون بواسطة اختيارهم مقاييسنا ، وباقي الشرق يتبعون مثالهم . وكمحرك للامبريالية فشلت المدارس العامة .

وأسباب هــذا الفشل تكون قسم نفسياً وقسم عقلانياً . ولنباشر بالاسباب العقلية ، والتي تقع أقرب للسطح : ان روح المدارس العامة هي احدى مخازي الذكاء ، وبصورة خاصة الذكاء العلمي . والاساتذة يختارون على نطاق واسع من اجل نشاطهم الاختصاصي وان انطبقوا على أقـل تعديل خارجياً ، عــلى النظام الكامل للسلوك ، في الدين والسياسة ، والاجتماع ، والاخلاق ، والتي هي غــير محتملة لأغلب الناس الاذكياء . ويشجع الاولاد ليكونوا بصورة مستمرة مشغولين ، حيث لا يكون عندهم وقت للخطايا الجنسية ، ولا بالصدفـــة وقت للتفكير . ولا يشجعوا أي آثار للاستقلال الفكري من الممكن أن ينتشر هنا وهناك فيما بين امهر الاولاد . وفي النهاية ، يجب أن ينتجوا انتاجاً كامـــلا موحى من عبادة الشكل الجيد كما سيكونون غير قادرين لتعلم أي شيء هام خلال الباقي من حياتهم . ان هذا قليل من النقص العقلي في المدارس العامة — والخلل لا يمكن فصله عن حقيقة ان المدارس العامة مخططة لدعم نظام لا يمكن أن يكون الدفـــاع عنه عقلانياً . ان النقص البسيكولوجي للمدارس الاعدادية والعامة عائد في الاساس لسببين : ابعـــاد الاولاد عن مرافقة البنات ، والقانون التقليدي للاخلاق . ان الاولاد الاصغر سناً ، يفقدون في البداية حتماً عواطف الامهـات والاخوات الاكبر سناً وحتى الممرضات ، وفي هذه الاحوال تصبح أمهاتهم غالباً عرضة للاشتياق السري والعبادة ،

ومع الزمن ينمو شعور بالكراهية لجميع النساء . فبعد بلوغ سن الرشد يميلون لممارسة الاستمناء او اللواط او كليهما ، والعديد منهم يعتقد انهم في عملهم هذا هم مخطئون . فعلى الأرجح أنهم مرغمون ليكونوا سريين ، طالما ان جميع السلطات تعتبر الاضطراب الجنسي ذعراً . ان هذا الوضع يظهر ليس في القليل منهم في زيادة تخيل الام ، بل كذلك للامرأة التي توحي محبة بدون تلوث جنسي . ان هذا النوع من العاطفة بصورة غير مستمرة يجعل الزواج السعيد ليس ممكناً ، ويسبب بعض الاحيان اشمئزازاً لأي امرأة يكون الجماع الجنسي معها ممكناً . ان عدم السعادة الناتجة عن هذا الاضطراب النفسي تميل لتسبب ضيماً وان تجعل القوة المصدر الوحيد السائد للسعادة . وهكذا تكون عقلية الامبرياليين شديدة الامتزاج بالجوع الجنسي. ان الشرور القائمة في المدارس العامة الانكليزية ربما لا تكون جميعاً ليس بمستطاع فصلها عن التربية الارستقراطية ، ولكن بصورة اساسية من المحتمل ان توجد حيثما تكون هناك طبقة تملك أهمية اجتماعية وراثية . مثل هذه الطبقة تستهدف بصورة رئيسية سلطة الحكم . وانها تنمي الارادة نوعاً ما اكثر من الادراك او الحساسية ، وتشمل في تدريبها عناصر مثل التصوف ، كما أنها مفيدة في تشجيع قوة الارادة . وتحت تأثير الثروة ، اصبحت الارستقراطية في الماضي بصورة مستمرة ناعمة من الرفاهة ، او من نمو الرأي التحرري . وما لم تكن هذه الاخطار محترساً ضدها ، ليس بامكان الارستقراطية أن تدبر نفسها طويلا . هكذا تكون كلا المظاهر الحسنة والسيئة للمدارس العامة الانكليزية ضرورية في تربية طبقة ارستقراطية مستمرة بذاتها . ان الارستقراطية حالياً تعتبر قديمة بالية ، وانكلترا بواسطة الحفاظ عليها تأتي لاستعراضها كاستمرار

غريب ، مثل الحيوانات التي تحمل أطفالها في الجيوب الكيسية . لهـــذا السبب اكثر من أي خطأ في التفصيل ، لم تعد لإيتون الأهمية التي كانت قبل مائــة سنة . ومهما كان نظام التربية . فانه لاعداد الناس كي يعلموا مكانتهم في العالم الحديث ، وأن لا يكون النظام ارستقراطياً .

ان التربية الديمقراطية غير الناضجة لهـا شرور كبيرة بمعدل شرور الارستقراطية اذا لم تكن اعظم . الديمقراطية ، كرأي ، لها وجهتان . فعندما تقول : « انا جيد مثلك » فانها مفيدة ، ولكن عندما تقول : « انت لست احسن مني » فانهـا تصبح صارمة وعقبة لتطور الكفاءة الاستثنائية .

ولنضع الامر بدقـة اكثر : ان الديمقراطية جيـدة عندما توحي بالاحترام الذاتي ، وسيئة عندما توحي بمعاقبة الافراد المميزين من قِبـل الجمهور . وهذا النوع من العقبات قائم طبعاً في المدارس الارستقراطية ، حيث يكون الاولاد الشاذون غالباً عرضة لمعاملة سيئة أليمة . انه فقط في ظل الديمقراطية ، مهما يكن ، اصبح هذا النوع من الشيء نظرية كما هو عملي ، ويمتد خارج المدرسة للعالم على نطاق واسع . ان تحمل الغرائب ، الـــتي هي واحـدة من احسن الظواهر للحيـاة الانـكليزية ، مرتبط بالارستقراطية .

لقد عانى بايرون وشيللي الاضطهاد الاجتماعي ، لكن ليس اقل ممـا عانينـــاه في ظل الديمقراطية ، وعلاوة على ذلك فانهم قادرون احسن لمقاومته اكثر مما لو كانوا بدون احترام ذاتي ارستقراطي .

وهذا مهما يكن ليس الشر التربوي الرئيسي للديمقراطية . ففي اميركا ،

حيث الاعتقاد الديمقراطي قوي ، من الصعب ان تعدل النظام التربوي ، الذي يعطي الفوائد الضرورية للأطفال الماهرين . وقد عمل شيء ما في الاوقات الاخيرة في هذا الاتجاه ، ولكنه عمل بصورة رئيسية من قبل أولئك المعارضين للديمقراطية .

انه من الواضح ان بعض الاطفال هم اكفاء اكثر من الآخرين ، ذلك لأن الاكثر كفاءة اذا كانوا سعداء ومفيدين للمجتمع ، فانهم يحتاجون لمعاملة مختلفة عن تلك التي هي الاحسن من اجل الاطفال العاديين . ان خطأ الارستقراطية ينحصر ليس بالتفكير في ان بعض الناس هم ارفع من الآخرين ، ولكن في افتراض السمو ليكون وراثياً . وخطأ الديمقراطية ينحصر في اعتبار جميع المطالب للسمو كمبررات لكراهية الجمهور . ففي العالم الحديث ، تطلب الانجازات التي هي ضرورية للمجتمع اكثر من كفاءة ما يحوز عليه اغلب الناس . ويجب ان تكون هناك اساليب لاختيار الناس المتميزين لانجاز هذا العمل . وبصورة عامة اذا كانوا ليصبحوا اختصاصيين بقدر الامكان فانه من المستحسن اختيارهم حينما يكونون لا يزالون حديثي السن تماماً ، مثلاً في سن الثانية عشرة ، وليسمح لهم ان يتقدموا تقدماً اسرع مما هو ممكن لطبقة من الاولاد او البنات العاديين .

ان الشعور انه غير ديمقراطي لأفراد احسن الطلاب ، هو احدى الطرق التي توصل الى ضياع مواد جيدة . واننا سنبحث هذا الموضوع ثانية في الفصل الثاني عشر . ولذا سوف لا اقول اي شيء اكثر عنه ، عدا ان العقيدة الديمقراطية تجري مستغربة ، وليس النظام الديمقراطي للحكومة هو سبب المتاعب . ان فرنسا ديمقراطية سياسياً بمعدل اميركا ،

ولكن ليس هنـالك صعوبة في ضمان معاملة خاصة للأكفاء ، لأن الصفات الادراكية والفنية تحترم . وليس فقط عندمـا تتوصل الى شهرة عظيمة ، ولكن حين لا تزال في طور التقدم .

ان الديمقراطية ، كنظرية ، ليس لها سيطرة على عقول الناس كتلك التي كانت قبل الحرب . فلقد اصبح واضحاً انه يوجد في المجتمع الصناعي مواضع مفاتيح للسلطة ، والتي اذا لم تكن في ايادي البيروقراطيين الخاصة فانها ستكون في ايدي الموظفين ، الذين بإمكانهم مع الزمن ان يكونوا عرضة لاشراف شعبي . ولكن الارادة ، في عدة وجوه ، ستكون قادرة لاتخاذ مقررات هامة حسب اجتهادهم الخاص . وهكذا نتوصل الى النظام الحكومي كنقيض عملي للارستقراطية والبيروقراطية . فاذا عمل كل شيء ممكن لازالة الامتيـازات الجائرة ، فان السلطة ستبقى موزعـة بدون انصاف ، لأن هـذا لا يمكن تجنبه . ولكنها ستعطي لأولئـك الاكثر ملاءمة لممارستها . انها سوف لا تكون ، مهما يكن ، سلطة غير مسؤولة مثل تلك التي تنتمي الى البيروقراطية والملوك المطلقين ، وستكون سلطة عرضة لاشراف نهائي من قِبل الديمقراطية .

ان الناس الذين سيمارسون مثل هذا النوع من السلطة بحكمة يتطلبون مؤهلات مختلفة نوعاً ما عن تلك الناجمة سواء من قبل التربية الديمقراطية او الارستقراطية . فان العناصر غير الديمقراطية تحتوي في كونها بوضوح فوق المعدل في المقدرة والمعرفة . والعناصر غير الارستقراطية تحتوي في واقع وضعهـا ليس على الوضع الاجتماعي لآبائهم ، ولكن على كفاءتهم الشخصية ، طالما انه ليس عندهم سلطة نهائية ومطلقة ، فانهم لا يحتاجون الى صفـات استثنائية للقيادة ، ولكن فقط الى سلطات غير اعتيـادية

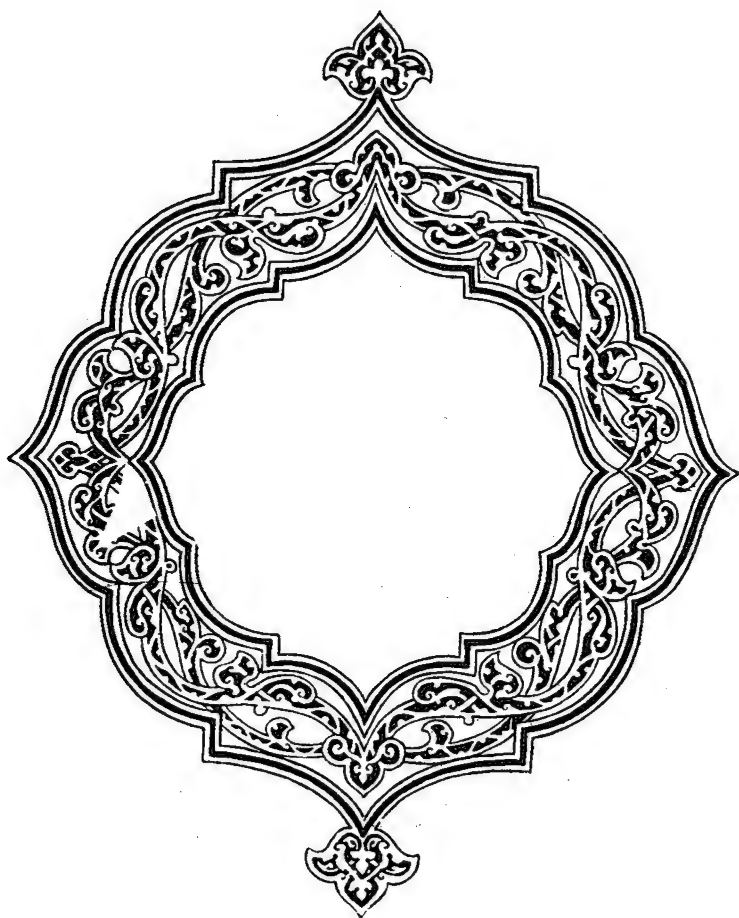
للوصول الى نهـاية سليمة ، وتقديم مبررات نهايتهم لأشخاص نوعاً مـا دون انفسهم في العقل .

من الواضح ، طالما ان المجتمع ينمو اكثر ثباتاً في تأثير الاختراعات الحديثة والتكنيك – فإن أهمية النظام البيروقراطي بصورة مستمرة في تزايد . لتعلم بصواب اولئك الذين سيصبحون موظفين ، يكون ذلك هاماً جداً في الدولة العلمية . وهذا يتطلب من جانب المربين ورسميي التربية الاحترام لذكاء العامة عند الاطفال ووسائل اكتشافها . وتتطلب صفوف خاصة للأكثر ذكاء ودورة تخطط لإعطائهم فوراً وجهـــة نظر عقليـة واسعة ، وما هو ضروري في أسلوب معرفة الخبرة . هناك ميل للافتراض أن المعرفة التي تكون مفيدة ليس بامكانها ان تعطي تهذيبـاً والعكس بالعكس . اني أعتقد أن هذا تضليل . فمن المسلم بـه ان معرفة حرب Peloponnese تعطي ثقافة ، في حين أن المعرفـة عن الثورة الروسية تكون غامضة ومشكوكاً بها . إن آراء من هذا النوع تكون عقبة ليس فقط للحصول على معرفة مفيدة ، ولكن ايضاً لثقافـــة سليمة ، والتي يجب ان تكون متسعاً عالمياً ، يكون باستمرار متنازعاً من قبل المغالين .

ان التربية البيروقراطية ستكون تربيـة من نوع خاص للمواطنية . ولكنها لن تكون تربية سليمة طالما ان بعض المعرفة لها قيم خاصة نظراً لكونها تقليدية ، بينما الدوائر الاخرى للمعرفة يظن انها غير هامة ، لأنها ليست بحوزة اساتذة محدودي التفكير . ففي زمن عصر النهضة ، كانت جميع الآداب الجيدة باللغة اللاتينية او اليونانية ، والآن ليس هـذا هو الحال . ان أغلب اساتذة المدارس العامة الانكليزية لم يتمكنوا بعد من اكتشاف هذه الحقيقة ، والحكومة البريطانية لا تزال تختـــار موظفيها

المدنيين على نطاق واسع لكفاءاتهم في الكلاسيك ، في ان معرفة اللغـة الافرنسية والالمانية ستكون اكثر فائدة ، وأكثر قيمة . ان ضيق التصور التقليدي للثقافة عنده الكثير فيما يتعلق بالخزي الذي سقطت فيه الثقافة عند الرأي العام . ان الثقافة الواقعية تحتوي في كونها مواطناً للعالم ، وليس فقط في قاعدة مجزأة او اثنتين في فترة من الزمن . انهـا تساعد الناس ليفهموا المجتمـــع الانساني ككل وليقدروا بحكمة النهايات التي يتوجب على الشعوب اتباعها ، وليروا الحاضر في علاقته بالماضي والمستقبل. ان الثقافة الواقعية تكون اذن ذات قيمة كبيرة لأولئك الذين سيديرون السلطة ، التي تكون لهم على اقل تعديل مفيدة بمعدل التعليمات التفصيلية . والطريق لجعـــل البشر مفيدين هو جعلهم حكماء ؛ وجزء اساسي من الحكمة يُكوّنُ العقلَ المدرك .





٧

الجمع في التربية

إن إحدى العوامل الهامّـة في تَشكيل الخُلق هي تأثير الجمهور على الفرد أثنـاء الطفولة والشباب . والكثير من الفشل في اكتمال الشخصية ، يَنتج من النزاع فيما بين جمهورين مختلفين ، ينتمي الطفل لكليهما ، بيـنما الآخر من النزاع فيما بين الجمع والفرد . فيجب أن يكون هنـاك اعتبار هـام في التربية لضمان إيقاف تأثير الجمهور ، وأن تكون عملياتها مفيدة اكثر مما تكون ضارة .

وأغلب الشباب يكون عرضة لعمليـات نوعين مختلفين من الجمهور ، الـتي يمكن أن تسمى بالتتالي الجمـع الكبير والجمع الصغير . إن الجمع الكبير لا يتألف بصورة متزايدة من الشباب ، ولكن المجتمع كله الذي ينتمي الطفل له . وهذا يقرر بصورة رئيسية من قبل بيت الطفـل إلا حيث يكون هناك نزاع محدود جداً فيما بين البيت والمدرسة كما يحدث

على سبيل المثال مع اطفال المهاجرين في الولايات المتحدة . وفي أثنـــاء الوقت الذي يصرفه الولد أو البنت في المدرسة ، فان الجمع العظيم يكون نوعاً ما أقل أهمية من الجمع الصغير المؤلف من زملاء المدرسة . ان كل مجموعة من المخلوقات البشرية في تقارب بالعادات تكون شعوراً جمعيـاً يظهر في تقاليد معينة لوحدة الطباع ، وفي عدائها لفرد عنده نفس التقارب، ولكنه لا يشعر انه واحد من الفئة . وكل ولد جديد في المدرسة عليه أن يرضخ لفترة معينة يعتبر أثناءها باشتباه غير صديق من قبـل اولئك الذين يكونون تماماً متآلفين في جمع المدرسة . فاذا لم يكن الولد بأي طريقة غريباً ، فانه يقبل حاضراً كفرد في الفئة ويصبح يفعل كما يفعل الآخرون ، ويشعر كما يشعرون ، ويفكر كما يفكرون . فـاذا كان من الجهة الثانية ، غير عادي ، يمكن أن يحدث واحد من شيئين ، ان يصبح قائد الفئة ، أو أن يبقى غريباً معاقباً . ومن المحتمل لبعض القليل جداً بواسطة ربط الطبيعة الجيدة ، غير العادية مع الشذوذ ، أن تصبح جنوناً مرخصاً مثل جنون شيللي في ايتون .

إن الرجال العاديين يحصلون أثناء سنوات المدرسة على ذاك الادراك السريع الحساس عما هو مطلوب ، كي يكونوا أعضاء عاديين في الجمع . والذي يحتاج المرء اليه في احترام ، هو المكان العام في الحياة فيما بعد . فاذا كان شخص عضواً في نادٍ ، ويعمل أي شيء ليس كليـاً صحيحاً ، فسوف يتذكر من عهد صباه نوع المعاملة التي عملت لأولاد غرباء . وبينما يعـدل سلوكه ليناسب قانون الحضارة الراشدة ، فانه لا يزال يحتفظ بهـا في شكلها الاساسي ، وماذا أصبحت في تلـك السنوات الباكرة . إن هذا يشكل قاعدة السلوك الفعالة الحقيقية ، التي يكون الرجال عرضة لها .

يمكن أن يعمل الرجـــل أشياء ليست أخلاقية ، وكذلك يعمل أشياء ليست شرعية ، ويكون صلباً أو وحشياً ، او في فرصة مناسبة وقحاً ، ولكن يجب أن لا يعمل أي شيء من هـــذه الأشياء ، التي من اجلها سوف تهمله طبقته . وعلى ماذا تعتمد هذه الأشياء ، طبعاً على البلد والعمر والطبقة الاجتماعية المعنية . ولكن في كل بلد ، وفي كل عمر ، وفي كل طبقة اجتماعية ، هناك مثل هذه الاشياء .

ان الخشية من الجمهور تكون متأصلة بعمق في أغلب الرجال والنساء ، وهذه الخشية غرست مبدئياً في المدرسة . انها تصبح ذات شأن له أهمية كبيرة في تربية الطباع ، على ان الاشياء التي تعاقب من قبـــل جمهور المدرسة ستكون بقدر الإمكان أشياء غير مرغوبة ، وبمقـــدور الولد ان يغيرها . ولكن الضمان هذا ، يكون من الصعب لدرجة متناهية . فإن القانون الطبيعي لجمع الأولاد يكون كقاعدة ليس شرفاً رفيعاً جداً . وضمن الأشياء التي يمكن ان يعاقبوا من أجلها أشياء لا تقع ضمن سلطة ضحاياهم .

إن الولد الذي عنده علامة ولادة في وجهه ، أو الذي تنفسه يكون ضاراً فإنه يعاني من الألم في المدرسة . وليس واحد من مائـــة يعتبر انه يستحق أية رحمة . لا أظن أن هذا يكون مؤكداً ليحدث . وأعتقد أنه ممكن لتعليم الاولاد صفات اكثر رحمة ، ولكن الأمر صعب ، وأساتذة المدرسة الذين يحبذون ما يدعى رجولة ، من غير المحتمل ان يعملوا الكثير في هذا الاتجاه . ان هذا من وجهة النظر الاجتماعية اكثر جدية ، في حين انـــه ليس من وجهة نظر الفرد ، أن تكون قضية اولئك الاولاد الذين مجتمعهم الكبير يكون في بعض السبل معاكساً للمجتمـــع الأصغر في

المدرسة ، مثل اليهود في مدرسة مؤلفة بصورة رئيسية من الأغراب . إن معظم اليهود حتى في أغلب المجتمعات المتحررة ، كانوا عرضة في عهد الصبا للشتائم على حساب عنصرهم . وهذه الشتائم تبقى في ذاكرتهم وتلون جميع وجهة نظرهم للحياة والمجتمع . يمكن أن يلقن الولد في البيت ليكون فخوراً لكونه يهودياً ، ويمكن ان يعرف بذكائه أن الحضارة اليهودية هي أقدم من أغلب الأمم الغربية ، وأن مساهمة اليهود بالنسبة لتعدادهم بدون مقارنة ، أعظم من مساهمة غير اليهود .

فمهما يكن ، عندما يسمع الأولاد الآخرين يصرخون شيني Sheeney أو آيكي Ike وراءه بلهجة التحقير فإنه يجدها صعبة ليذكر أنها شيء حسن أن يكون يهودياً . واذا تذكرها فانه يذكرها بالتحديد . ففي هذه الطريقة ، ينغرس الحقد في نفسه فيما بين مستوى البيت ومستوى المدرسة . وهذا الحقد يكون سبباً عظيماً للحالات العصبية ، وأيضاً لخوف عميق الجذور . وبعيداً عن القومية اليهودية ، يوجد هنالك نموذجان لردة الفعل لهذا الوضع أحدهما ما يخص الثوريين ، والآخر يخص التملق .

بامكاننا اعتبار كارل ماركس وديزرائيلي كمثالين بالغين لردة الفعل هذه . ان الكراهية في كارل ماركس التي شعر بها للنظام القائم ، من المحتمل أن لا يكون قد شعر بها لو كان غير أجنبي . وهكذا تقل كراهيته لغير الأجانب ككل الى الرأسمالية . ومنذ كانت الرأسمالية في الحقيقة ، على نطاق واسع مكروهة ، فانه نجح بواسطة استعراضها بعيون الكراهية في ابتداعه على نطاق واسع عقيدة حقيقية مكانها في النظام الاجتماعي . وديزرائيلي الذي كان يهودياً في العنصر ، مسيحياً بالديانة ، قابل الوضع بأسلوب آخر . لقد أعجب بأعمق الاخلاص بروعة الارستقراطية وجودة

الملكية . وهناك شعر في عظامه أنه كان الاستقرار . لقد كان هناك آمناً من العقاب ، كان في منعة من الاضطهاد . ونفس الخوف من عداء الجمع، الذي تحول في كارل ماركس لثورة ، تحول عند ديزرائيلي الى تقاليد الحماية . وبمهارة خارقة جعل نفسه واحداً من الجماهير المعجبة ، وارتفع بها للسمو وأصبح القائد للأرستقراطية المتكبرة المحبوب من قبل مليكه. وأن نفهم حياته محتوى في ايضاحاته عندما يضحك مجلس العموم ، فانه يقول في خطاب له : « الوقت سيأتي عندما ستسمعون لي » ، كم تختلف صفات المولود ارستقراطياً في وجه الضاحكين ، فانها توضح بواسطة قصة بت Pitt الأكبر ، الشخص الذي يباشر الخطاب في البرلمان في كلمات « السكر ، سيدي » والتي تسبب قهقهة ، يتطلع حوله ويكررها بصوت أعلى « السكر ، سيدي » ، ومرة ثانية هناك قهقهة ومرة ثالثة بنظرات الغضب وبصوت رعدي ، وهو يكرر « السكر ، سيدي » ، وهذه المرة أنواع كثيرة من الشهرة الحسنة والسيئة قد سببت بواسطة رغبة ولد ليمحو بعض العار الذي عاناه في وجه الجمع ، ومن هذا النوع ، قدم اللقطاء شيئاً من الايضاح . ان ادمون في لير ، وضع الأسلوب الذي كونه لقيطاً جعله معادياً للناس العاديين . فإنني أجرؤ على أن وليم الفاتح لن يكون قد أثير لمثل هذه الأعمال التي تستحق الذكر ، اذا لم يكن قد رغب ان يمحو العار الذي لميلاده .

لغاية هذا الحدّ ، كنا نبحث تأثير الجماهير العادية على الافراد الذين كانوا غير عاديين سواء في السلوك او الظروف . ولكن ليس بصورة غير مستمرة . لقد كان هناك جماهير صبيانية من نوع فوق العادة ، اكثر فساداً وأكثر صرامة عن الجماهير التي أغلبنا اعتاد عليها في شبابه .

فكروبتكن Kropotkin كان في شبابه عضواً في جماعات الخدم . وان المدرسة الارستقراطية التي كان بهـا الاولاد محبذين هي أن القيصر تربى فيها . ان شرح الاشياء التي حدثت في هـذه المدرسة هـام . فهو يقول على سبيل المثال :

« ففي الشكل الأول فعلوا ما أحبوه ، وليس بعيداً اكثر من الشتاء المنصرم ، كانت احدى ألعابهم المحبذة تشكيل « القرون الخضر » ليلاً في غرفة ، في لباس الليل ، وليجعلوهم يركضون حولها مثل الخيول في السيرك بينما قرب جدران الغرفـــة يوجد اناس ، مسلحون بكرابيج غليظة من المطاط الهندي ، يقف بعضهم في الوسط والآخرون في الخـارج وبدون رحمة يجلدون الاولاد . وكقاعدة « السيرك » ينتهي في زي شرقي ، وبطريقة غـــير سارة . كانت الوقائع السلوكية السائدة في ذاك الوقت والحديث القذر ، الذي كان سارياً في المدرسة ، يتعلق فيما يحدث بالليل بعد السيرك ، كان أقل ما يقال عنهم هو الاحسن .

ومن الصعوبة البالغة تقدير تأثـير جمهور المدرسة على طباع الرجال البارزين . خذ على سبيل المثال نابليون . نابليون في شبابه كان في الكلية الحربيـــة الارستقراطيـة في بريـــني Brienne ، حيث أغلب الاولاد الآخرين كانوا اغنياء من أعلى النبلاء . لقد كان هو هناك نتيجة لاعتراف سياسي قامت به فرنسا لكورسيكا ، وعلى ضوئه تربى عدد معين ضئيل من الشباب الكورسيكي في بريني بدون مقابل . لقد كان واحداً من عائلة كبيرة ، ووالدته كانت فقيرة . وبعد أن اصبح امبراطوراً اكتشف بسهولة انه كان من نسل عائلة جيبليان Ghibelline العريقة ، ولكن هذا لم يكن معروفاً في ذاك الوقت . كانت ملابسه بسيطة وباليـة ، بينما كان الشباب

الآخرون في ثياب فاخرة . لقـد كان محتقراً من قبل كل شخص ، حيث كان ينظر اليه بكبرياء واحتقار . وعندما انفجرت الثورة تفاعل معها ، ويمكن أن يشتبه احد ان عنصرياً في شعوره نحو الثورة يستوعب فكرة الاحتقار ، التي حلت من قبل الزمـــلاء اثناء سنواته في بريني . ولكن عندما ارتفع الى امبراطور ، اصبح له نوع من الانتقام ممكناً ، والعديد من الرجال الذين احتقروه جعلوا يرجون الانحناء امامـه للاحترام من اجل امتياز : هل بالامكان الشك ان الافتخار الذي جرح سنواته الاخيرة في السلطة كان له مصدره من الاحتقار الذي عاناه كولد ؟ ان والدتـه التي لم تعان نفس الاحتقار استعرضت مجرى حياته بتعليق ساخر ، وضد رغباته اصر على توفير قسم كبير من راتبه استعداداً لليوم الذي ستأتي به عظمته على نهايتها .

لقد كان هناك قليل من الرجال العظام ، وغالبـاً أمراء ، لم يعانوا ضغط الجماهير بالمرة . ان ألمع هؤلاء كان اسكندر الكبير ، الذي لم يكن في أي وقت بين جمهور من اقرانه . ولعل كلاً من عظمته وخطإه كان عائداً جزئياً لهذه الحقيقة . فانه لم يتوقف من الوعي الرائع بواسطة اي من مثل هذا التحرر من الغرور ، كما يتدرج الى الولد الجديد في المدرسة فكان خادعاً نفسه كفاتح ، ليظهر طبيعياً في فتح جميع العالم .

وغروره بنفسه كأعظم من جميع اقرانه ظهر طبيعياً عندمـا فكر بنفسه كإله . ففي تصرفـــاته مع اصدقائه ، حتى اولئك الذين كانوا الاقرب اليـــه ، لم يظهر اي اشارة للاعتراف بحقوقهم . انـ قتله بارمينو Parmenio وكليتوس Cleitus أخـــذ بانفراد ، افتراض الطاغية الظالم ، ولكنهم كانوا نفسياً قادرين على الايضاح كما هو عائد الى فقدان

الصبر لرجل لم يكن بأي وقت عرضة لانتقاد الجماهير .

ان الايضاحات اعلاه وضعت لاقتراح ان جمع المدرسة هو احد العوامل الهامة في تقرير الطباع ، خاصة عندما تتنازع مع بعض الافراد او الصفات الاجتماعية في ولد ذي عبقرية استثنائية . فالرجل الذي يرغب في ايجاد مدرسة جيدة ، عليه ان يفكر اكثر في طباع الجمهور الذي يخلقه ، اكثر مما يفكر في اي عامل افرادي آخر . فاذا كان هو شخصياً لطيفاً ومنصفاً ، لكنه يسمح لجمع المدرسة ان يكون صارماً وغير منصف ، فان الاولاد الذين تحت عنايته سوف يقاسون محيطاً مؤلماً بالرغم من جودته .

اعتقد ان في بعض المدارس الحديثة ، قانون عدم التدخل ساري المفعول لحد ما ، حيث ان هذا النوع يمكن ظهوره بسهولة . فاذا الاطفال لم يتدخل في شؤونهم من قِبل الاكبر سناً ، فان الاولاد الاكبر سناً من المحتمل ان يقوموا بطغيان على الاصغر منهم . وهكذا ، حيث المفروض ان تكون الحرية تحت رقابة المدرسة ، ستقوم فقط الارستقراطية الاقوى جسداً . وأنه مهما يكن ، صعباً لدرجة بالغة منع طغيان الاولاد الاكبر بوسائل اجراءات العقوبات المباشرة . فاذا مارس العنف في تصرفاتهم مع الاطفال الكبار ، فان الاطفال الكبار سوف يمارسون بدورهم العنف مع الاصغر منهم .

ان الشيء الذي يهدف اليه ، هو أن يكون هناك ضغط قليل بقدر الامكان على جمهور الطلاب ، وقليل من نظام القوة البدنية كما هو مقارن مع الطبيعة البشرية للشباب الناشيء ، بينما يكون حسناً للأولاد والبنات ان يتعلموا التصرفات الاجتماعية مع زملائهم ، وأنه ليس حسناً لهم ان

يكونوا عرضة لعنف متزايد لضغط الجمع . ان ضغط الجمع يحكم به بواسطة شيئين : اولاً عنفه ، وثانياً اتجاهه . فاذا كان عنيفاً جداً فانه ينتج الراشدين الذين يكونون خجولين وعاديين إلا في مناسبات قليلة نادرة . وهذا مما يؤسف له مهما كان ممتازاً ، العدل السلوكي الذي تأثر به الجمهور . ففي ايام « مدرسة توم براون » كان هناك ولد رفس من أجل تلاوته صلاته . وهذا الكتاب له تأثير عظيم . وبين زملائي عرفت واحداً رفس لعدم تلاوته صلاته . انني آسف للقول انه بقي طيلة حياته وثنياً شهيراً .

هكذا ، حتى هـذا الشكل من الفضيلة الرفيعة من طغيان الجمهور ينفذ لدرجة بالغة ويصبح غير مرغوب به .

ان الضغط المتزايد من الجمع يتدخل بالافرادية ، وفي تنمية جميع مثل هذه المصالح ، كما انها تكون غير مألوفة فيما بين الاولاد الأصحاء مثل العلم والفن ، والأدب والتاريخ ، وأي شيء آخر يمثل الحضارة . فمهما يكن لا يمكن الانكار ان المساواة فيما بين الجمهور لها اهدافها الحسنة . انها تشجع الجرأة البدنية ، ولا تشجع جميع انواع تسكع كتوف اليدين للانحطاط . فضمن حدود اذاً يكون لها فوائدها .

ان هذه الفوائد تكون اعظم بكثير حيث تكون اهداف الجمع ، وبالاجمال تكون حسنة اكثر مما حيث هي على سبيل المثال في حساب كروبنكن عن « فرق الخدم » . فاحدى فوائد المدارس الخاصة للأولاد والبنات ذوي الكفاءة غير العادية هي انه ، في مثل هـذه المدارس ، من المحتمل ان يكون الجمهور أخف بكثير مما هو في المدارس العادية ،

وأقلّ عداء بكثير لتمدين الحرف . ولكن حتى حينما يكون كلياً عادياً ، فان الاولاد والبنات المعنيين سيكون في امكانهم، بواسطة وسائل الأمثلة النامية، ان ينتجوا درجة معينة من الجلادة واللطف ، ودرجة معتبرة من الاهتمام في المؤسسات الجماعية ، كالألعاب على سبيل المثال ، التي بها الجمهور يؤثر العمل تعاونياً وليس إلزامياً .

من اجل الطباع الاستثنائية القوية المعينة ، هنـــاك قيمة تربوية في الوقوف ضد الجمع لبعض الاسباب التي تشعر بعمق لتكون هـــامة . مثل هذا يمكن ان يكون كل شيء للصالح . ولكن اذا جعله الجمهور غير سعيد خارج حد معين ، فهو يربح او يخسر سواء ما كان ممتازاً جداً في طباعه ، او يصبح ممتلئاً بغضب مدمر كما لو كان حال نابليون حيث سبب ضرراً لا يوصف للعالم .

فيما يخص الجمع الاكبر الذي يقع خارج المدرسة ، فان الآباء الذين آراؤهم في اي طريقة تكون غير عادية يجابهون بارتباك . والكثير منهم يجدونها صعبة جــداً لتحل . فاذا ارسلوا اطفالهم الى مدارس حيث الآراء غير العادية تكون غير مشجعة ، او حيث الحرية العــادية تكون مسموحة ، فانهم يخشون انه في دخولهم العالم الاكبر ، فان الولد او البنت لن يكونا ملائمين باستعداد للاشياء كما هي . ان اولئك الذين كان مسموحــاً لهم ان يفكروا ويتكلموا بحرية عن الجنس سوف يضغط عليهم بواسطة الاسكات والاعتدال . وأولئك الذين لم يعلموا وطنيـــة فانهم سيجدون صعوبة في ايجاد مكان ملائم في عالمنـــا القوي . والذين لم يتعلموا الاحترام للسلطة القائمة سيجدون انفسهم في متــاعب من جراء الحرية في انتقاداتهم . وفي مجرد كلمـــة ، فإن اولئك الذين اعتادوا على الحرية سوف يشعرون ان

سلاسل العبودية اكثر ازعاجاً من اولئك الذين كانوا عبيداً منذ الولادة . هكذا على اقل تعديل يكون النقاش الذي سمعته باستمرار مقدمـاً من قبل الآباء ذوي العقول التحررية في صالح تربية غير تحررية لأطفالهم .

اعتقد ان هناك جوابين لهـذا النقاش ، احدهما بالمقارنة سطحي ، والآخر اساسي . الأول من هذه الاجوبة يحتوي على اظهـار ان التوافق الخارجي للسلوك هو شيء يتعلمه الناس حديثو السن بسهولة ، وانـه في الحقيقة يعلم دولياً في جميع الانظمة العادية للتربية ، حيث يكون سلوك الاطفال امام والديهم وأساتذتهم مختلفاً كليـاً عن سلوكهم مع بعضهم البعض .

اني اعتقد انه من السهل تماماً تعلم هـذا التناسق في سن الرشد كما تتعلمها في سن اكبر . فلدرجة مـا تكون مجرد شأن للاخلاق الحسنة . وستكون وقاحة ان تتكلم مع مسلم ضد محمد ، او مع حاكم ضد قانون الاعدام . من المحتمل ان يكون واجبنـا الاجتماعي التعبير عن الآراء في اي من هذه المواضيع العامة ، ولكن من الصعوبة ان يكون من واجبنا التعبير عنهـا بصورة شخصية في الأحياء ، حيث تسبب الألم والغضب . لا اعتقد ان التربية الحرة بحاجة لجعل الولد او البنت غير مقدر للاخلاق الطيبة ، ولا لتلك الدرجة من السلوك المنـاسب الخارجي الـتي تتطلبهـا الحياة العادية . ولا أظن ان ألم التناسب بعد تربية حرة يكون تقريبـاً هكذا عظيماً مثل الألم المسبب بواسطة الارتباك الذي انغرس في مجرى التربية العادية . هذا هو حد السؤال الأول .

أما السؤال الثاني فيذهب أعمق من ذلك . ان عالمنا يحتوي على شرور محزنة ، بالامكان معالجتها اذا رغب الناس في ذلك . وأولئك الذين يدركون

هذه الشرور ويحاربون ضدها ، من المحتمل انهم في الحقيقة عندهم في كل يوم سعـادة اقل من اولئك الذين يرضخون للوضع الراهن . ولكن بدلاً من سعادة كل يوم فانه سوف يكون عندهم شيء مـا ، والذي انا من جانبي اقدّره اكثر سمواً لكل من نفسي وأطفالي ، انه سيكون عندهم العقل لعمل ما يقع ضمن طاقتهم لجعل العالم اقل ألماً . كما سيكون عندهم اعتبار عادل للقيم عما هو ممكن للسير السهل للاذعان . وسيصبح عندهم معرفـة انهم بين اولئك الذين يمنعون الجنس البشري من السقوط في التقاعس او اليأس . ان هـذا شيء أحسن من الاقتناع بالكسل ، واذا كانت التربية الحرة تنمي هـذا ، فيتوجب على الآباء ان لا يرتجفوا من الآلام الطارئة التي من الممكن ان تشملَ اطفالهم .



٨

الدين في التربية

إن الدين عقدةٌ ظاهريةٌ لها شكل افرادي ومظهر إجتماعي . ففي بدء العصور التاريخية ، كان الدين قديماً تماماً : وعـــبر التاريخ ، كان ازدياد الحضارة متوازياً مع نقص التدين . فان الاديان الباكرة التي نعرفها كانت اجتماعية اكثر ممـا هي افرادية : لقد كانت هناك ارواح قوية تعاقب او تكافىء جميع العشيرة حسبما يسلك افراد العشيرة بسوء او خير . فـان شعور الارواح بالنسبة لنوع السلوك ذاك كان شراً او خـــيراً ، تؤكد بواسطة الاستيعاب ومسجلة في التقاليد الكهنوتية . فـــاذا دمرت هزة ارضية او وباء سكان اقليم ما ، فان الرجال الحكماء سوف يتحرون اياً من عاداتهم كانت غريبة ، ويقررون ان مثل هذه العادات يجب أن تتجنب في المستقبل . ان وجهة النظر هـذه ليست بأي وسيلة سارية المفعول . لقد عرفت كاهناً في كنيسة انكليزية قد حسب ان انكسار الالمـان في

الحرب العظمى كان نتيجة لشغفهم في انتقاد القوة الإلهية ، منذ ان تمسكوا في ان خالق الكون يمانع في نصوص مضمون كتاب اليهود .

ان الديانة كما ورد فيها هي في العادة تكون مصدر فكر الروابط الاجتماعية . فعندما يعمل شخص شيئاً ما غير سار للالهة ، فانهم من المحتمل ان يعاقبوه . ليس فقط الفرد المذنب ، ولكن جميع العشيرة . وتباعاً ، فان سلوكه كان ذا اعتبار عام حيث ان الشرور الخاصة تسبب مصائب عامة . إن وجهة النظر هذه لا تزال تسود قانون العقوبات . هنالك شذوذ جنسي يقاسي منه الرجال الحصر ، مع العلم انه من وجهة النظر المعقولة فان سلوكهم فقط يهم انفسهم . وأي اجراء اقصاصهم يكون في تجربة ، ويجب أن يرتكز على ما حل بقوم لوط ، عندما يكون فقط بامكان سلوكهم أن يعمل اي اختلاف عن المجتمع . انها الحقيقة الهامة في ان الاشياء التي تمانع الالهة فيها تكون أشياء نادرة ، وتسبب الكثير من الضرر إذا لم يثر غضب السموات . انهم يمنعون الشخص من أكل لحم الخنزير أو لحم البقر او زواج شقيقة زوجة متوفاة . في عهد الملك دواد مانع الاله في احصاء ، وذبح الكثير منهم بواسطة وباء ، حيث ان احصائيات الملك داود قدمت بدون قيمة . ان آلهة الازتيكس Aztecs اصروا على تضحيات البشر وأكل لحومهم قبل أن يظهروا ميلاً لعبادهم . ومهما يكن ، فان النظام الاخلاقي الناجم عن الاديان كان غريباً . ويجب الاعتراف ان الدين هو الذي اعطاهم السمو . فاذا كانت أي اخلاق احسن من لا شيء ، فالدين كان اذا قوة للخير .

في حين ان الدين قد بوشر كعمل للعشيرة ، فان تطوره الباكر كان له ايضاً شأن افرادي خالص . ومنذ حوالي القرن السادس عشر قبل

الميلاد ، باشرت حركات الانفصال الواسعة في العـــالم القديم ، واعتبرت نفسها مع الروح الافرادية ما يسميه المسيحي الحماية . فان الطاوية Taoism في الصين ، والبوذية في الهند ، والديانـــة الاورفيه Orphic في اليونان ، والانبياء العبرانيين جميعاً ، كانت عندهم هذه الطباع : انبثقت من ادراك ان الحياة الطبيعية مليئة بالأحزان . ومن اجل البحث عن طريق للحياة ، يجب أن يمكن الناس من تجنب سوء الطالع ، او على اقل تعديل تحمله . وليس بوقت طويل فيما بعد حـين دشن بارمينيدس Parmenides التقاليد العظيمة للفلسفة الدينية بواسطة تعاليمه عن عـدم حقيقة الزمن ووحدة جميع الاشياء . ومنه انحدر افلاطون وبلوتينوس Plotinus ، آباء سبينوزا ، وهيجل ، وبرغسون ، وجميع الفلاسفة الروحيين . ومن الانبياء العبرانيين انحدر نوع الدين الذي يهتم اقل بالحقائق عما بالعدالة ، وهذا النوع سائد في البروتستانتية . وفي كل شكل من المسيحية ، هناك كل من عناصر الاخلاق والميتافيزيق ، نظراً لكون المسيحية نبعت من تبشير مختلط من الدين اليهودي Judaism والهلينية Hellenism . ولكن على وجه العموم ، بما ان المسيحية انتقلت باتجاه الغرب ، اصبحت اقـل ميتافيزيقية وأكثر أخلاقية . فالإسلام عدا ما في ايران ، كان عنده دائماً عنصر طفيف من الميتافيزيقية ، بينما الأديان التي انبعثت من الهند كانت بصورة عامة فلسفية .

ومنذ ظهور دين الفرد ، والمبادىء الشخصية والاجتماعية في الحيـــاة الدينية كانت في حالة حرب مـــع بعضها الآخر . فان الاسس الشرعية كانت بصورة مستمرة الأقوى سياسياً ، منذ انهـا كانت تدعم من قبل الكهنة كفريضة وتقليد ، كما هو الحـال في الحكومة والقانون . إن الدين الشخصي هو شأن خاص ، ليس بـأي شكل يهم المجتمع . ولكن الدين

الشرعي هو شأن ذو اهمية سياسية عظيمة . فحيثما سيكون الدين الشرعي سارياً ، فان الملكية تكون مرتبطة بــه . والانسان بامكانه تأمين العيش بواسطة الدفاع عن معتنقيها ، ولكن ليس (او ليس سهلاً لدرجة) بواسطة معاكستها . والى الحــــد الذي يتعلق بالتربية ، وتكون متأثرة بالدين ، فانها تكون متأثرة ايضاً بواسطة الدين الشرعي الذي يشرف على المؤسسات القديمة ، وفي كثير من البلاد يشرف على الدولة . وحالياً في اغلب بــلاد غربي اوروبا ، يسيطر الدين على تربية الاغنياء ، بينما له اقل سيطرة على تربية الفقراء . ان هذا لبعض المدى طارىء سياسي حيث لا دين واحد يكون قوياً كفاية ليفرض نفسه على الدولة . فـــان مدارس الدولة لا تستطيع أن تعلم نظريات مذهب خــاص ، ولكن المدارس المدعومة من رسوم الطلاب ، بامكانها أن تعلم ما يفتكر الآباء انه يستحق الدفع من اجله . وفي انكلترا وفرنسا ، نتيجة لهذا الوضع ، فان الاغنياء متدينون على نطاق واسع ، اكثر من سكان المــدن الفقراء . وعندما اقول انهم « متدينون » فانني استعمل الكلمة في ادراك سياسي . ولا اعــــني انهم ورعون ، ولا حتى ضروري انهــم يقدمون موافقة للعقيدة المسيحية . ولكن فقط على انهــم يدعمون الكنيسة ويصوتون معها في الشؤون التشريعية ، ويرغبون ان يكون اطفالهم تحت رعاية اولئك الذين يقبلون تعاليمها . ومن اجل هذا السبب لا تزال الكنيسة هامة .

فيما بين ذوي الافكار التحررية ، يقابل الشخص ليس بصورة مستمرة الرأي ، على ان الكنيسة قد توقفت لتكون عاملاً له وزنه في حيــاة المجتمع . وهذا عندي خطأ بالغ . إن قانون الزواج والطلاق في حين انه ليس تماماً ما يرغبه اغلب المتعبدين ، يحتفظ بالجنون والضرر – مثل رفض

الطلاق لأجل الوباء – والذي لا يقـــدر ان يبقى اسبوعـاً لأجل نفوذ الكنائس المسيحيـة . ان خصوم المسيحية الظاهرين ماهرون في طرق عديدة بالمنافسة مع اولئك الذين أكثر تعبداً او أكثر حكمة . فعملياً العديد من المراكز ليست مفتوحة للاعلان عن الالحاد ، والذين يتطلبون أكفاء أكثر للتوصل الى نجاح عما يكون مطلوباً من قبل الارثوذكس .

إنها في التربية أكثر مما في اي مكان آخر ، حيث إن الدين الشرعي يكون هاماً في الوقت الحاضر . ففي انكلترا جميع المدارس العامة وعلى الغالب المدارس الاعدادية تكون انجيلية او رومانية كاثوليكية . يقـال بعض المرات ، من قبل الأباء المفكرين الأحرار الذين يرسلون أطفـالهم لمثل هذه المدارس ، إن أغلب الناس يعملون ضد تربيتهم ، وإنهـــا تعلم كذلك الكذب للصغار نظراً الى أنهم بعد أن يكونوا قـــد تفاعلوا ، بإمكانهم أن يصدقوا ما هو حقيقة . إن هذا الجدال مجرد عذر من أجل الجبن الاصطلاحي ، حيث إن استمراض لحظة يظهر ليكون احصائياً غير معقول . والغالبية الكبرى من الراشدين يعتقدون من خلال الحيـاة ، أغلب ما تعلموه في شبابهم . وتبقى البلاد لعصور مهما كانت ، بروتستانت ، كاثوليك ، ومحمدية ، وفي النهاية إذا كان إيمـــان التفاعل حقيقة ، فإنه يتوجب عليهم أن يغيروا دينهم في كل جيل . إن الرجال العديدين الذين يقدمون مثل هذا الجدال من أجل أن يعلم أطفالهم الاستقامة ، يظهرون بواسطة قيادتهم ، كم كان قليلا تفاعلهم ، فاذا كنت تعتقد شخصياً أن إثنين وإثنين تكون أربعة ، ولكن تتجنب ادعاء هـذا الرأي والتمسك به صواب ، في حين أن الأموال العامة يجب أن تصرف في تعليم أطفالك وأطفال الآخرين على أن إثنين وإثنين تكون خمسة . فإن رأيك للمؤتمر ،

من وجهة النظر الاجتماعيـة ، على أن إثنين وإثنين تكون خمسة ، وأن اعتقادك الشخصي الخاص يصبح غير هام . وهكذا اولئك الذين بينما هم أنفسهم ليسوا متدينين ، يعتقدون أن التربية الدينية تكون مرغوبـة ، وبذلك لم يعملوا في أي أسلوب فعـال ضـد تربيتهم الدينية مهما يمكن أن يحتجوا بالنقيض .

الكثير من اولئك الذين لا يقدمون اي موافقة تبصرية لمعتقـدات الدين ، يتمسكون أن الدين مهما يكن هو غير ضار ، وربما مفيد . ففي هذا الحد أجد نفسي على رأي واحد مع الارثوذكس ، وكمعارض لمـا يسميه المفكرون « الأحرار » : انها تظهر لي أن القضية سواء كان هناك إله ، وسواء سنستمر بعد الموت ، يكون من المهم التفكير بصواب بقدر الإمكان في هذه الأمور . ليس بإمكاني أخـذ وجهة نظر السياسي التي حتى إذا لم يكن هناك إله ، فانه من المرغوب أن يفكر أغلب الناس أن هناك إله ، منذ كان الاعتقاد يشجع على سلوك الفضيلة . وحيث يكون الاطفال معنيين ، يختار العديد من المفكرين الأحرار هذه الصفة وهي : كيف بإمكاننا أن نعلم الأطفال ليكونوا جيـدين . إنهم يسألون إذا لم تعلم الديانة ؟ فكيف بإمكاننا تعليمهم ليكونوا جيدين . إني أجيب ، إذا كذبت كعادة او بحرية عليهم في موضوع ذي أهميـة عظيمة . كيف بإمكان اي قيادة مهما كانت واقعياً مرغوبة ، ان تحتاج الى أي اعتقاد كاذب ؟ فاذا لم يكن هناك أي جدال مستمر لمـا تعتبره سلوكاً « جيداً » فان نظريتك عن الجودة يجب أن تكون على خطأ . وفي أي حال ، فانهـا سلطة الأبوة أكثر من الدين التي تؤثر على الأطفال . ومـا يفعله الدين بصورة عامة هو ليعطيهم شعوراً معيناً ليس دائماً مرتبطاً مع الأفعال ،

ولا غالباً مرغوباً جداً . وما لا شك فيه يكون لهذا الشعور بصورة غير مباشرة على السلوك ، في حين لا يرغب ، كما يعترف المربون الدينيون ، بأي وسيلة مثل هذه التأثيرات . وهذا الموضوع سأعود اليه فيما بعد .

إن التأثيرات السيئة للتربية الدينية تعتمد جزئياً على التعاليم الخاصة التي تعلم ، وجزئياً على مجرد الاصرار ان مختلف المقترحات المشكوك فيها تعرف لتكون صحيحة . سواء هذه المقترحات تكون في الواقع صحيحة أو لا يحتمل ان تكون غير مكتشفة ، لكن في المحاولة لجعل الأحداث تعتبر أكيدة ، فإن أساتذة الدين يعرفون ما هو الكذب سواء كان صحيحاً في الواقع أم لا . إن المقترحات المعينة تكون بصراحة غير أكيدة . خذ على سبيل المثال ، الحياة المقبلة . ففي هذا الشأن يعترف الرجال الحكماء بجهلهم : الإثبات ليس كافياً ، والشك في الحكم هو الصفة الوحيدة المعقولة . ولكن الدين المسيحي قد أعلن في صالح حياة المستقبل ، والأحداث الذين ينمون تحت تأثيره يتعلمون اعتبار البقاء بعد الموت تعييناً . « ماذا يعني الكون ؟ » إن القارىء يقول : « الاعتقاد مريح ، وليس بمقدوره أن يعمل أي ضرر » ، إنني أود ان اجيب انها تعمل ضرراً في الطرق التالية :

أولاً – إن أي طفل ذكي بصورة خاصة ، يكتشف بواسطة التأملات ، أن الجدال من اجل الشر يكون غير شامل ، وسوف لا يشجع من قبل أساتذته ، ولربما حتى يعاقب ، وأن الاطفال الآخرين الذين يظهرون أي ميل ليفكروا على غراره سوف لا يشجعون على التحدث على مثل هذه المستويات ، واذا أمكن يُمنعون من مطالعة كتب يمكن ان تزيد معرفتهم وقوة حجتهم .

ثانياً – طالما أن الناس الذين ذكاؤهم فوق المعدل بكثير ، مشككون في هذه الأيام علناً او سراً . فالأساتذة في المدارس التي تصر على الدين ، يجب ان يكونوا سواء بلهاء او مغرورين ، ما لم يكونوا ينتمون لتلك الفئـة الضئيلة من الناس ، والذين نظراً لبعض الغرائب ، عندهم مقدرة إدراكية بدون الحكم الإدراكي . فما يحدث عمليـــاً هو ان الناس الذين يميلون لاختيار مهنة التدريس ، باشروا في عمر باكر ، في قفـل عقولهم ضد الأفكار الخطيرة ، وأصبحوا جبناء عاديين ، أولاً في اللاهوتية ، وحينذاك في التبدل الطبيعي ، وفي شيء آخر . مثل الثعلب الذي أضاع ذنبـه ، انهم يقولون للتلميذ ، انه جيد أن يكون جباناً تقليدياً ، بعد ان يكونوا قد عملوا هذا لفترة كافية من الزمن ، فان موهبتهم تكون معروفة من قبل السلطات ويرفعون الى مراكز السلطة . ان نوع الرجل الذي بامكانه الاحتفاظ بوظيفته كمدرس ويعمل بنجـاح في مهنته ، يكون هكذا على نطاق واسع مقرراً من قبل اللاهوتيين أو الاختبارات الاخرى، وبصورة قاطعة او غير قاطعة ، يحدد اختيار الاساتذة ، ويستثنى من مهنة التدريس أغلب الذين يكونون الأحسن ملاءمة لتطوير الأحداث من الطرفـــين إدراكياً وعقلياً .

ثالثاً – انه من غير الممكن تنمية الروح العلمية في الأحداث طالما أن اي افتراضات تكون معتبرة كمقدسة وليست مفتوحـــة للسؤال . ومن خلاصة الصفات العلمية انها تتطلب إثباتاً لما يعتقد به ، ويتبع الإثبات بدون أي اعتبار للاتجاه الذي توصل اليه . فحالمـا تكون هناك عقيدة لتدار ، فانه من الضروري إحاطتهـــا بالشمور والمحرمات . وأن تقول بعبارات لها صداها بلهجة شجاعة يحتويها الصدق « العظيم » ، وأن تضع

احكام الصدق علاوة على تلك التي تخص العلم ، واكثر خاصة شعور القلب والتأكيدات السلوكية للناس « الطيبين » . ففي الأيام العظيمة للدين، عندما اعتقد الناس ، كما فعل توما الأكويني ، في أن السبب المحض بامكانه ان يظهر الافتراضات الأساسية للديانة المسيحية . فالايمان كان غير ضروري في « خلاصة » القديس توما St. Tomas' s. Summa ، انهـا باردة ومعقولة كديفيد هيوم . ولكن تلك الايام مضت ، والايمان الحديث يسمح لنفسه استعمال كلمات مشحونة بالشعور كي تنتج في مطالعها وضعاً فكرياً به الاقناع المعقول لأي جدال سوف لا يكون متفحصاً بدقة شديدة أن فرض الشعور والايمان يكونان دائماً إشارة الى الحالة السيئة . تصور أساليب المدافعين عن الدين المنطبقة في افتراض ان ٢ + ٢ = ٤ . النتيجة ستكون شيئاً كما يلي : (ان هذه الحقيقة معترف بها على التساوي من قبل رجل الأعمال المنهمك في مكتبه ، وبرجل الدولة المنهمك في حسابات الضرائب القومية ، ومن قبل كاتب دائرة التسجيل في جهوده لتلبية طلبات ما يعرف بساعات الازدحام ، ومن قبل الطفل البريء ، يشتري الألعاب ليسر شقيقه الطفل ، ومن رجل الأسكيمو المتواضع يعد صيده من السمك على الشواطيء المتجمدة للقطب الشمالي . هل بامكان توافق كبير ان ينتج بواسطة اي شيء خلاف الاعتراف الانساني العميق للحاجات الروحية الملحة ؟ هل نصغي الى المشككين الحاسدين ، والذين سوف يجردوننا الميراث اللامع للحكمة ، التي انحدرت لنا من أزمنة أقل من ان تمس بالتحديد ما لعصرنا عصر الجاز ؟ كلا ، ألف مرة كلا » . ولكن يمكن ان يشك فيها سواء تعلم الاولاد الحساب أحسن بهذا الأسلوب اكثر مما بواسطة ذاك السائد حالياً .

لمثل هذه الاسباب التي كنا نبحثها ، فان أية عقيدة لا تأثير لها على ما هو محتمل ان يكون ضاراً في التربية ، عندما تكون معتبرة معفاة من التدقيق الادراكي الذي يكون عرضة لهـا اعتقادنا العلمي . هناك ، مهما كان ، موانع خاصة مختلفة لنوع الارشادات الدينية ، التي في البلاد المسيحية تكون نسبة كبيرة من الاطفال عرضة لها .

ففي المكان الاول ، الدين قوة محافظة ، تحتفظ بكثير مما كان سيئاً في الماضي . وقد قدم الرومانيون تضحيات بشرية للآلهة قديماً منذ الحرب البونية الثانية ، ولكن علاوة على الدين فانهم لم يكونوا قـد فعلوا اي شيء بربري هكذا . ونفس الشيء في يومنا الحاضر ، فالبشر يعملون اشياء عن شعور ديني ، وهي منفصلة عن الدين ، انهـا تظهر بصورة لا تطاق صارمة .

ان الكنيسة الرومانية الكاثوليكية لا تزال تعتقد بجهنم . والكنيسة الانجيلية ، نتيجة لقرار الاعضاء في المجلس الخاص ضد معارضة رئيس كهنة كنتربري ويورك ، لا تعتبرها مثل de fide .

ومهما يكن ، فان اغلب الكهنة الانجيليين لا يزالون يعتقدون بجهنم . وجميع الذين يعتقدون بجهنم يجب ان يعتبروا العقاب الانتقامي جائزاً ، ولذا يكون عندهم انصاف خيالي للأساليب الجائزة في التربيـة ومعاملة المجرمين .

ان الاغلبية الكبرى من رؤساء الدين يساندون الحرب عندما تحدث ، في حين انهم في حالة السلم يكونون غالباً مصلحين [1] . ففي مساندة

(١) في هذا الموضوع ، طالع الشاهد في جود ، تحت الاسناد الخامس ، صفحة ٦٩ .

الحرب ، يمنحون صلاحيات مطلقة لإدانتهم . ان الله بجانبهم ، يقدم المساندة الدينية لقصاص الناس الذين يفكرون ان المجازر العامة غير حكيمة . بينا العبودية قائمة ، فان الجدال الديني أوجد لمساندتها . ففي وقتنا الحاضر ، أوجد جدالاً مماثلاً في مساندة استغلال الرأسمالية . وغالباً جميع تقاليد الظلم وعدم العدالة تكون مدعومة من قِبل دين منظم الى ان ترغم الحاسة الاخلاقية للمجتمع على تغيير الجبهة .

وفي المكان الثاني ، فان الدين المسيحي يقدم الراحة لأولئك الذين يتقبلونها ، والتي يكون مؤلماً الحصول عليها وتحملها عندما يضمحل الايمان . الايمان بالله وحياة المستقبل تجعلها ممكنة لتمر عبر الحياة بأقل من الشجاعة الهادئة عما هو متطلب من قِبل المشككين . وعدد ضخم من حديثي السن يفقد الايمان في هذه الاعتقادات ، وفي عمر حيث يكون اليأس سهلاً . وهكذا علينا ان نجابه تعاسة متزايدة عن تلك التي حلت لعدد من اولئك الذين لم يكن عندهم تهذيب ديني . تقدم المسيحية مبررات لعدم الخوف من الموت او الكون ، وفي عملها هذا اثبتت فشلها في تعليم كفاية فضيلة الشجاعة .

ان الشوق للايمان الديني كان بصورة كبيرة حصيلة الخوف ، فان المحتاجين للايمان يميلون للتفكير ان انواعاً معينة من الخوف لن تكون محتجاً عليها . وهم مخطئون ، برأيي ، في السماح لنفس ما ان ترحب باعتقادات غير سارة كوسائل لتجنب الخوف ، وليس للعيش في اسلوب أحسن . ولحد ما ، الدين يجعلها تستأنف الخوف ، وتحط من كرامة البشر .

في المكان الثالث ، لما يؤخذ الدين بجد فهو يشمل استعراض هـذا العالم كشيء غير هام بالمقارنة مع التالي ، الذي يقود الى المساندة العامة للتجارب التي سببت باقي التعاسة هنـا على الارض . وإنهـا ستقود الى السعادة في السموات .

ان المخطط الرئيسي لوجهـة النظر هـذه هو شؤون الجنس ، الـتي سوف أبحثها في الفصل التالي . ولكن هناك بدون شك في الذين يتقبلون التعاليم المسيحية بواقعية وتعمق ، ميل لخفض مثل هـذه الشرور كالفقر والمرض على الارض ، انهم ينتمون فقط الى هذه الحياة الارضية . وهذه التعاليم تقع في ملاءمة تامة مع مصالح الاغنياء ، وربمـا يكون احـد الاسباب في ان اغلب القادة البلوتقراطيين هم متدينون بعمق . فـاذا كانت هناك حياة مقبلة ، وكانت السماء مكافأة للمآسي هنا على الارض ، فاننـا نفعل صواباً لتأخير تحسن الاحوال الارضية . ويجب ان نعجب بعدم اثانيـة رؤساء الصناعـة الذين يسمحون للآخرين بحصر الاحزان المفيدة المختصرة على الارض . ولكن اذا كان الاعتقاد فيما بعد خاطئاً ، فعلينـا ان نتخلص من المـادية للظل ، وسوف نكون تعساء كأولئك الذين يطورون فترة حياتهم للتوفير في المؤسسات التي تعلن افلاسها .

أما المكان الرابع ، فهو تأثير تعاليم الدين على الخلق وجعله سيئاً في سبل مختلفة . انه يميل لتنمية الاعتماد على النفس ، خاصة عندمـا تكون متحـدة مع الاعتراف بواسطة تعليم الأحـداث الاتكال على السلطة ، وغالباً تجعلهم غير قادرين على توجيه أنفسهم . لقد عرفت أناساً تلقوا ثقافتهم كالرومانيين الكاثوليك ، عندما يفقدون إيمانهم يسلكون طرقـاً يجب أن تعتبر مؤسفة . بعضهم سوف يقول إن مثل هؤلاء الناس أظهروا

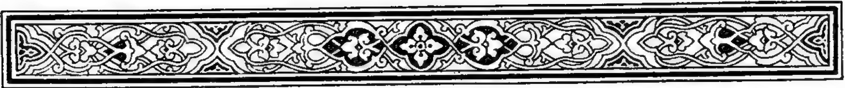
وحدة الخلق الديني ، ولكن عليّ أن أقول العكس تماماً ، طالما إن ضعف العزيمة التي أظهروها ، تكون نتيجة مباشرة لتربيتهم . وعلاوة على ذلك عندما يقدم الدين كالمبرر الوحيد للخلق ، فان الشخص الذي يتوقف عن الاعتقاد في الدين ، من المحتمل أن يتوقف عن الاعتقاد في الخلق . إن بطل صموئيل بطلر في طريق كل اللذة اغتصب الخادمات ، حالما زالت مسيحيته . وهناك الكثير لاسباب الأصوات في عدم اغتصاب الخادمات ولكن الشاب صاحب الملاقة لم يكن قد تعلم أياً منها . لقد تعلم فقط أن مثل هذه الأفعال هي غير سارة للإله . ونظراً لحقيقة أن ضياع الإيمان في يومنا هذا هو ظاهرة محتملة تماماً ، فانه من السفاهة تركيز جميع الأخلاق حتى أقل مما هو ضروري جداً على أسس محتملة هكذا في إفساح الطريق .

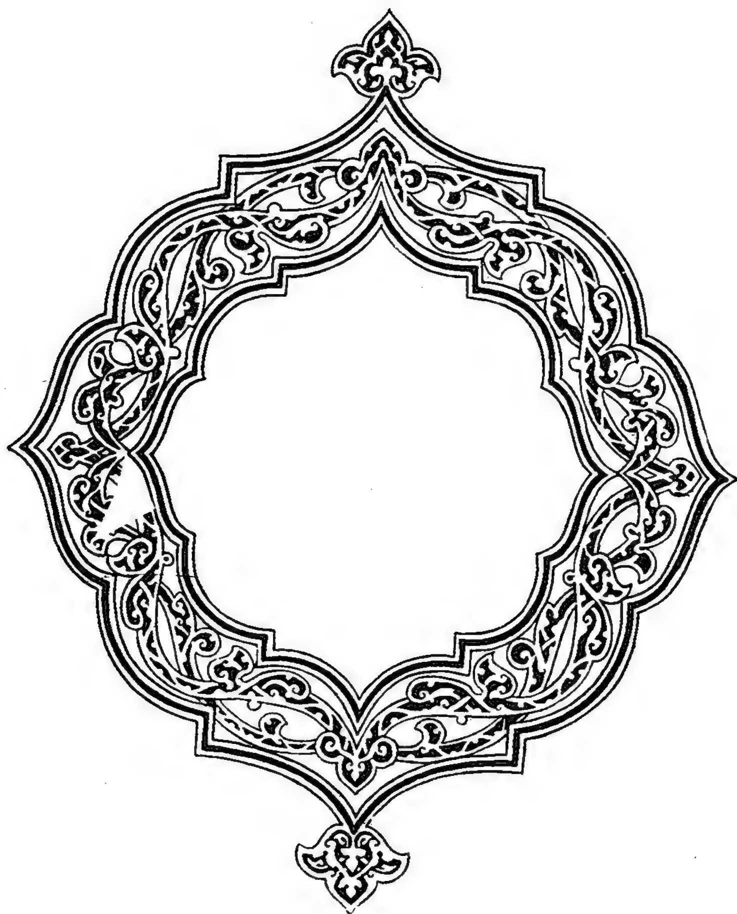
هناك وجهة نظر اخرى غير مرغوبة للتربية الدينية ، وهي أنها تخفض تقدير الفضائل الإدراكية . إن الإنصاف الإدراكي عنصر هام جداً ، ويعتبر بالتأكيد سيئاً في المحاولات المستمرة لإدراك الشؤون الصعبة التي تستعرضها . ان الأفراد الذين نتمسك بهم بإعجاب في يومنا الحاضر هم أشخاص نادرون من الدرجة الأولى بالذكاء . وعندما يكونون ، فانه بسبب بعض الجنون الذي منحوه تعبيراً في لحظة جنونية . ونظراً لتعريف الدين مع الفضيلة في حقيقة أن أغلب الرجال المتدينين ليسوا الأغلب ذكاء ، فان التربية الدينية تمنح شجاعة للأبله ليقاوم سلطة الرجال المتعلمين كما حدث على سبيل المثال ، حيث جعل تعليم التطور غير شرعي . وبقدر ما بإمكاني أن أذكر ليست هناك كلمة واحدة في الكتب السماوية في مدح الذكاء ، وفي هذا الصدد يتبع رؤساء الدين تعاليم الكتب السماوية أكثر مما ورد

في سواها. وهذا يجب أن يعتبر كمطب خطير في الأخلاق التي تدرس في المعاهد المسيحية التربوية.

إن المطل الأساسي في السلوك المسيحي يحتوي على واقع انه يصنف درجات معينة من أفعال الخطايا والفضائل الأخرى، بداعي انـه ليس لها اي شيء لتعمله بنتائجها الاجتماعية. والسلوك غير المستحصل عليـه من الوهم يجب أن يقرر أولاً على نوع التأثيرات الاجتماعية، التي ترغب في الحصول عليها والأنواع التي ترغب تجنبها. فعليها اذاً أن تقرر بقدر ما تسمح به معرفتنا ما هي الأفعال التي سوف تنمي النتائج المرغوبة. وهذه الأفعال سوف تمتدح، في حين أن أولئك الذين عندهم ميل مماكس سوف تدينهم. إن علم الاخلاق البدائي لا يسير في هذا الطريق. فانهم يختارون أساليب معينة للسلوك من أجل الانتقاد لأسباب تكون قـد فقدت في تخلف تطور السلالة. وعلى الاجمال فيما بين الأمم النـاجحة، فان الفصول المدنية تظهر لتكون ضارة، وفصول المديح لتكون مفيدة. ولكن هذا ليس هو الحال فيما يخص كل تفصيل. هنـاك أولئك الذين يتمسكون في أساس الحيوانات كانت أليفة لأسباب دينيـة، وليس من الوحدة، ولكن العشائر التي حاولت تدجين التمساح او الاسد أبيدت. بينما اولئك الذين اختاروا الاغنام والابقار ازدهروا. ونفس الشيء حيث تنـــازعت عشائر بسلوك مختلف، وأولئك الذين شريعتهم استوعبت اخيراً، من المحتمل ان يتوقع منهم ليكونوا منتصرين. ولكن ليس هناك شريعة من أصل خيالي بإمكانها ان تفشل لتحتوي على الجنون. مثل هذا الجنون يوجد في الشريعة المسيحية، في حين انه اقل حاليـاً عما كان سابقاً. إن تحريم العمل نهار الأحد بالامكان الدفاع عنه بتعقل،

ولكن تحريم اللعب والملذات لا يمكن ذلك . وتحريم السرقة يكون على وجه العموم سليماً ، ولكن ليس عندما يطبق كما كان بواسطة الكنائس في المانيا في الحرب الماضية ، لمنع الحيازة العامة لملكية الامراء المبعدين .
إن الأصل الخرافي للأحكام المسيحية هو واضح جداً في قضية الجنس ، ولكن هذا موضوع كبير لدرجة ، انه يتطلب فصلاً منفرداً .





٩

الجنس في التربية

إن الآراء التي يهتم بها الراشدون المتحضرون في موضوع خلق الجنس ليست بصورة غير مستمرة مختلفة تماماً عن تلك التي يرغبون في تعليمها لأطفالهم . هناك نظام خلقي تقليدي لا يزال مقبولاً بكل اخلاص من قبل فئة من السكان ، ولكنه مقبول من قِبل الآخرين اسمياً فقط وكقضية احترام . وعلى العموم ، فان اولئك الذين تكون آراؤهم في قضية الجنس تقليدية ، عندهم ثقة في الإعلان والوعظ لتعاليمهم ، اكثر من اولئك الذين يستعرضون النظام التقليدي بشك . وأولئك الذين يكونون مستعدين في سلوكهم وعن رأيهم في السلوك الخاص لأصدقائهم ليكونوا إباحيين ، تكون نادراً واضحة تماماً لما قد يكون مستواهم ، ولا تزال نادراً اكثر ليرغبوا في التعبير علناً عدم الموافقة بالنسبة للنظام السائد . وعلاوة على ذلك فإنهم يميلون الى التفكير في أن قوة العواطف الجنسية تكون مؤكدة

لتقود الرجال والنساء الى أفعال منافية لأي نظام يمكن أن يتمسكوا به . وأن الدرجة الصحيحة للحرية في الأفعال تكون محتملة جداً ومصونة ، عندما تكون النظرية اكثر صرامة من الاعتبار الشديد لأجل من يتطلبه الصدق .

فالشخص الذي يفكر أنه ليس بأي حـــال ، ومهما كان الاتصال الجنسي ، خارج الزواج منصفاً ، يمكن ان يحصل تحت تأثير الحب العميق ليشعر انه في هذه الحالة الخاصة ، تكون الظروف غريبة لدرجة كي تسمح لتراخي النظام . ان الشخص الذي يفكر ان الحب العظيم ينصف العلاقات خارج الزواج يميل للافتراض أن تخيلاً عابراً ، يكون حباً عظيما. والانسان الذي يفكر ان التخيلات العابرة شرعية ، شريطة ان تكون مشتركة وليست مأجورة ، من المحتمل انه يحاول ان ينسى الاشتراكية ، ويقدم الاعتبارات المأجورة سراً . ففي مثل هذه الطرق ، يميل أغلب الناس لحرية اعظم في الافعال بدل النظريات . ولذا ففي بحث اي نوع من حرية الجنس ، فانها دائماً ضرورية لتذكر ان الحرية التي سوف تؤخذ ، من المحتمل ان تفوق ما يبحث .

ومهما كانت وجهة النظر التي من المحتمل ان تؤخذ فـــيما يتعلق بالسلوك الجنسي الصحيح للراشدين .

هناك عدد من المسائل تتعلق بالتربية الجنسية للأطفال ، والتي بالامكان اعتبارها بدواعي العقل والادراك وبدون إثارة اي مخارج اساسية . انها العادة في ترك التربية في أيدي اشخاص جهلاء لدرجة ، متصلبين ومحدودي التفكير . ان اطفال الاغنياء يتركون في سنواتهم الاولى على نطاق واسع

في ايدي الممرضات ، اللواتي يكن عادة عازبات ، وغالباً معتدلات . فعندما يصبحون فيما بعد تحت رعاية نساء اكثر ثقافة ، فان هؤلاء النساء لا يزلن كقاعدة عازبات ، ومن المتوقع ان يكون عليهم ان يصبحوا من ذوي السلوك الاخلاقي المستقيم . وهــذا يعني انهم جبناء وخائفون من الحقيقة . وتعني ايضاً ان آراءهم عن الجنس تكون عنيفة ، ولكن بدون معرفة . ان اساتذة المدارس بينما هم بدون حاجة ان يكونوا عازبين ، يتوقع ان يكون عندهم سلوك عال . وهكذا تقرر مسائل عملية بأحكام تقليدية اكثر مما يكون بواسطة السيكولوجية العلمية ، وان أغلبهم سوف يفكرون بعقلية الاطفـال في ان الجنس موضوع قذر يتعلق فيما يكون أحسن ليبقى جاهلاً . ومن النتــائج الضارة لجهلهم انهم يبقون برحمة غير مدركين .

ان اغلب الاطفال في سن السنتين ، يكونون قد تعلموا ان يعتبروا اعضاءهم الجنسية وَهم ، كما في بعض الطرق السرية المزعجة التي تتطلب ان تعامل في طريقة خاصة تماماً . انهم يذكرون حاجاتهم الطبيعية بهمس او بواسطة الإيماء ، واذا شوهدوا يلمسون تلك الاعضاء لحيويتهم ، والتي تعتبرها المربيات لا تمس ، فأنهم يوبخون بعنف .

لقد عرفت رجالاً ونساء رأتهم امهاتهم متصلبين عندما كانوا اطفالاً صغاراً ، وأخبروهم انهم يفضلون ان يروهم امواتــاً (هذا ليس بأي وسيلة غير مألوف) . انني آسف للقول انهم لم يظهروا مخططــات الفضيلة السائدة .

ان العــادة السرية عالمية تقريباً فيما بين الاولاد حديثي السن وتقابل بتهديد خطير . ففي المانيا كما يتعلم المرء من فرويد ، يخبر الاولاد ان

طائراً غريباً سوف يأتي ليمزقهم ، واذا رأوا بأي صدفة فتاة عارية فانهم من المحتمل ان يفكروا انها واحدة من التي حدث لها هذا . ان حقائق من هذا النوع معروفة جيداً لقراء التحليل النفسي ، ولكنها غير شرعية لمثل هذه الآداب لتقرأ ، ومن المحتمل ان تعمل ضرراً نظراً لعدم قراءتها .

ان الاضطراب العصبي في الحياة المتأخرة هو بصورة مستمرة عائد للتهديد ، كما لنتائج العادة السرية ، التي بها يكون الأحداث مذعورين . يجب ان يخبر الاولاد اثناء حياتهم المدرسية بواسطة اساتذة المدرسة ان العادة السرية توصل الى الجنون ، ولكن العادة السرية بحد ذاتها طالما انها كلياً مهملة من قِبل الراشدين ، تعمل ضرراً قليلاً جداً ، خاصة في عهد الطفولة .

إن السرية بالنسبة لأسلوب كيف يأتي الاطفال للعالم لها الكثير من التأثيرات السيئة . ففي المكان الاول ، تشمل الاعتقاد أن بعض المعرفة يكون سيئاً ، وبصورة خاصة اكثر ، تلك المعرفة الهامة تكون ضارة . وعليها أن تكون احدى القواعد الأساسية لأي نظرية سليمة في أن جميع المعرفة تكون جيدة ، وانه لهذا لا يوجد أي استثناء ، ما كان بالامكان الاعتراف به . ان الطفل الذي يجد غريزته الطبيعية في اتجاهات معينة ، تقابل بالتقطيب والمباغتة يتعلم ليفترض أن المعرفة تكون جيدة عندما تكون غير هامة ، وسيئة عندما تكون هامة . ففي هذا الأسلوب تصبح الغرائز العلمية معاكسة للفضيلة ، وجهود الطفل لتكون جيدة تصبح جهوداً لتكون بلهاء ، وغالباً جداً يكون النجاح مأسوفاً عليه . من أجل البنات ، سيكون سيئاً جداً أن يتركوا في جهل لحقائق الحمل . والبنات

يميلون ليشعروا بأنفسهم دون الأولاد ، ويرغبون لو أنهم كانوا أولاداً . وطالما انهم لا يعرفون شيئاً عن الحمل ، فانه يظهر لهم كأن الرجـال أفضل من النساء على الغالب في كل شيء . لقد رأيت بناتاً يحصلن على احترام جديد لجنسهن في اقتناع جديد لكونهن بناتاً ، حالما يصبحن يعرفن الدور الذي تلعبه النساء في إنجاب الاطفال . ولكن اذا أُخبر الاطفال عن دور الأم بدون أن يخبروا عن دور الأب ، يكون هنـاك عدم انصاف لانطباعات الاولاد ، ولذلك يشملهم سكوت تام تجاه البنات . وعلاوة على ذلك ، يكون الاطفـال الشغوفون بآبائهم مسرورين في ان يعرفوا ان لهم علاقـة جسدية معهم وللبنات كذلك لإدراك دور الأم في الحمل .

هناك تأثير سيء لسياسة السكوت عن حقائق الجنس ، وتسبب للأطفال معرفة ان والديهم يكذبون عليهم . ان الاطفـال عامة يجدون الحقيقة بسرعة اكثر مما يفترض الآباء ، وبعد أن يكتشفوها ، فإنهم ليس بصورة غير مستمرة يتابعون طرح الأسئلة على آبائهم ، وتسجيل الأجوبة غـير الصحيحة مع انتقادات شابة معينة . إن الكذب على الاطفال ، في حين ان الأخلاقيين لا يفكرون هكذا ، هو عمل غير مرغوب ، وأي عـلم اخلاقي يتطلبه ، من الصعوبة ان يكون سليما .

إنه من المهم ان المعلومات عن المواضيع الجنسية يجب ان تعطى تماماً بنفس اللهجة ، ونفس الشيء في المعلومـات عن المواضيع الاخرى . وأن تعطى بنفس الحديث المباشر . هناك مدرسة معينة للأفكار تعتـبر ان الاطفال يجب ان يخبروا اولاً عن حب الأزهار ، وبعدها عن اللعب البريء للسراطين ، وفقط بعد مقدمة لعلم الحياة عن سلوك آبائهم الخاص والتي

مع هذا الوقت سوف يفكرون انهم يتطلبون اعتذاراً معقداً جداً . ان الراشدين المحرومين هم فقط الذين يشعرون ان هذه المقدمة الطويلة ضرورية . وبالنسبة للطفل ، اذا لم يكن فاسداً بواسطة اعتدال الاكبر سناً من رفاقه، فان الجنس يظهر تماماً انه موضوع طبيعي مثل اي موضوع آخر . فاذا كان الوالدان أنفسهما غير قادرين للتكلم طبيعياً في هذا الموضوع، فيجب ان يدعـا أطفالهما يتكلمون اليهم من قبل شخص آخر أقـل تمسكاً بالتقاليد والحرمان .

وقبل البلوغ ، لا توجد هناك اي صعوبة مهما كانت في جعل الطفل يبقى طبيعياً بالنسبة للجنس ، ويستعرض ذلك كما في المواضيع الاخرى . هذه الفكرة يهدف اليها عبر الحياة ، ولكن بعد البلوغ تصبح اكثر صعوبة في التوصل اليها . ولكن الصعوبة حتى بعـد البلوغ سوف تكون أقل بكثير عندما ينمون بصحة سليمة اكثر ممـا عندما تكون عقولهم قد امتلأت بالرعب والحرمان غير المعقول .

ان المعضلات التي ظهرت مع الاولاد والبنات الاكبر سناً ، يكون من الصعب معالجتها بعيداً عن النظرية الجنسية الواقعية . ووجهة النظر العادية هي ان ضبط النفس الكامل يجب ان يهدف اليه ، وليس بالآمكان ان يعمل اي ضرر . ففي انكلترا ، جميع الخـبرة الجنسية السارية تكون ممنوعة بواسطة فصل الجنس ، عدا في حالة القليل غير العادي من الشباب النشيط . هناك باستمرار ميل فيما بين الاكثر نشاطاً للاتصال الجنسي الشاذ ، وفيما بين المتعزلين للعادة السرية . الاولاد يُخبرون والكثير منهم يصدقون ان هذه الممارسة تكون شريرة وضارة . وانه عليهم ان يكونوا سريين طالما اذا اكتشفت ، فانه ينزل بهم قصاص صارم . وطبعاً الاكتشاف على

نطلق واسع يكون أمره صدفة ، ولذا فان القصاص يقع في أسلوب متقلب جائر . ولكن الخوف من القصاص وعملية الاخفاء لها اثر سيء على اولئك الذين يبقون غير مكتشفين .

ففي المدارس العامة ، هناك ميل لتضحية الذكاء في سبيل الفضيلة بواسطة حفظ الاولاد دائماً مشغولين ومتعبين جسدياً ، وذلك كي لا يكون عندهم فرصة ولا ميل للجنس . ان النظام الساري هكذا له الاضرار التالية : اولاً ، يغرس رعباً وهمياً في عقول الاولاد . ثانياً ، يسبب نسبة كبيرة من الخداع المحصور . ثالثاً ، يجعل الفكر والشعور في المواضع الجنسية مشيناً ووهمياً. رابعاً ، يسبب تشوقاً فكرياً يظهر مخطئاً ومدمراً، أو يصبح مؤذياً قذراً ، يقود لعدم تشجيع الراحة وكذلك نمو الادراك .

بالرغم من هذه الشرور للنظام الحاضر ، فانها ليست سهلة ولها نقص في التحول الكامل في جميع النظام السلوكي ، ولتخيل اي نظام متحرر من الموانع المحزنة . فمن البلوغ الى الزواج ، يكون مع اغلب الرجال في المجتمع ، امتداد معتبر من السنين . حتى تقديرها يصبح مرغوباً . وانه عليهم ان يقضوا تلك السنوات في ضبط النفس التام ، ومن المؤكد ان اغلب الرجال لن يعملوا هكذا . علاوة على ذلك ، ما دام النظام السلوكي الحاضر قائماً ، فانه بإمكانهم بصعوبة ان يشذوا عنها بدون بعض التخريب . ان قضاء وقت مع النساء العاهرات شيء سيء . اولاً : بداعي خطر الامراض . ثانياً : لأن الدعارة مهنة غير مرغوبة ، وفي اي حال ينظر الى العاهرات باحتقار . ثالثاً : اذا كانت خبرة الرجل الأولية في الجنس مأجورة وخالية من جميع الاخلاص ، فانه من المحتمل عندما يأتي للزواج ان ينظر الى زوجته ، سواء كانت داعرة او قديسة ، نظرة من المحتمل

ان لا توصله الى السعادة . ان العادة السرية بعد البلوغ ، في حين لا تسبب ضرراً بالغاً كما يتظاهر علماء الاخلاق العاديون ، فمما لا شك فيه ان لها شروراً محزنة معينة ، تظهر لتجعل الرجل منطوياً على نفسه وغير مغامر ، وبعض الاحيان تجعله غير قادر على الجماع العـــادي . ومن الممكن ان العلاقات الجنسية مع اولاد آخرين سوف لا تكون ضارة جداً اذا كانت محتملة ، ولكن لها هناك خطر متوقع في انها سوف تؤثر على نمو الحياة الجنسية فيما بعد . فاذا لم يفصل الجنسان عن بعضهما ، فمن المحتمل ان يكون هناك نسبة كبيرة من الاتصال الجنسي فيما بين البنـــات والاولاد والتي لا تؤثر بحزن في التربية . ولكن سوف تسبب حالات حمل في عمر مبكر ، وذلك يكون غير مرغوب فيه .

اني لا افكر انه في الوضع الحاضر هناك برأي المجتمع والجمهور اي حل لهذه المسألة . ولربما سيأتي وقت تصبح الاضطرابات النفسية المسببة في البلوغ بواسطة نظمنا الحاضرة تعتبر بجد حيث يسمح للاولاد والبنات بنوع من الحرية المسموح بها حالياً في « ساموا » وأجزاء اخرى مختلفة في جزر الباسفيك . فاذا جعل هذا ليكون عملياً ، فانه سيكون ضرورياً لاعطاء ارشادات في عكس الاستسلام ولإيقاف الحمل فوراً ، هـذا اذا حدث على اقل تعديل . ليس بإمكاني القول انني احبذ مثل هذا الاحتمال ، ولربما يمكن اكتشاف ان حصر النفس اثناء سني البلوغ ، سوف لا تفرض عبئاً غير محتمل اذا كان هناك امل في ان الحاجة اليه سوف تتوقف حوالي سن العشرين . ان هذا يمكن ضمانه بواسطة نظام القاضي « ليندسي » في الزواج المناسب . انني متأكد ان حياة الجامعة ستكون احسن ادراكياً وأخلاقياً اذا كان عند اغلب طلاب الجامعة زواج مؤقت بدون اطفال .

وهذا سوف يقدم حلاً للدافع الجنسي ، ليس مزعجاً ولا سرياً ، وغير مأجور ولا عرضياً . ولمثل هذه الطبيعة التي لا تحتاج ، يستهلك وقت يجب ان يخصص للعمل .

قبل بلوغ مسألة الجنس في التربية ، بالامكان معالجتها على مستوى العقل السليم بدون الحاجة الى تكوين اي حكم محدود لدرجة عن النظريات الجنسية ، لكنه من الصعب تقدير كيف يجب ان يعالج الجنس في السنوات الدراسية الاخيرة وفي الجامعة ، ما لم يكن عندنا آراء واضحة معتدلة فيما تفكر انه صادر من ثلاثة مصادر رئيسية : اولاً : الاصرار على فضيلة الزوجات التي هي ضرورية لإقامة اسرة أبوية . ثانياً : التعاليم المسيحية في ان جميع الجنس غير المتزوج هو مخطىء . ثالثاً : التعاليم الحديثة المطلقة لمساواة النساء . فمن هذه العناصر الثلاثة يكون ذاك الصادر من الاسرة الأبوية هو الاقدام . ويمكن مشاهدته في الوقت الحاضر في اليابان بدون العنصرين الآخرين . ان اليابانيين متحررون من جميع الحرمان الجنسي ، وسلوكهم الجنسي يحتوي على قليل لما هو وهمي . لا توجد هناك اية ظواهر لمساواة الجنس ، والنساء يبقين بحزم خاضعات للرجال . ان العائلة الأبوية مقامة بثبات لدرجة بالغة ومفروضة بواسطة رضوخ الزوجات اكثر من جميع تعاليم الاخلاق . والاولاد الصغار مسموح لهم بالمعرفة الجنسية والحديث الجنسي والمسرحية الجنسية لدرجة تكون مذهلة للأوروبي . إن اخلاقية البلوغ هي واحدة تنطبق فقط على النساء ، وتفرض عليهن بدون رحمة سلطة الرجال المثالية . وهذا النظام قديم ، كان تقريباً عالمياً في حضارة ما قبل المسيحية .

ان الديانة المسيحية الباكرة قدمت الاعتقاد في ان هناك شيئاً ما غير

نقي عن الجنس ، حيث انها معذورة بواسطة الحاجة لإكثار الجنس البشري . وحتى عندما تكون محصورة بالزواج ، فانها تكون نادراً هكذا مشرفة كالاعتدال . انني لا اعني القول ان مثل هذا الشعور لم يكن قائماً قبل بعث المسيحية : هناك بعض العناصر في الطبيعة البشرية تجعل الرجال عرضة لشعور معاد للجنس ، ولقد كانت تماماً لتلك العناصر السائدة ، والتي استأنفتها المسيحية . وقد كان عند اليهود حرمان جنسي قوي ، ولكن لم يكن عندهم اي شعور كهذا لعدم طهارة الجنس ، في حين ان آثار نهوض هذا الشعور قد وجد في الاسفار المحذوفة .

كانت العقيدة المسيحية لأول مرة في التاريخ معادلة نظرياً فيما بين الرجال والنساء ، مع العلم انه عملياً تبتعد عن الفضيلة ، ومعتبرة اكثر تساهلاً في قضية الرجال عما في قضية النساء .

ان التجارب المسيحية اصبحت هكذا مختلفة جداً عن الحضارة الأبوية لما قبل المسيحية ، في حين تبقى هناك فوارق نفسية كبيرة في حقيقة ان حرية الرجال الجنسية كانت معتبرة مثل الخطايا .

وبحلول تعاليم مساواة الجنس تحطم هذا النظام . سواء أأصبح الرجال فضلاء كالنساء كما تأمل جهود الانوثة ، او أن النساء يجب أن يسمح لهن ليكن غير فاضلات مثل الرجال ، كما يميل اختصاصيو الانوثة في جيلنا ليشجعوا . ولكن اذا لم تكن الفضيلة مطلوبة من النساء ، فانه من الصعوبة أن ترى كيف بامكان العائلة الابوية أن تصمد . والتخلي عن الاسرة الابوية يشمل تحويلا جذرياً في الجهاز الاجتماعي . وهكذا يبقى هناك اضطراب . ان التعاليم المسيحية كانت دائماً صارمة جداً للطبيعة

البشرية عند الرجل . واذا كانت النساء احراراً كالرجال ، فأنهن ايضاً سيجدن التعاليم المسيحية صارمة لا تحتمل . ان العائلة مؤسسة عميقة الجذور لدرجة ان الرجال ليس بارادتهم التحول . فمن هذا الاضطراب يظهر هناك مخرج واحد واضح وهو بإمكان مركز الأب أن يؤخذ من قبل الدولة – ان النظام الممكن بسهولة في ظل الشيوعية ، ليس سهلاً ليتناسب مع المؤسسات ذات الملكية الخاصة والوراثية . ففي هذا الاسلوب تكون مسألة الملكية الخاصة مرتبطة بمسألة السلوك الجنسي . ليس بالامكان توقع ان الانسان سيعمل ليساند اطفالاً ليسوا اطفاله . وهكذا يكون نظام الملكية الخاصة متحداً مع العائلة الأبوية ويشمل درجة معينة من الفضيلة في الزوجات . ولطلب فضيلة الزوجات وليس الازواج ، يكون مخالفاً لتعاليم مساواة الجنس ، ومن الصعوبة أن ترى كيف أن الفضيلة تضمن بدون طغيان او تحريمات .

عندي قليل من الشك في أن الحل سوف يوجد لتخفيض قيمة الاب لدرجة عظيمة ، وازدياد في الميل عند الاطفال ليكونوا مدعومين من قبل الدولة اكثر مما من قبل آبائهم . وانني لست متأكداً بالمرة انه سيكون شيئاً حسناً . ان الاخلاص الابوي وشعور الأبناء تجاه آبائهم ، كانت عناصر جذرية هامة في تاريخ الحضارة ، وانني لا اطالب لاعرف ماذا سيكون وضع الحضارة بدون هذه العناصر . ولكن سواء من اجل الخير او الشر ، فإن أهمية الدولة في علاقتها مع الاطفال تظهر انها آخذة في الزيادة ، بينما اهمية الاب سوف تخفض تباعاً .

من جميع هذه المشاكل والاضطرابات الحديثة ، نرى ان اولئك المعنيين في تربية الاحداث رفضوا أن يأخذوا أية ملاحظة . فانهم يتمسكون في

أن التعاليم المسيحية الصارمة، حتى اذا لم يمكن فرضها على الراشدين، بامكانها أن تحكم صفات اولئك الذين هم معنيين بالأحداث . إن الصفات الأخلاقية للمدارس والجامعات البريطانية تبقى اكثر صرامة بكثير من تلك الصفات للعالم على نطاق واسع . ومن نتائج التربية أصبحت بصورة متزايدة بعيدة المنال مع المجتمع، والمفروض أن تكون فيه لتحضر الناس الأحداث . بينما الرأي العام والمؤسسات الاجتماعية باقية على ما هي عليه ولا افكر ان اي حل واضح قاطع يكون ممكناً، وذلك بسبب عدم التوافق الاساسي بين مساواة الجنس والاسرة الابوية .

وبالرغم من عدم التوافق هذا، ومهما كانت الكمية الجيدة، بالإمكان تقريرها بواسطة القواعد العقائدية العامة، ومن خلال الرفض لمعاملة الجنس في اسلوب وهمي .

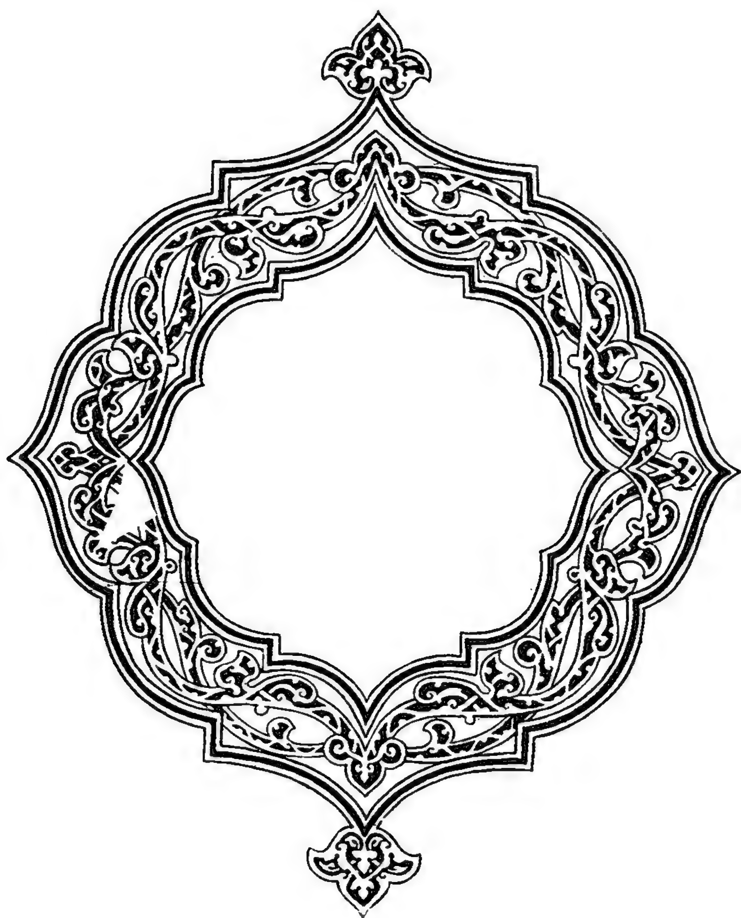
وعلينا أن تكون قاعدة مطلقة في جميع المعاملات مع الاحداث، وليس لتخبرهم كذباً مهذباً . فيجب أن تكون قاعدة مطلقة في ان كل موضوع يجب أن يكون مفتوحاً لنقاش معقول وللاعتبار في الاسلوب العلمي . فإذا كان الاحتفاظ بالعائلة الابوية لتكوين قواعد الاخلاق، فانه من الصعوبة أن ترى كيف ان هذه القواعد تخفض خطايا مثل هذه التجارب الجنسية، كما انه ليس بمقدورها أن توصل الى التطور، مع العلم انها تلك التي هي اكثر من أي شيء آخر تستعرض برعب، ليس فقط من قبل العقائد المسيحية، ولكن ايضاً من قبل قانون العقوبات . اذن يجب أن تدرك أيضاً، حتى عندما يكون نوع معين من السلوك بحد ذاته مرغوباً فيه، من المحتمل أن لا يكون مرغوباً فيه لفرضه بواسطة نظام صارم جداً، او بواسطة خلق رعب غير سليم . ان هذه القواعد

تغطي جزءاً معتبراً من التربية الأخلاقية للأحداث . ومن اجل الباقي ، اعتقد انــه يجب أن ننتظر لغاية ما يكون اضطرابنا والتحول السريع للمجتمع قد تطور الى بعض من الوضع المستقر .

انه من المهم في جميع التصرفات مع الأحداث أن نمنعهم من الحصول على فكرة ان الجنس هو شيء ما بصورة خاصة قذر وسري . ان الجنس موضوع هام ، ومن الطبيعي للمخلوقات البشرية أن تفكر به وتتكلم عنه .

ففي الوقت الحاضر ، تعالج هـذه الرغبة الطبيعية المطلقة في جانب الاحداث من قبل السلطات كشيء ما شرير ، وبالنتيجة يتوصل الاحداث الى اهتمام أكثر في الموضوع ممـا يكون عندهم طبيعياً . ويتحدثون عنه باستمرار مع جميع سرور الفاكهة المحرمة .

ان حديثهم الضروري يكون جهـــلا وجنوناً لأنهم متروكون على تخمينهم الخاص ، ونصف معرفتهم الخاصة . وجميع موضوع الجنس اصبح لأغلب الأولاد امر سخرية وقصصاً قذرة . والموضوع الكلي للجنس كشأن انتشاء طبيعي يرتفع في مناسبات للشعر ، وبعض الاوقـات لخفيفي الظل والمرحين ، واحياناً للعاطفيين في مسرحية تراجيدية ، تقـع خارج مشهد علماء الاخلاق ذوي التفكير المحدود الذين يكون الجنس لهم إثماً عندما تكون مرتبطة بالمسرات ، وفضيلة فقط عندما تكون جافـة وطبيعية . ان الشعر والمرح والجمال تكون خارجة عن الحياة بواسطة هذه الاخلاقية البشمة ، وبعض الاحيان تكون جافة وصارمة . وفي حل جميع علاقات البشر من وجهة النظر هذه يأتي ضعف العقل . ومن الممكن ان تكون وجهة نظر المتحرر لهـــا ايضاً خطرها . لكنها اخطار الحياة وليس اخطار الموت .



١٠

الوطنية في التربية

كل انسان لديه عدد من الاهداف والرغبات ، بعضها شخصي صرف ، وبعضها من النوع الذي يمكن مقاسمته مع الكثير من الناس الآخرين . ان اغلب البشر يرغبون في المال على سبيل المثال ، ومعظم اساليب الثراء تشمل التعاون مع بعض الفئات . والفئة المعنية تعتمد على أسلوب معين للثراء . ولأغلب الاهداف ، تكون مؤسستان مختلفتان في نفس العمل متنافستين ، ولكن من اجل اهداف تعرفة الحماية فهما تتعاونان . ليست الدراهم طبعاً الشيء الوحيد الذي من اجله ينظم الناس الى فئات من نوع سياسي . فهم منظمون في كنائس ، ومجتمعات اخوية متعلمة ، والبنائين الاحرار . ان الحركات التي تدفع الناس للتعاون هي عديدة : هوية للمصالح تكون واحدة ، وهوية الآراء تكون اخرى ، وروابط الدم تكون الثالثة . فان عائلة روتشليد تعاونت نظراً لروابط الدم . لم

يحتاجوا الى ادوات غريبة لعدم التعــاون وذلك لأنهم يثقون ببعضهم البعض ، وجزء عظيم من نجاحهم كان عائداً لحقيقة انه كان هناك واحد من عائلة روتشليد في كل مركز مالي هام في اوروبا .

ان شكلاً من التعاون المرتكز على هوية الرأي ليس ليشاهد في عمل الكوكر الانساني Quakers فيما بعد الحرب . لقد كان باستطاعتهم أن يعملوا معاً بسهولة ، وذلك للتشابه وجهة نظرهم . ان روابط الاهتمام الشخصي تكوّن القواعد لمثل هــذه المنظمات ، مثل الشركات المساهمة والاتحادات التجارية .

ان فئة من الناس المنظمين من أجل هدف ، يكون لديهم بالإجماع ذاك الهدف فقط الذي من أجله تستمر المنظمة . فـان عقليتها تكون إذن أبسط وطبيعية اكثر من أي فرد بمفرده . دعنا نقول ان جمعيــة للأبحــاث النفسية تهتم من اجل الابحاث النفسية فقط في حين ان كل واحد من اعضائها يهتم بالعديد من الأشياء الاخرى . فان اتحاد الصناعات البريطانية يهتم بالصناعات البريطانيــة فقط ، في حين ان اعضاءه يمكنهم التمتع بالذهـــاب الى اللعب او رؤية لعبة كريكت . فالعائلة كمجموعة تهتم فقط بثروات العــائلة ، وهي راغبة باستمرار ان تضحي بأعضاء لهذا القصد .

والشهوات المنظمة سياسياً تكون أقوى بكثير من تلـك التي تبقى غير منظمة . والناس الذين يرغبون في الذهاب الى السينما في ايام الآحاد يكونون اجماعاً قطيعاً غير منظم ، وسياسياً من ذوي الشأن الضئيل .

والمسبتون [1] الذين يرغبونهم ان لا يذهبـوا يكونون منظمين ، ويكون عندهم نفوذ سياسي . وأصحاب دور السينما هم ايضاً منظمون . ومن وجهة النظر السياسية يكون اذن أمر فتح دور السينما في أيام الآحاد ، نزاعاً فيما بين المسبتين وأصحاب دور السينما الـــتي بها رغبات الرأي العـام لا تعتبر .

فالانسان يعلن أنه ينتمي لعدد من المنظمات ، بعضها مفيد وبعضها ضار ، وبعضها مجرد بريء . فهو ينتمي ، دعونا نفترض ، الى جمعيـــة الفاشيست البريطانية ، والى نادي كرة القـدم في قريته ، والى جمعية البحوث الانثربولوجية . ففي الامكانية الثالثة يستحق المديح ، وفي الثانية بريء ، وفي الاولى يكون منبوذاً . فهو يجـد ذاته مزيج من الحسن والسيىء . ولكن المنظمة يكون عندها سلوك بعيد عن الخير او الشر ، وهو لا يوجد عند اعضائها . انها الهدف الذي من اجله يكون النـاس منظمين والذي يقرر ان تكون المنظمة حسنة او سيئة ، وليس سلوك الناس الذين يشكلون المنظمة .

ان هذه نوعاً ما ملاحظات بالية المقصود منها ان توصل الى النتائج الهـامة التي تعم من المنظمات البشرية الى الدول . فعلى الاغلب جميـع البلاد المتحضرة ، تكون الدولة فيها ، اقوى المنظمات التي ينتمي اليهـا الشخص ، وهكذا تكون اهدافه كعضو نافع في الدولة مؤثرة سياسياً ، أكثر من أي من اهدافه الاخرى . وتصبح هامة اذن لنعتبر مـا هي الاهداف التي تكون في الدولة الحديثة .

---

(١) المسبتين : من لا يعملون يوم السبت .

ان جهاز الدولة يكون جزئياً داخلياً وجزئياً خارجياً . ومن أجل هذا الهدف ، فإنني أشمل الحكومة المحلية ضمن اجهزة الدولة . فبإمكان الفرد أن يقول بصراحة أن الاهداف الداخلية للدولة تكون حسنة ، في حين ان الاهداف الخارجية تكون سيئة .

ان هذا الوضع طبعاً بسيط جداً ليكون حرفياً حقيقة ، ولكنه يمثل تقديراً اولياً مفيداً .

ان الشؤون الداخلية للدولة تشمل اموراً مثل الطرقات ، الانارة ، التربية ، الشرطة ، القانون ، دائرة البريد ، وسواها . ويمكن ان يتنازع واحد مع هـذه او تلك من تفاصيل الادارة ، ولكن السياسي فقط بامكانه التمسك بأن مثل هذه الاهداف تكون بحد ذاتها غير مرغوبة . وطالما ان فعالياتها الداخلية لها علاقة ، فلذلك تكون الدولة على وجه العموم تستحق الاخلاص والمساندة من قبل مواطنيها .

وعندما نأتي على أهدافها الخارجية ، فإن الامر خلاف ذلك . وفيما يتعلق بباقي العالم ، فان أهداف الدولة العظيمة تكون اثنين : الدفاع ضد العدوان ، ومساندة مواطنيها في المنازعات الاجنبية . ان الدفـاع ضد العدوان هو لدرجة بالغة حيوي ويحتاج اليه لمنع الغزو ، ويمكن ان يسمح بـه ليكون ذا فائدة مبدئية . ولكن الصعوبة هي ان نفس الوسائل المطلوبة لمنـع الغزو ، هي ايضاً قابلة للاستفادة الاجنبية . فإن الدول الموجهة للعالم تهدف لرسم مخطط ضرائب اقتصادية من العـمال والثروة المعدنية في البلاد التي هي اضعف منها ، وتستخدم لضمان هذه الفرائض القوات المسلحة ، الـتي يكون القصد العادي لها دفاعياً . فعندما اكتشف عـلى

سبيل المثال ان ترانسفال Transvaal كانت تحتوي على الذهب ، غزاها البريطانيون . واللورد سالسبري أكد للأمـــة « اننا لا نبحث عن حقول الذهب » .

ولكن ، مهـــما يكن الامر أو سواه فللذهب ، حيث تكون حقول الذهب ، ونجد انفسنا نحوزها في نهاية الحرب . ولنأخـذ ايضاحاً آخر ، فكل شخص يعرف ان البريطانيين ذهبوا الى جنوب ايران في رغبـة لاستغلال جنوب ايران ، ولكنه أمر مشكوك فيه أن يكون يتوجب ان نأخـــذ كل الاهتمام في رفاهيتهم ، اذا لم يكونوا يقطنون بلاداً مملوءة بالبترول . وليست ملاحظة غير مماثلة يمكن ان تعمل عن بعض افعـال الولايات المتحـدة في اميركا الوسطى . وبنفس الاسلوب شعور اليابان في الذهاب الى منشوريا ، يكون طبعاً أنبل ما يكون ، ولكنه حدث بواسطة بعض المفاجآت الغريبة المناسبة مع مصالح اليابانيين .

انه ليس كثيراً جداً القول ان أغلب الفعاليات الخارجية للدول القوية في وقتنا الحاضر معنية بالاستخدام ، او بالتهديد باستخدام القوات المسلحة ، وذلك من اجل نزع ثروات الدول الأضعف ، والتي تتبع قانونـــاً لهم . إن فعاليات من هـــذا النوع من جانب الافراد العاديين تعتبر اجراماً ويعاقب عليها من قبل القانون مـا لم تكن على نطاق واسع . ولكن من جانب الامم ، فانه يعتبر معجباً بها من قبل مواطني الامم المعنية. وهذا يوصلني في النهاية لموضوع الفصل الحـالي اسمياً وهو تدريس الوطنيـة في المدارس .

ولكي نحكم على هذا التدريس فانه من الضروري ليكون واضحاً ، ليس فقط فيما يتعلق بمقاصدها ، ولكن ايضاً فيما يتعلق بتأثيرها الفعلي .

الوطنية بالقصد وبأفكار اولئك الذين يدافعون عنها تكون شيئاً جيداً على نطاق شاسع . حب البيت وحب وطن الفرد حق لدرجـــة معينة من الكبرياء في تحصيلاتها التاريخية وفيما يتعلق بهذه تستحق الافتخار، ويجب ان لا يحتج عليها . فانها مزيج من الافكار مختصة جزئياً بالحب الحقيقي للتربة وبالمحيطات المؤلفة لها ، وجزئياً مع شيء ما مطابق لامتداد حب الاسرة . وجذور هذا الشعور يكون جزئياً جغرافياً وجزئياً بيولوجياً . لكن هذا الشعور البدائي ليس بحد ذاته سياسياً او اقتصادياً . انـــه شعور الشخص لبـــلاده الخاصة ، وليس ضد بلاد اخرى . ففي شكلها البدائي ، من الصعب ايجادها الا فيما بين اولئك الذين يعيشون في محيطات الأرياف وبدون سفر كثير .

إن ساكن المدن الذي يبدل بصورة مستمرة سكنه وليس عنده قطعة ارض ، بامكانه ان يسميها ملكه ، فان عنده اقل من هذا الشعور البدائي ، الذي منه تنمو الوطنية مما عند ساكن الارياف من اصحاب الاملاك او المزارعين .

ان سكان المدن عندهم بدلاً عنها شعور اصطناعي بدرجـة كبيرة ، وأكبر محصول تعليمهم وصحفهم ، وعلى الغالب يكون هذا كلياً ضاراً . وهذه العاطفة ليست كثيراً لحب البيت من المواطنين ، مثـــل كراهية الاجانب والرغبة في امتلاك البلاد الاجنبية . مثلـا على الغالب جميـع الشعور السيء ، المنحرف باسم الاخلاص . فاذا رغب شخص ان يرتكب بعض جرم مكروه كالذي يقع منـــه طبيعياً في الرعب ، فعليك اولاً تعليمه الاخلاص لعصابة من قطاع الطرق ، وبعدها اجعل جرمه يظهر له كإيضاح لفضيلة الاخلاص . فمن هذا النجاح تكون الوطنية أحسن نموذج

كامل . خذ على سبيل المثال الاحترام للعلم :

إن العلَمَ هو شعار الامة في مقدرتها المادية . انه يفترض المعركة ، الحرب ، النصر ، وأعمال البطولة . فالعلم البريطاني يوحي ببريتون نيلسون الطرف الأغر ، وليس بشكسبير أو نيوتن أو داروين . ان الاشيـاء التي عملت من قبل الانـكليز لتوسيع حضارة الجنس البشري لم تعمل تحت شعار العَلَـم ولا تأتي للفكر عندما يوقّر الشعار . وأحسن أعمال الانـكليز قد نفذت من قبلهم ليس كانـكليز ، ولكن كأفراد . فان الأفعال التي يقوم بها الانـكليز تحت إدراك أنهم انـكليز ، تكون من نوع اقـل إعجاباً . ولكنها أفعالهم التي يدعون العلم للإعجاب بها ، وما هو حقيقة عن العلم البريطاني يكون حقيقة بالتساوي بالنسبة للنجوم والشرائط ، او عن علم أي أمة قوية .

ففي جميع أرجـــاء العالم الغربي ، يعلم الاولاد والبنات على ان أهم اخلاصهم الاجتماعي ، يجب ان يكون للدولة التي هم مواطنون فيهـا ، وان واجبهم هو ان يعملوا حسب توجيهات حكومتها . وخشية ان يتساءلوا عن هذه العقيدة ، فانهم يعلمون تاريخاً كاذباً ، وسياسة كاذبة واقتصاداً كاذباً . انهم يخبرون عن الاعمال المشينة للدول الأجنبية ، ولكن ليس عن الأعمال المشينة لدولتهم الخاصة . يقادون ليفترضوا ان جميع الحروب التي اشتركت بها دولتهم كانت حروباً دفاعية ، بينما حروب الدول الأجنبية هي حروب عدوانية . ويعلمون ليصدقوا انهـا عندما تكون خلافـــاً لتوقع بلادهم الخـاصة ، لم تقهر بعض الأجنبي ، وفعلت هكذا كي تنشر الحضارة ، او نور تعاليم الدين المسيحي ، او نفعاً سلوكياً رفيعـاً او المنح او شيئاً ما خلاف ذلك يكون طبعـــاً نبيلاً . فإنهم يعلمون ليؤمنوا في ان الامم

الاجنبية ليس عندها اي سلوك اجتماعي . وكما تؤكد المزوفة البريطانية الوطنية ، على ان العناية الإلهية « تدحض ألاعيبهم الشيطانية » – والواجب الذي سوف لا تتوانى العناية الإلهية من استخدامنا كأداته .

إن الواقع هو أن كل امــة في تعاملها مع كل من سواها ترتكب العديد من الجرائم كما هو باستطاعة قواتها المسلحة ، إن المواطنين وحق المواطنين الصالحين ، يقدمون موافقة تامــة للنشاط الذي يجعل الجرائم ممكنة ، لأنهم لا يعرفون مافا يكون قــد عمل او يشاهدون الحقائق في منظار حقيقي . من اجل رغبة المواطن العادي ليصبح بدون وعي منغمساً في جريمة قتل من اجل السرقة ، فان التربية بصورة رئيسية تلام .

هناك اولئك الذين يلومون الصحافة ، ولكن في هــذا اعتقد انهم مخطئون . فان الصحافة تكون مثل ما يتطلب الجمهور ، والجمهور يتطلب صحفاً رديئة ، ذلك لأنه عنده تربية سيئة .

إن الوطنية من النوع القومي عنــد تدريسها في المدارس ، يجب ان تذكر كشكل من الهستارية الجماعية التي يكون الأشخاص لسوء الحظ عرضة لها ، وضدها يحتاجون ان يكونوا محصنين من كلا الطرفين ذكاء وعقلاً . مما لا شك فيه ان القومية الأشد خطراً في وقتنا الحــاضر هي أخطر بكثير من السكر او تعاطي المخدرات او سوء الامانة تجارياً او اي شيء آخر سواه ، حيث يكون سلوك التربية العادية موجها .

جميع اولئك القادرين على استعراض العالم الحديث مدركين انه نظراً للقومية ، فان استمرار الاسلوب الحضاري يكون في خطر .

هذا القول معروف لدى جميع المدركين للشؤون الدولية . فمهما يكن ،

يستمر في كل مكان إنفاق الثروة العامة في الدعاية لإيضاح هـذا المخطط التدميري .

وأولئك الذين يعتبرون ان على الاطفال ان يدرسوا المجـازر الجماعية كأنبل عمل للانسان يدلنون بالخيانة ، واصدقاء كل بلد الا بلدهم . فواحد يفترض ان المودة الطبيعية سوف تسبب لكثير من النــاس شعوراً بالألم في افكار اطفالهم والموت من الألم . فمثل هذا ليس هو الشأن . في حين ان الخطر رسمياً ، في ان جميع المحاولات للعمل به ينظر اليهـا كإثم من قبل اغلب من بيدهم زمام السلطة في اغلب البلاد .

إن الخدمة العسكرية تمثل كأنبل تحضير للدفاع عن بلد الفرد الخاص ، وليست مجرد كلمة تقـال لجعل الشباب يدركون ان العمليات العسكرية لبلادهم يفترض ان تكون قوية ، وأكثر احتمالاً لتحتوي على الاعتــداء الخارجي من الدفاع عن الوطن .

إن اهداف تدريس الوطنية عديدة . فليس هنــالك اي مانع والذي اعتبرناه انه ما لم يكن خطر الوطنية لكان بالامكان تخفيفـه ، فان الحضارة ان يكون بإمكانها الاستمرار . فهناك المانع على انها ممكنة بصورة لتعلم الاناس المتحضرين تقاليـد سلوك في معهـد يعلم الناس ايضاً كيف يقتلون . وهنـــاك المانع في تعاليم الكراهية التي هي جزء ضروري من التربية الوطنية هي في حد ذاتهـا شيء سيء . ولكن ، علاوة على جميع هذه الاشياء ، هناك المانع الادراكي الصرف في ان تربية الوطنية تشمل تدريس الافتراضات الكاذبة . ففي كل بلد في العالم ، يدرس الأطفال ان بلادهم هي الأحسن ، وفي كل بلد الا في واحد يكون هــذا الافتراض

كاذباً . فمنذ ان الامم ليس بإمكانها ان توافق على ان شيئاً ما هو حقيقة ، فانه سيكون احسن للتخلي عن عادة إطناب سلوك امة واحدة على حساب كل بلد آخر .

ان الفكرة التي تعلم للاطفال ، يجب اذا امكن ان تكون كما اعرف مدمرة جداً في بعض تطبيقها حتى غير الشرعي منها . ولكن ليس بإمكاني ان أقاوم الاعتقاد في ان الارشادات تكون أحسن عندما تعلم الصدق كما تعلم الكذب . فالتاريخ يتوجب ان يعلم تماماً نفس الشيء في جميع بلاد العالم ، وكتب التاريخ يجب أن ترسم من قبل منظمة دولية بمساعدة من الولايات المتحدة وأخرى من روسيا السوفيتية .

التاريخ يجب أن يكون تاريخ العالم اكثر مما يكون تاريخاً قومياً ، وأن يصر على شؤون التربية اكثر من الحروب . فطالما ان الحروب يصر على تعليمها ، فيجب ان لا تعلم فقط من وجهة نظر المنتصر وأعمال بطولته . على التلميذ ان يتأمل في ميدان المعركة فيما بين الجرحى ، وان يعمل ليشعر بوضع المشردين في الأقاليم المدمرة ، وأن يعمل مدركاً لجميع المآسي والظلم التي تتيح الحرب الفرص لها .

ففي الوقت الحاضر ، اغلب التدريس هو نوع من حرب العظمة ضد تعاليم المدرسة ، ولذلك عمل السلم عبث . هذا ينطبق طبعاً بصورة خاصة على مدارس الاغنياء التي تكون في كل مكان ذكاء وعقلاً أحط من مدارس الفقراء . يتعلم الاطفال في المدارس أخطاء الأمم الأخرى ، ولكن ليس أخطاء أمتهم الخاصة . لتعرف أخطاء وزراء الأمم الأخرى لتقويم السلوك الشخصي وشعور حالة الحرب ، في حين ان تعرف أخطاء

أمة المرء تكون ذات فائدة .

ان مـــا يتعلمه الولد الانـكليزي في المدرسة الحقيقية لفرق البوليس الخاص في ايرلندا Black and Tans . ومـــا يتعلمه الولد الاميركي في المدرسة هو الحقيقـــة عن ساكو وفـانزيتي Sacco and Vanzetti او موني وبيلنكز Mooney and Billings . ونظراً لمثل هـــذا الهدف ، فان المواطن العادي في كل بـلد متحضر يكون ملفوفـــاً بغطاء من القناعة الذاتية .

ان اغلب تعاليم الوطنية ، في حين انها موجهة ادراكياً خطأ ، تكون عقلياً بريئة . الناس الذين يدرّسون هم انفسهم تعلموا على نظام خطأ ، او تعلموا ليشعروا انه في عالم حيث يكون الاجانب شريرين لدرجة ، بامكان جهود القوة العظيمة فقط حماية بلادهم الخـــاصة من المصائب . ومهما يكن ، هناك جانب اقل براءة من الدعاية الوطنية . توجد مصالح تجمع منها الثروة ، غير المصالح الحربية . ولكن ايضاً اولئك الذين لهم مصالح استثمارية في البلاد التي تعرف بغير النامية . فـــاذا كنت تملك ، دعنا نقول بترولاً ، في بلد غير مستقر ، فان نفقات الحصول على الزيت تحتوي على جزئين :

اولاً : التكنيك ، والمصاريف المباشرة لاستخلاصه .

ثانياً : السياسة او النفقـات العسكرية لحفظ الأمن والنظام بـــين « الرعايا » .

يقع عليك فقط الجزء الاول من المصاريف ، والجزء الثاني من النفقات الذي يمكن ان يكون اعظم عبء يقع على دافعي الضرائب الذين هم مرغمين

ليتعهدوا بها بواسطة وسائل الدعاية الوطنية . ففي هذا الاسلوب ارتباط غير مألوف لدرجة ، ينمو فيا بين الوطنية والمال . هـذه مرة ثانية هي الحقيقة تمنع الأحداث بكل اعتناء من معرفتها .

ان الوطنية في شكلها العسكري بصورة غير محدودة تكون مرتبطة مع المال . والقوات المسلحة للدولة بإمكانها ان تكوّن وتستخدم في سبيل ثراء مواطنيها . وهـذا ينفذ جزئياً بواسطة الضرائب او التعويضات ، وجزئياً بواسطة الاصرار على دفع الديون التي من شأنها خلاف ذلك ان تكون مرفوضة نوعاً مـا بواسطة حجز مواد خام ، وجزئياً بواسطة وسائل معاهدات تجارية الزامية . فاذا جميع هذا العمل لم يكن محمياً بواسطة الالزام الوطني ، فـان قذارته وشروره ستكون واضحة لجميع الناس العقلاء .

بإمكان التربية بسهولة اذا اختـار الناس ، ان تنتج شعور وحدة للعنصر البشري وأهمية التعاون الدولي . فضمن جيل حيث تكون حواجز التعرفة التي نجعل بها انفسنا فقراء ، يمكن ان تخفض . والقوة العسكرية التي بها نهدد انفسنا بالموت يمكن ان تزول ، والكراهية التي نقطع بها أنوفنا يمكن استبدالها بالارادة الحسنة .

ان العنصرية التي هي سائدة حالياً في كل مكان ، هي بصورة رئيسية حصيلة المدارس ، ويجب ان تأتي على نهايتها ، وان تسود التربية روح مختلفة .

هذا الشأن ، مثل نزع السلاح ، يجب ان يتصرف به بواسطة اتفاقات دولية . ربما اذا كان بامكان جمعية الامم ان توفر اي غسيل ابيض

للمتدين . بإمكانها عاجلاً ام آجلاً ان تصبح مدركة لأهمية هذا الشأن . لعل الحكومات باستطاعتها ان توافق على توحيد تعاليم التاريخ . لربما بعد الحرب العظمى القادمة اذا كان أي من الناس سيبقى ، يمكن ان يتحد ويقرر استبدال علم هيئة الأمم بأعلام دولهم العديدة .

ولكن مما لا شك فيه هذه احلام « اليوتوبيين » . انها طبيعة الاساتذة ليعلّموا ما يعرفون مهما يكن ذاك ضئيلاً .

تصور اساتذة التاريخ الانكليز مهددين بواسطة اتفاق دولي بضرورة تعليم تاريخ العالم ، فانه يكون عليهم ان يجدوا تاريخ الهجرة ، ومتى سقطت القسطنطينية . وعليهم ان يتعلموا عن جنكيز خان وإيفان الرهيب . وعن البوصلة البحرية التي انتشرت من الصين الى البحارة العرب . وكيف ان اليونان كانوا اول من عمل تماثيل بوذا . فان حنقهم لحوزتهم مثل هذه المطاليب التي عملت في زمنهم ، سوف لا تعرف حدوداً ، وانهم سيثورون من اجل حكومة جديدة تضمن ان تسخر من هيئة الأمم .

والنشاط الفعال لزماننا في جميع انحاء العالم الغربي هو في مؤسسات رأسمالية تكون بالاجمال تعمل للدمار . فان طبقات الناس الذين عليهم ان يعملوا من اجل شيء احسن مثل الاساتذة ، راضين لأغلب الوقت بعدالة الوضع الراهن . ان اي اجتماعي سوف يشمل تغييراً في دراستهم ويكون بذاك المعدل ليتجنب بقدر الامكان . والجهود التي يرغبون تجنبها ليست فقط علمية ولكنها شعورية . الشعور المألوف يأتي بسهولة ، ومن الصعب ان تعلم شخصاً ليشعر بشعور جديد بمناسبة مألوفة ، مثل عزف الاناشيد الوطنية .

وهكذا عالمنا الحديث يكون الجيد كسلان ، وفقط السيء هو النشيط ، يمضي ثملا باتجاه الدمار . ففي لحظات يرى النـــاس الهوة ، ولكن خمرة المزيج غير الحقيقي تقفل فوراً اعينهم . فإلى جميع الذين ليسوا سكارى الخطر الواضح . ان القومية هي القوة الرئيسية التي تسوق حضارتنــا الى دمارها .



١١

الشعور الطبقي في التربية

وجدت الفوارق الطبقية منذ فجر الحضارة . في حين انها في القبائل المتوحشة تتخذ في الوقت الحاضر اشكالاً بسيطة جداً هنالك زعماء ، والزعماء قادرون أن يكون عندهم عدة زوجات . وليس المتوحشون مثل الناس المتحضرين ، لقد اوجدوا اسلوباً في جعل الزوجات مصدر الثروة ، وهكذا كلما كان عدد الزوجات اكثر عند الرجل ، كلما اصبح ثريا اكثر . لكن هذا الشكل البدائي من عـدم المساواة الاجتماعية يفتح باباً آخر اكثر تعقيداً . ففي الاساس ، كان عدم المساواة الاجتماعية مرتبطاً بالوراثة وهذا ما نراه في جميع المجتمعات الراقية مع انخفاض في خط الذكور . وفي الاساس ، كانت الثروة الأعظم لأشخاص معينين عائـدة للشجاعة العسكرية . فالمحارب الناجح يتوصل الى الثروة وينقلها لأبنائـه . الثروة المستحصل عليها بواسطة السيف عادة تحتوي على ارض .

ولغاية يومنا هذا فإن ملكية الارض هي علامـة الارستقراطيين ، والارستقراطيون يكونون بالفكرة من نسل بعض بارونات الاقطاع الذين حصلوا على ارضهم من خـلال قتل اصحابها السابقين والتمسك بملكيتها ضد جميع الغزاة . وان هذا يعتبر مصدراً للثروة . هناك شيء آخر أقل نبلاً بقليل يبرهن عنه من قبل اولئك الذين هم كلياً كسالى ، استحصلوا على ثروتهم بالوراثة من سلف شجاع ، في حين ان الباقين لازالوا أقـل احتراماً ، تعود ثروتهم الى صناعتهم ففي العالم الحديث ، لا يزال المتنفذون الذين هم أغنياء يعملون ازاء البلوتقراطيين الذين كان دخلهم بالفكرة مستحصلاً عليه ببطء من ملكية الارض والحصر الطبيعي للأرض . كما ان الآخرين من البرجوازيين مواردهم اسميا هي الامتياز للانتاج من عمل الفرد الخاص .

إن امتياز انتاج عمل الفرد الخاص هو دائماً قائم فقط على الورق ، لأن الأشياء معمولة من اشياء اخرى ، والشخص الذي يزوّد بالمواد الخام ، له الحق في الانتاج الحاضر كبديل عن الأجراء ، او حينما توجد العبودية كبديل عن العبء المتطلب للحياة . وهكذا يكون عندنا ثلاث طبقات من الناس : مالك الأرض ، والرأسمالي ، والبروليتاري . الرأسمالي في الاساس هو مجرد شخص مكّنه توفيره من شراء المواد الخام والمعدات المطلوبة في التصنيع ، وقد استحصل على الحق في الانتاج الجاهز كبديل للرواتب .

إن الدرجات الثلاث لأصحاب الامـلاك ، الرأسماليين ، والبروليتاريين هي واضحة تماماً بالفكرة ، ولكن الفوارق مضطربة عملياً . فان صاحب الامـلاك يمكن أن يستخدم بعض أساليب الاعمال في انشاء منتجع على شاطيء البحر يكون ضمن املاكه . والرأسمالي الذي قد حصل على ثروته

من الصناعة يمكن أن يستخدم كلا او جزءاً من ثروتـه في الارض ويأخذ مسكناً بالأجرة . البروليتاري لحد ما ، طالما عنده ثروة في صندوق توفـير البنك او في البيت ، الذي سوف يشتريه على طريقة الأقساط يصبح لذاك الحد رأسمالياً او صاحب املاك كما يكون الحال .

إن المحامي القدير الذي يتقاضى ألف جنيه من اجل قضية ، يكون في التوفير الشديد صنف كالبروليتاري ، ولكنه سيكون غاضباً اذا عمل هذا وتكون عنده عقلية البلوتقراطيين .

من وجهة النظر العملية ، تعتمد فوارق الطبقة الهامة خارج الاتحـاد السوفييتي على العائلة الرفيعة وعملية الأرث . ففي العائلة الرفيعة ، يتلقى اطفال الأغنياء تربية مختلفة ، في حين انها ليست دائماً تربية احسن مما يقدم لأطفال الفقراء . وفي الميراث ، فان اطفال الأغنياء يمكن أن ينظروا للغد اذا رغبوا ذلـك وللبطالة بدون مجاعة . فاذا لم يكن هناك مثل هذا الشيء كالميراث ، فإن عدم المساواة في الثروة التي ستكون سائـدة هي زائلة في كل جيل . واذا لم يكن هناك مثل هـذا الشيء ، كالعائلة الرفيعة ، فإن اطفال الأغنياء لن يربوا خلافاً عن اطفال الفقراء .

إن ميل الاشتراكيين هو تكلمهم عن النظام الرأسمالي بأسلوب غامض ، وبدون تحليل وافٍ عن العوامل المختلفة التي تساهم به . والنشاط العملي للنظام الرأسمالي هو في حقيقة ان أطفاله في وضع امتياز نظراً لثروتـه في جزء حيوي منها .

انني لا أعني هذا كانتقاد للماركسية طالما أن ماركس يدرك الروابط فيما بين الاقتصاد والعائلة ، ولكنني اقولها كانتقاد للعديد من الاشتراكيين

الناطقين باللغة الانكليزية الذين يتخيلون ان الجهاز الاقتصادي لمجتمع مـا ليس له أي روابط حيوية بالزواج والعائلة . وكأمر واقعي ، فان الروابط تكون مشتركة .

إن البورجوازي المهتم في جمـــع ملكية فردية يطبق نظرية الملكية الفردية على زوجته وأطفاله ، ويكون عنده بالتتابع أسلوب معين للشعور فيما يخصهم ، وواقعياً الحسد الجنسي وعواطف الأبوة تكون شعوراً تقود الرجال لرغبة الملكية الفردية في النساء والاطفال . ومن رغبتهم في هذا النوع من الملكية الخاصة فانهم مدفوعون ليرغبوا انواعاً اخرى ايضا. ففي المجتمع البدائي ، يمكن ان يرغب الرجل ثروة ليكون عنـده العديد من الزوجات .

أما في المجتمع الحاضر ، فان أحد أسباب رغبـة الثروة هي ليكون قادراً على تقديم وضع اجتماعي لزوجته وأطفاله أحسن مما يخص زوجات وأطفال أصحاب الدخل المحدود . ان روابط الملكية الخاصة في الأشياء المادية مع الملكية الخاصة للزوجات والاطفال تكون هكذا مشتركة . ومن غير المحتمل ان تكون متوقعة من ان واحـداً سوف ينهار بدون ان ينهار الآخر . ان الملكية الخاصة في النساء والاطفـال تنتج منافسة فيما بينهم ، وهكذا تجلب شعور فوارق الطبقات الى التربية . كيف تتأثر جميع هذه الامور من خلال استعراض الشيوعية ، إنني لا أقترح بحث ذلك في هذا الدور .

حيث تكون التربية معنية ، فانهـــا تكون طبعاً الوضع الاجتماعي للآباء الذين يقررون تربية الاطفال . هكذا في اي مجتمع تكون فيـه فوارق الطبقات قائمـة ، فان الاطفال يحترمون ليس كليـــاً على معدل

جودتهم ، ولكن ايضـــاً على معدل ثروة آبائهم . فان اطفال الأغنياء يتوصلون الى اعتقاد أنهم أسمى من اطفال الفقراء ، وتعمل محاولات لجعل اطفال الفقراء يفكرون أنفسهم أحط من اطفال الاغنياء .

انه من الضروري عمل جهد مع اطفال الفقراء ، طالما انـــه خلاف ذلك ، من المحتمل ان يصبحوا متألمين من عدم العدالة التي هم ضحاياها . وتباعاً حيث تكون فوارق الطبقات قائمة ، فان التربية الضرورية عندها ، ذاك الذي ينتج كبرياء في الاغنياء ، وذاك الذي يهدف الى انسانيـة غير معقولة عند الفقراء .

ان موانع كبرياء الاغنياء واضحة ، وقد أُشير اليها من قبل العقلانيين من عهد العبرانيين فما قبل ، في حين ان نسبة ضئيلة من العقلانيين انتبهت لهذا الشر الذي لا يمكن تسويته بمجرد الوعظ ، ولكن فقـــط بواسطة نظام اقتصادي مختلف .

إن الشرور في محاولة انتاج إنسانية غير معقولة عند الفقراء تكون نوعاً ما مختلفة . فاذا أنتجت ، فان المبادهة واحترام الذات تكون قد انخفضت بضرر . واذا لم تنتج يكون هناك احتقار يميل الى الدمـار . سواء أنتجت أم لا فان محاولة إنتاجهـا تشمل تعاليم الكذب ، كذب سلوكي منذ ظهرت انها عبرت في أن عدم مساواة الاغنياء والفقراء ليس عدم عدالة ، وكذب اقتصادي في حين انهـــا مقترحة على ان النظـام الاقتصادي الحالي هو أحسن مـا يمكن ، فالكذب التاريخي هو من حين المنازعات السابقة فـــيما بين الاغنياء والفقراء يكون مشتقاً من وجهـة نظر الاغنياء .

عندما يكون الأساتذة أحسن قليلاً من البروليتاريين أنفسهم ، فانهم يحتاجون الى روح العبودية اذا كانوا يعتقدون ما عليهم ان يدرسوا ، ونقص في الشجاعة اذا كانوا يدرسونها بدون الاعتقاد بها . ففي مجتمعات ما قبل الصناعة ، حيث كانت الثروة بصورة رئيسية ارستقراطية ، فان دفاع عدم المساواة أخذ شكل الاحترام من الولادة التي غالباً تفوق الاحترام من اجل الثروة الحقيقية ، وتخفي المصدر الاقتصادي للشعور .

ان زعيماً معدماً بدون نقود ومنفياً ، من الممكن ان يكون اكثر احتراماً من مرابٍ ناجح . ومهما يكن ، فانها أساس الثروة التي تحترم لأنه كقاعدة في مثل هذه المجتمعات ، فان اصلها الارستقراطي هو مصدر الثروة . وحيث يكون الايمان بالارستقراطية قوياً ، تكون طبعاً مدعومة بجميع انواع الصفاقة ، مثل ان الارستقراطيين عندهم سلوك احسن وتربية اكثر او شعور أرفع من الناس الآخرين . ففي مجتمع بلوتقراطي ، مثل ذاك السائد في الولايات المتحدة ، هناك شكل مختلف من الخداع . ان البلوتقراطي الناجح والمفروض انه توصل الى مركزه بواسطة العمل المضني والجد والشرف يتوجب عليه ان يستعمل مركزه بثقة عامة مع هين دائماً للصالح العام .

في القرنين السادس عشر والسابع عشر الماضيين عندما كانت الثروة العظيمة للبلوتقراطيين مستحدثة ، كانت التربية التقليدية مثل عائلة آدم التي كانت مثارة بملذات الخداع والاحتيال وعدم الشرعية التامة التي بواسطتها حصل الكثير من الرجال القادة على ثروتهم[١] .

---

(١) راجع : المالية الكبيرة في القرن السادس عشر ، بقلم آدام اخوان . من مطبوعات جامعة ييل .

وفي طيلة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كتبت كتب حول أساليب شركة البترول ستاندرد اويل كومباني . وفي يومنا الحاضر جميع هذا قد تغير . فان البلوتقراطيين العظام يعتبرون كأكبر المحسنين للجمهور ، وكل جامعة تحصل او تأمل أن تحصل على هبات منهم . وكل شاب من ذوي الذوق الأكاديمي يأمل ان يحصل على زمالة بحوث من مكافـأة بعض المليونيرية المحسنين . فان الجامعات والصحافة مملوءتين بامتداح الاغنيـاء جداً ، والرجل في الشارع يُعلَّم ليؤمن أن الفضيلة متعلقه بالدخل .

ان فوارق الطبقات تكون هكذا هامة في بلاد مثل الولايات المتحدة كما أنها في البلاد الارستقراطية ، ونسبة جيدة اكثر اهمية ممـا هي عليه في البلاد الاخرى كالنروج والدنمارك ، حيث توجد هناك راحة على نطاق واسع بدون أي ثروة عظيمة .

إن الضرر الناجم عن فوارق الطبقات ليس محصوراً في الاطفـال . بل يمتد الى المدرسين والى دورة الدراسة . وهناك معنويات اجتماعية مهمة للاعتناء بالعقل اكثر من اعتنائها بالجسد ، ولذا فان المدرس الذي يقدم ارشادات علمية يكون عادة غير مختلف عن أمور الصحة وجاهلاً الدلائل التي بواسطتها يتصل بأي اضطراب صحي بالإمكان كشفه . والفوارق فيما بين العقل والجسد هي اصطناعية وغير واقعية ، ولكن ، لسوء الحظ ، لها تأثير على التفاوت الاجتماعي ، وبالنتيجة فان الاعتناء بالجسد والاعتناء بالعقل هما منفصلان لدرجة بالغة في التربية اكثر مما يجب ان يكونا .

وهذا طبعاً ليس إلا شيئاً رديئاً مثلما كان سيئاً في الايام السابقة ، حيث ان الطفل الاطرش يمكن ان يعاقب لعدم الانتباه لسنوات ، وفي

النهاية بدون ان يكتشف أي من الاساتذة انه اطرش . ولكن على اي حال ، مثل هـــذه الأمثلة البالغة ليس من المحتمل ان تظهر في هـذه الايام ، فان الشر لا يزال كامناً في اوضاع اقل إجراماً .

فالمدرس ، على سبيل المثال ، لا يعرف شيئاً عن أوضاع هضم الطفل ، ومن الممكن ان يكون حانقــاً على البلاهة والطبع السيىء الذي يكون السبب في وجوده حالة امساك . فاذا اقترحت للمدرسين انــه يجب ان يهتموا بعمل الامعاء لطلابهم فان ابهمتهم سوف تثور .

اني لا أرغب من القارىء ان يسيء فهمي في هـذا الحد ، فانني لا أنكر ان في جميع المدارس الحديثة هنالك اعتناء طبي بالاطفال ، وعلى أن هناك من يعمل لحفظهم في صحة جيدة كما يقارن بمـا كان يعمل في الازمنة السابقة .

وما اشتكي منه هو أن الاعتناء الصحي والعقلي هما كلياً منفصلان ، وأن الشخص الذي يملك المعرفــة المطلوبة لواحد يكون عنــده كقاعدة للمعرفة المطلوبة من اجل الآخرين . ففي الراشد ، هناك فجوة معتبرة فيما بين العقل والجسد . ولكن هذه الفجوة ليس لها أي مزيج ضروري . انها انتاج التربية . وفي الطفل لا يوجد أي فجوة ، أما في الولد الصغير فهناك قليل جداً . وفي الطفل الكبير ليس كثيراً .

ولا افترض ان ولداً في سن العاشرة بإمكانه ان يقدم اعتبــاراً فلسفياً طيباً عن الفرق فيما بين العقل والجسد ، ولكن كل طفل سوف يفهم في الحال اذا قلت : « ان عقلك هو ما يعتنى به من قِبل الآنسة « ا » ، وجسدك ما يعتنى به من قِبل الآنسة « ب » . وان الفارق فيما

بين الآنسة « ا » والآنسة « ب » هو وضع المزيج الناتج من الفارق فيما بين العقل والمادة . فـاذا كان كل عمل الآنسة « ا » والآنسة « ب » متحدين في الآنسة « س » ، فـان جميع الاطفال سوف ينمون حياديين تفكيرياً ، ويعتقدون ان العقل والجسد همـا فقط شأنان مختلفان من نفس البيئة .

ففي هـذا الاسلوب تكون الميتافيزيكا مرتبطة بنظام الطبقـات . والفعاليات العقلية تكون أسمى من الجسد ، لأن أولئك الذين يمارسونهـا بصورة فائقة يحتاجون لخدم يقومون بعملهم الجسدي . إنها تتبع في ان الروح أنبل من الجسد ، وهذا هو قاعدة الشر وهلم جراً .

فيما يخص البرامج ايضاً ، فان الاحترام للثروة له تأثير ، في حين ان هذا التأثير هو اقل وضوحاً عما كان سابقاً . وكان اليونانيون مثل جميع الامم التي تستخدم العبيد ، قد تمسكوا بوجهة نظر أن جميع العمل اليدوي منبوذ . وهذا يوصل لمكان اصرار على مثل هذه الاشياء كالثقافة والفلسفة وفن الخطابـة ، التي يمكن دراستها بدون استعمال الايدي . وانهم يميلون للتفكير ان جميع المهارة للأشياء كانت بدون قيمة للسيد ، وهـذا من المحتمل انه كان له شيء مـا مع النقص للنجاح في العلوم التجريبية .

فان بلوتارخ Plutarch أعاد الاختراعات البارعة لأرخميدس اثنـاء حصار سيراكوس ، ممـا دفعت عنـه تهمة السلوك لمبررات انه كان يعملها لصالح ابن عمه الملك . وان الرومانيين ورثوا وجهة نظر الثقـافة من اليونانيين ، ولغاية وقتنا الحاضر ، فان وجهة النظر هذه كانت تعمل في كل بلاد اوربا الغربية .

الثقافة تتكون بعض الاحيان من قراءة الكتب او المحادثة وما يعلم اكثر من هذا ليس على اية حـال ثقافة تفسير اليونانيين لهذا المعنى . والتفسير اليوناني للمعنى لا يزال ذاك المختار على اي حال في انكلترا من قبل اغلب اساتذة المدارس والكثير من اساتذة الجامعات وجميع السادة من قدماء السن وعندهم ذوق أدبي .

هذا لا ينطبق فقط على عصور اليونان والرومان ، ولكن ايضاً على التاريخ الحديث ، فانه يعتبر اكثر ثقافة ان تعرف عن هوراس ولبول Horace Walpole اكثر مما تعرف عن هنري كافندش Henry Cavendish ، وجول بولنغبروك Bolingbroke اكثر ممـا تعرفـه عن روبرت بويل Robert Boyle ، في انه في كل قضية كان الاخير الأهم . جميع هذه في النهاية مرتبطة بفكرة أن السيد هو واحد ، وهو الذي لا يستخدم يديه مـا لم يكن في عمل الشرف في فن الحرب . يمكن ان يستعمل السيد السيف ، ولكن يجب ان لا يستعمل الآلة الكاتبة .

في أمور من هـذا النوع ، فان الولايات المتحدة متفوقة جداً عن اوربا ، نظراً لحقيقة انه في اميركا ، أزيلت الارستقراطية مع التطنيب في وقت لا زالت سائدة في كل بـلد اوربي . ولكن شكلاً جديداً من تفاوت الطبقات في التربية اخـذ ينمو . وهي الفوارق فيما بين إدارات الاعمال والتقدم التكنيكي للمعامل .

فالرجل المشغول في ادارة الاشغـال يكون أرستقراطي المستقبل ، وعبارة « المنفذ العظيم » لها الى حد كبير نفس التعبير في امريكا الحديثة كعبارة « النبيل العظيم » التي كانت في غرائب دزرائيلي . ان استبدال المنفذ

العظيم بالنبيـل العظيم كنوع مبجل لكونه له تأثير معتبر على تقاليـد التربية . النبيل العظيم ، في ايام تكهنات وأحلام دزرائيلي ، كان مما لا شك فيه رجلاً لا يملك السلطة ، ولكنها كانت سلطة تأتي لـه بدون أن يكون عليه ان يبحث عنها والتي مارسها نوعاً مـا بكسل . وكان ايضاً يملك ثروة عظيمة ، ولكن هذه مرة ثانية كان عليها ان تأتي اليه بدون تعب وتأثر ليفكر قليلاً بها . فالأشياء التي عليها عظم نفسه كانت سلوكه الممتاز ومعرفته بالخمر الجيد والفقه مع العالم العظيم وجميع البلاد المتحضرة ، وحكمه فيما يتعلق بصور عصر النهضة ومقدرته من أجـل الاشارة الآمرة . ويمكن القول بصورة عامة أن الانجازات الارستقراطية كانت ساذجة ولكنها بريئة .

إن انجازات المنفذين العظـام في عصرنا الحاضر مختلفة تمامـاً . فإنهم رجال حصلوا على مركزهم بواسطة عزيمتهم القوية ومقدرتهم على حـكم الرجـال الآخرين . قوة في صبرهم الحـاكم والتنظيم هو الفعالية التي بها يتفوقون . انهم رجـال اكفاء في عمل اكبر الاعمال الخيرية ، او اكبر الاعمال الضارة . ورجال يجب ان يحترموا من اجل مقدرتهم وأهميتهم ، انهم يحبون ويكرهون طبقاً لطبيعة عملهم ، ولكنهم لا يستعرضون بدون أهمية او تقدير .

ففي العالم الصناعي ، يجب ان يأتي هؤلاء الرجال من هـذا النوع في المقدمة . وفي الاتحاد السوفييتي يستخدم رجال من هذا النوع من قبـل الدولة في طراز يعطي فائدة من مقدرتهم بدون السماح للفردية المهملة التي هي مسموح بها ليكونوا مدانين في العالم الرأسمالي . ولكن سواء في ظل

الرأسمالية او في ظل الشيوعية فانهم رجال من هذا النوع يحتلون في النهاية الحضارة الصناعية ، والفوارق فيما بين عقليتهم وتلك الارستقراطية في الأزمنة الغابرة يجب ان يكون عندها نفوذ هام في جعـــل التربية الصناعية مختلفة عن العهد الاقطاعي والعصور التجارية .

إن فكرة « تربية السيد » كان لها تأثير سيء على الجامعات . والشباب الذين ليسوا بصورة استثنائية متعلمين يجدونها صعبة في السنوات فيما بين سن الثامنة عشرة والثانية والعشرين ليأخذوا بجـــد الحصول على المعرفة الأكاديمية ، والتي ستكون بدون فائدة مباشرة لهم فيما بعد في حياتهم . إنهم اذاً يميلون ليكونوا كسالى في الجامعـة او اذا عملوا فانهم ليعملوا هكذا من مجرد عدم التفكير بوعي .

ومن أجل اولئك الذين تكون مهنتهم الأبحاث ، فإن الجامعات تكون مكاناً مدهشاً ، ولكن من اجل أغلب الباقين ، فانهم لدرجة بالغة بعيدون عن الاختبار في الحياة التي تتبع . انـــه من الممكن ان تقضي سنوات الجامعة في الحصول على علم كالذي له اختصاص مهني ، ولكن المحافظين على الاكاديمية يستعرضون هذا برعب . واعتقـد انهم مخطئون ، كما اظن أن العديد من الشباب الماهرين اصبحوا بدون ذوق ويساورهم الشك بواسطة الادراك ، أن عملهم ليس له اي اهمية حقيقية ، حينما يكونون في الجامعة .

إن هذا لا يحدث لأولئك الذين يدرسون الطب او الهندسة او الزراعة او اي موضوع آخر يكون هدفه واضحاً . ان السيد يميـل ان يكون أنيقاً اكثر من ان يكون نافعاً ، ولكن كي يكون انيقاً كفاية فإنـــه عليه ان يزود بدخـــل غير مكتسب . من اجل اولئك الذين عليهم

الحصول على تكاليف الحياة ، فانه من الحكمة بصعوبة ان تحاول الحصول على شكل من التربية يكون هدفها الرئيسي جعل الكسل مستحسناً .

إن التعليم المجرد كفكرة له مكانته في حياة المجتمع ، ولكن فقط من أجل اولئك القلة الذين سيخصصون طاقاتهم للأبحاث . من أجل اولئك الذين سيكونون منهمكين في مهن أخرى ، فانه سيكون مستحسناً لهم قضاء السنوات الاخيرة من التعليم في الحصول على مثل هذا العلم ، الذي سيمكنهم من ملاحقة مهنتهم بذكاء واتساع وجهة نظرهم .

ليس هناك مثل هذا الشيء في يومنا الحاضر كالثقافة العامة ، ولكن هناك ميل ، وخاصة في انكلترا ، لتحليل تلك العوامل في التربية التي ستمكن المرء أن يتكلم بذكاء واضح . بالإضافة الى أن المعرفة المستحصلة في الجامعة إذا كانت تماماً غير مختصة بمهنة عملية فانه من المحتمل أن تنسى عاجلاً .

فإذا جرى فحص الرجال المهنيين في سن الاربعين ، في المواضيع التي درست في الجامعة ، فانني أخشى انه في اغلب الحالات ستكون هناك معرفة قليلة باقية . في حين انه اذا كانوا قد درسوا شيئاً ما يمكنهم من مشاهدة مهنتهم بعلاقتها مع حياة المجتمع وفهم اهدافها الاجتماعية ، فانه من المحتمل على خبرتهم التالية أن يكون من شأنها إعطاء تخطيط لما قد تعلموه ، وتكون إذا قد سببت المعرفة لتبقى في ادمغتهم .

لقد عالجت فيما مضى عدم الفوائد العرضية الحاصلة من فوارق الطبقات ، ولكنني اتيت فقط على ايضاح عدم الفوائد الكبيرة ، التي هي اخلاقية . فحيثما عدم المساواة الجائرة تكون منتشرة فإن الشخص الذي يستفيد

منها يظهر ليحمي نفسه من فكرة الادانة بواسطة آراء يقترحها على أنه في ناحية ما هو أحسن حالاً من اولئك الذين أقـل حظاً ، وان آراءهم تشمل تحديداً للعواطف ومعارضة للعدالة وميلا للدفاع عن الوضع الراهن فهم هكذا يجعلون الأعضاء الأكثر حظاً في المجتمع خصوماً لكل تقدم ، الخوف يغزو أرواحهم ويرتجفون من جميـع القوانين التي يشتبهون ان لها ميولاً كابحة ، والتي تكون إذاً تهديداً لراحتهم الخاصة .

ومن الجهة الثانية ، فان الاعضاء الأقـل حظاً في المجتمع يجب أن يعانوا مثل هذا التلف الادراكي في انهم لا يدركون عدم العدالة التي هم ضحاياها . ومن هـــذا المؤثر من فقدان احترام النفس في أنهم راغبون في أن يرضخوا وينحنوا أمام الرجال الذين هم طبيعياً ليسوا أحسن من انفسهم ، او انـه يجب أن يكونوا مشحونين بالغضب والحقد ، يحتجون بحنق ويشعرون بحاسة كآبـــة مستمرة ، ويصبحون تدريجياً مستعرضين للعالم من خلال اعين مريضة ضحية الاجراءات التعسفية .

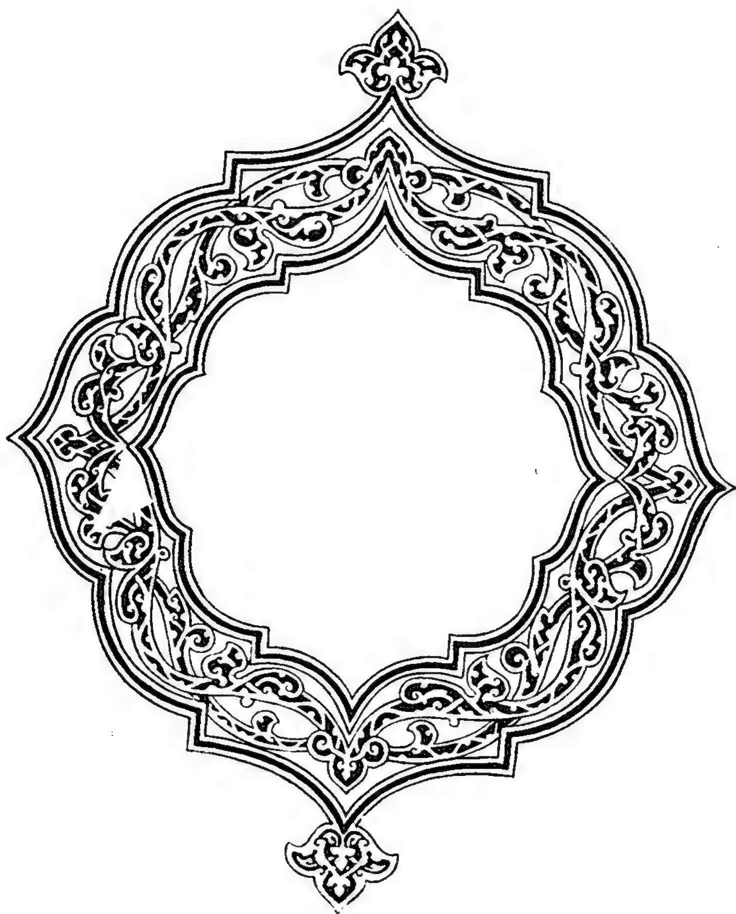
إن عدم العدالة المحتملة ، يكون لها هكذا وجهتان سيئتان . واحدة فيما يخص الحظ والاخرى فيما يخص سوء الحظ .

ولهذه الاسباب اكثر ممـا عن خلاصة الجودة في العدالة ، ومن أجلها خاصة ، يكون النظام الاجتماعي الجـائر شريراً . ففي مجتمع مرتكز على عـدم العدالة ، لا يمكن للجانب العلمي من التربية أن يكون كما يجب . وشعور الحقد الذي يعتبرونه في انفسهم هو سيء ، ومن المحتمل أن يكون قوة محركة ضرورية جداً للقضاء على عدم العدالة سواء فيما بين الطبقات والأمم او الجنس . ولكنهم لا يتوقعون أن يكونوا طبيعياً غير مرغوبين

بواسطة كونهم سياسياً ضروريين . ويجب أن يكونوا حجر ارتكاز للمجتمع الجيد ، الذي بـه يكون الشعور المفيد لأولئك الاطفاء الاصدقاء البنائين اكثر مما لاولئك الذين هم غاضبون ومدمرون .

إن هذا الاعتبار إذا اتبع فانه سوف يوصلنا بعيداً ، ولكن بالنسبة لوضعنا المثالي في التربية ، فانني أترك للقارىء أن يقوم بالجدال لنهايته .





١٢

التنافس في التربية

كان للأفكار السائدة في القرن التاسع عشر ان امتد بعضها الى عصرنا وبعضها لم يمتد . وتلك التي امتدت من اجل الجزء الاكبر لها حقل اكثر حصراً في يومنا هذا مما كانت عليه منذ مائة سنة ماضية ، ومن تلك افكار التنافس هي خير مثال . وأعتقد انه من الخطأ اعتبار الاعتقاد في التنافس كأنه عائد للداروينية ، فان العكس هو حقيقة هذا الحال : لقد كانت الداروينية عائدة للاعتقاد في التنافس .

وبينما لا تزال البيولوجية الحديثة تعتقد في التطور ، فقد كان عندها اقل اعتقاداً بكثير في التنافس كقوة محركة اكثر مما كان عند داروين ، وهذا التحول يعكس التحول الذي حل في الجهاز الاقتصادي للمجتمع . فان الصناعة باشرت التنافس في عدد ضخم من المؤسسات الصغيرة جميعها ضد بعضها الآخر ، وفي اول الامر مع مساعدة ضئيلة من الدولة التي كانت لا تزال زراعية وأرستقراطية .

ان الصناعيين الاوائل اعتقدوا في مساعـدة النفس ، وحرية العمل ، والتنافس . فمن الصناعة امتدت فكرة التنافس الى المجـالات الاخرى . فان داروين أغرى النـاس على أن التنافس فيما بين الاشكال المختلفـة للحياة كان السبب في التقدم التطوري . وان المربين أصبحوا يعرفون أن التنافس في غرفة الصف كان أحسن أسلوباً لإنماء الصناعة فيما بين الطلاب .

والاعتقاد في التنافس الحر قـديم ، استخدم من قبل ارباب العمل كجدال ضد الاتحادات المهنيـة ، ولا يزال مستعملا هكذا في الاجزاء المتخلفة من أميركا . ولكن التنافس فيما بين الرأسماليين انخفض تدريجياً . وان الميل كان من اجل اتحاد الصناعة الواحدة وطنياً ، وهكذا فان التنافس أصبح بصورة رئيسية فيما بين الامم . وأقل ممـا كان سابقاً فيما بين المؤسسات المتخلفة ضمن أمة راقية . وبنفس الوقت ، كان طبيعيـاً مجادلة الرأسماليين توحيد أنفسهم لتأخير الاتحاد بقدر الاستطاعة ، حيث ان الموظفين معنيون بشعارهم « بالاتحاد نقف والانقسام سقوط » .

فالتنافس الحر احتفظ هكذا به كفكرة عظيمـة في جميع اقـاليم الحياة البشرية ، إلا في فعاليات العظماء الصنـاعيين . حيث يكون العظماء معنيين فان التنافس يكون وطنياً ، ولذا يأخذ شكل تشجيع الوطنية .

إن فكرة التنافس في التربية كان لها نوعان من التأثيرات السيئـة . فمن الجهة الواحدة ، قادت الى تدريس الاحترام للتنافس ضد التعاون ، خاصة في الشؤون الدولية ، ومن الجهة الاخرى ، قـادت الى نظام واسع للتنافس في غرفة الصف ، وفي الجهد لتأمين منحة دراسية ، وتباعـاً في البحث عن وظائف ، ان هذا الدور الاخير لين نوعاً ما ، حيث يكون

الدخل المحدود معيناً بواسطة الاتحادات المهنية . ولكنهـــا احتفظت بين الرجال المهنيين بجميع قساوتها غير الحسنة .

ان احدى علل الاعتقاد بالتنافس في التربية هو انها قادت ، وخاصة مع أحسن التلاميذ ، لمقدار كبير من زيادة الثقافة . ففي وقتنـا الحاضر هناك ظاهرة خطيرة في كل بلد من أوروبا الغربية ، في حين انه ليس في شمال أو جنوب أميركا توقع أن يكون للأحداث ثقافة متزايدة بحيث تكون مدمرة للتخيل والعبقرية ، وحتى للصحة البدنيـة . ولسوء الحظ ، يعاني الأحداث الكثير من هذه الظاهرة ، ففي كل جيل تضحى أحسن الأدمغة والتخيلات على مذبح الإله الأعظم : المنافسة .

فالشخص الذي عنـــده كما كان عندي خبرة في الجامعـة ، لبعض أحسن العقول لجيل ما ، فان الخراب الذي يحصل من شدة العنف في الشباب يستحق الرحمة . فالجهـاز التربوي في الولايات المتحدة يكون بالعديد من السبل دون ذاك في غربي أوروبا ، ولكن في هذا الشأن ، فانـه أحسن مما هو في غربي أوروبا . والمتخرجون الشباب في أميركا نادراً ما يكون عندهم اتساع الثقافة او محض امتداد سعة الاطلاع ، التي توجد في نفس الدرجة في أوروبا ، ولكن عندهم حب المعرفة وحماس للابحاث وانتعاش للبداهة الإدراكية ، التي تكون عـــادة في اوروبا أعطت مكاناً منهكاً ودقة مستهترة . لتتعلم بدون التوقف عن حب التعليم يكون ذلك صعباً ، ومن هذه الصعوبة لم يجد المربون الاوروبيون الحل .

إن أول شيء يباشره المربي العـــادي في عمله هو قتل التخيل في الحدث . إن التخيل غير قانوني ، او غير نظامي ، فردي ، وليس صحيحاً

ولا غير صحيح . ففي جميع هذه الشؤون يكون غير مناسب للمدرس ، خاصة عندما يتطلب التنافس نظاماً صارماً من الموهبة . وتصبح مشكلة العلاج الصحيح للتخيل أكثر صعوبة من خلال الواقع انه في أغلب الاطفال ينهار طوعاً كالاهتمام في زيادة العالم الحقيقي . وان الراشدين الذين يبقى التخيل عندهم قوياً هم اولئك الذين احتفظوا من الطفولة بشيء ما من تحررها من الحقيقة ، ولكن اذا كانت تخيلات الراشد قيمة ، فان تحررها من الحقيقـــة يجب أن لا ينبع من الجهل ، ولكن من نقص معين في الاستعباد . ان Farinata degli Uberti أوضح جهنم باحتقـار عظيم رغم ان عليه العيش هناك للأبد . وهذه الصفة باتجاه الحقائق محتملة جـــداً لتنمي تخيلات مثمرة في الراشد .

وللعبور الى اعتبارات اكثر رسوخاً ، خذ مثالاً لهـــذا الشأن رسم وتصوير الاولاد . فان اغلب الاولاد من سن الخامسة الى حوالي الثامنة يظهرون تخيلات معتبرة من النوع التصويري اذا شجعوا ، ولكن يكون خلاف ذلك اذا تركوا احراراً . فالبعض في حين انهم أقليـــة نادرة ، قادرون على الاحتفاظ بالدافع ليرسموا بعد ان اصبحوا شخصياً منتقدين. ولكن اذا كانوا قد تعلموا لينسخوا باعتناء وليهدفوا الى تمثيل دقيق ، فانهم يصبحون بصورة متزايدة علميين اكثر مما لو كانوا فنيين ، ورسومهم تتوقف لتظهر تخيلات . فاذا كان هذا من المفروض تجنبه ، فعليهم ان لا يرشدوا الى كيفية الرسم بدقة إلا عندمـا هم انفسهم يسألون عن ارشادات . ويجب ان لا يسمح لهم ليفكروا ان الدقة تشمل موهبة .

ان هذا صعب للمدرس طالما ان جودة الفن هو شأن رأي وذوق افرادي ،

بينما الدقـة تكون عائدة لاختبارات منظورة . إن العنصر الاجتماعي في تربية المدرسة ، وحقيقة كونه واحـداً من افراد الصف ، يميل مـا لم يكن المدرس استثنائياً جداً ، ليقود الى التشديد في التحقيق الاجتماعي للتفوق اكثر ممـا الى الاعتماد على الصفة الشخصية . فـاذا كان سيحتفظ بالصفة الشخصية ، فان التدريس المحدود يجب ان يخفض لأدنى حـد ، ويجب ان لا يحمل الانتقاد لمثل هذا الحد ، حيث ينتج جبن في التعبير عن النفس . إلا أنه ليس من المحتمل لهذه القواعد ان توصل للعمل الذي سيكون ساراً للمفتش .

ونفس الشيء في عمر اكبر قليـلا ينطبق عـلى تعليم الآداب . فان المدرسين يظهرون ليعلموا كثيراً جداً ، وليعلموا قواعد غبية في الأسلوب ، مثل ذلك في الجملة التي تبتدىء مع « و » او « لكن » . فإن ارتكازات محدودة للقواعد يجب ان تلاحظ ، مع العلم انه حق القواعد ، تكون اكثر مرونة مما يفترض أغلب المدرسين . فأي ولد كتب :

« ولعنة عليه ذاك الذي يصرخ اولاً بالتمسك ، كفاية »

انـــه سوف يؤنب ليس فقط من اجل التدنيس ، ولكن ايضاً من اجل القواعد السيئة ، فيما يتعلق بالآداب وما يخص الرسم ، يكون الخطر اقل دقة ، ويجب ان يستبدل بالتفوق الفني . فان تدريس الآداب يجب ان يكون محصوراً في المطالعة ، والمطالعة من المفروض ان تكون محدودة اكثر مما تكون متسعة .

من الجيد أن تعرف عن ظهر قلب الاشياء التي منهـا يتوصل الفرد الى السرور الاختياري ، وتكون إجمالاً عديمة الجدوى من وجهـة نظر

الثقافة في الآداب ، لتطالع شيئاً ما مهما كان كلاسيكياً وهو لا يعطى للقارىء .

ان الآداب التي تقرأ بشراهة وبتعبير وطراز معروف انه بال ، في حين ان الآداب التي تطالع مرة ببرود ، تنمي تقريبـــاً محادثة الادراك الظاهري . فالطلاب عليهم طبعاً ان يكتبوا مثلما يقرأون ، ولكن مـــا يكتبونه يجب ان لا يكون منتقداً ، لا ان يبين لهم كيف يمكن ان يكونوا قد كتبوا احسن ، حسب رأي المدرس . ولدرجة مـــا الكتابة معنية ، فلا لزوم ان يكون هناك تعليم .

وللانتقال من التخيل الى العقل ، فاننا نجد نوعاً مـــا انحاثاً متشابهة متعلقة مع بعض اشياء اخرى معينة متصلة بالتعب . التعب يمكن أن يكون عاماً او خاصاً ، فالاسبق يعتبر فيما يتعلق بالصحة ، ولكن الاخير يحفظ في عقـــل كل اولئك الذين هم مشغولون في التدريب العقلي . لعـــل القراء يتذكرون كلب بافلوف ، الذي تعلم ليميز المستطيلات من الدوائر .

ولكن بما ان بافلوف عمل المستطيلات تقريباً مستديرة ، فلقد حل في النهاية نقطة ــ حيث كانت النسبة القصوى والدنيا المحاور ٩ – ٨ – والتي بهـــا قوة الكلب التمييزية تحيد عن الصواب ، وبعد هذا ينسى جميع مـــا سبق وتعلمه في موضوع الدوائر والمستطيلات . ان نفس الشيء حدث لكثير من الاولاد والبنات في المدرسة . فـــاذا ارغموا لحل المشاكل التي هي حتماً فوق طاقتهم ، فان نوعاً من الرعب المرتبك يحل بهم .

وليس فقط فيما يتعلق بالمشاكل الخاصة المعينة ، ولكن ايضاً فيما يتعلق بالأشياء الاخرى الفكرية المحيطة . وان العديد من الناس سيئون في

المواضيع الحسابية طيلة حياتهم ، وذلك لانهم باشروا بها عندما كانوا صغار السن لدرجة . فمن الطاقات التي تختبر في المدرسة قوة استخلاص المبررات ، حيث تكون الأخيرة لتطور ما يمكن مشاهدته من التفاصيل المجموعة في كتاب بياجيت Piaget القيم عن التمييز والاستدلال في الطفل . فان معلم الاحداث ما لم يكن انسانياً وخبيراً جداً ، لا يمكن أن يصدق ان الاحداث هم ذوو افكار مشوشة وطالما ان التجارب الشفهية قد حصل عليها ، فانه من المفروض ان الموضوع مفهوم .

والحساب والرياضيات تدرس بصورة عامة في عمر مبكر جداً ، مع ان النتيجة فيما يتعلق بذلك تكون ان الكثيرين من الطلاب يحصلون على حماقة مصطنعة كتلميذ بافلوف في الهندسة .

ولنمنع هذا النوع من التعاسة ، فانه من الضروري أن يكون عند الاساتذة بعض المعرفة النفسية وتدريب معتبر في فن التدريس ، وحرية معينة لتراخي دورة الدراسة حيث يكون ضرورياً . ومن المرغوب ان تعلم كيف تكون حالياً فكرة مرغوبة للفقير ، ولكن اولاد السادة لا يزالون يدرسون من قبل اساتذة غير مدربين . وهذه احدى النتائج غير المغرية للأبهة .

ان التعب يدمر نوعية الادراك الواقعي ، ويكون محزناً جداً . انه اقل بلاء ، في حين لا يزال يجد ضار ، وعدم التشجيع في صالح الاشياء التبصرية التي تنتج من حقيقة ان الكثير مما يدرس يكون (او على اقل تعديل يظهر) كلياً عديم الفائدة . خذ اي معدل من مائة ولد : فانني استطيع الكشف على ان تسعين منهم يتعلمون فقط خوفاً من

القصاص ، وتسعة من رغبة المنافسة للنجاح ، وواحد من حب المعرفة .

ان هـــذا الوضع المؤسف الراهن ليس من الصعب تجنبه . بواسطة وسائل مثل ساعـــات قصيرة ، دروس اختيارية ، وتدريس جيد ، ومن الممكن ان تكون السبب في ان حوالي سبعين بالمـائة سوف يتعلمون من حب المعرفة . وعندما يكون بالامكان إثارة هذه الفكرة ، فان الانتباه يصبح رغبة وغير مفروض بالقوة ، مع النتيجة ان التعب يكون قـد خفض لدرجة بالغة ، والذاكرة تحسنت بصورة ما .

وعلاوة على ذلك ، فان الحصول على المعرفة يأتي ليشعر به كسرور ، مع العواقب في ان يكون محتملاً ان لا يتابع بعد انتهاء الفترة السابقة من التربيـــة . وسوف يتضح ان الاكثرية يتعلمون في الساعات الاقصر للدروس الاختيارية اكثر مما في الاوقات الاطول من الفرض والانتبـــاه المهمل . ولكن المدرس يجب ان يختار الارشادات لعقلية التلاميذ ممـا يستحق ان يعرف ، وليس ليحاول أن يفزعهم بظواهر غير مخلصة في أن الرصاصة القديمة لها بعض الشذوذ الغامض .

هناك خطأ ادراكي واحد غالباً ما يكون في جميع مراحل التدريس ، إلا الدرجة العالية من تدريس الجامعة ، وهو تشجيع الرغبة والاعتقـاد على أجوبة محدودة ، تكون معروفة على الاسئلة التي هي امور مشروعة للنقاش .

انني اذكر مناسبة كان عدد منا يتناقش فيما تكون احسن مسرحيات شكسبير . وكانت غالبيتنا مهتمة في توجيه الجدال للآراء غير العـادية ، ولكن شاباً حاذقـــاً ، كان ارتفع من المدارس الابتدائية مؤخراً الى

الجامعة قد اخبرتنا الحقيقة ، التي كنا بدون حساب نجهلهـا ، على ان مسرحية هملت كانت احسن مسرحيات شكسبير ، وبعدها اقفل هـذا الموضوع .

ان كل رجل دين في اميركا يعرف لِمَ سقطت روما : طبعاً لفساد الاخلاق التي ظهرت بواسطة جوفينال وباترونيس Juvenal and Petronius . فالحقيقة هي ان الاخلاق اصبحت مثالية منذ حوالي قرنين قبل سقوط الامبراطورية الغربية ، وذلك كان غير معروف او مجهولاً .

إن الاولاد الانكليز يتعلمون وجهة نظر واحدة عن الثورة الفرنسية . وان الاولاد الفرنسيين يتعلمون وجهة اخرى ، ولا واحدة منها صحيحة ، ولكن في كل حـالة يكون التسرع لعدم الموافقة مع الاستاذ ، وقليل يشعرون بأي ميل يفعلون هكذا .

ومن المفروض على الاساتذة ان يشجعوا عدم الموافقة الادراكية من جانب تلاميذهم ، حتى يحثوهم ليقرأوا كتباً فيهـا آراء مناقضة لآراء المدارس . ولكن هذا يعمل نادراً ، مع نتيجة أن اغلب التربية تشمل تثبيت الاعتقادات غير الاساسية بـدلاً من روح الاستفسار . وهـذه النتائج ليس من الضروري أن تكون خطـأ من الاستاذ ، ولكن من المنهاج الذي يتطلب علمـاً كثيراً ظاهرياً مع الحاجة الناتجة عن التسرع والتحديد الزائد .

إن الصورة الأكثر خطراً من زيادة التعليم يكون تأثيرها على الصحة ، وغالباً الصحة العقلية . هذا الشر كما هو سارٍ في انكلترا يكون نتيجة للتسرع في تطبيق شعار الاحرار « تساوي الفرص » ، ولغـاية وقت

متأخر حديث ، كانت التربية امتيازاً لأبناء الأثرياء ، ولكن تحت تأثير الديمقراطية ، شعر بحق ، ان تربية أعلى يجب ان تكون مفتوحة لمن بإمكانهم الاستفادة منها ، وعلى ان الكفاءة للاستفادة هي بواسطة الاعتماد في الاساس على الذكاء . فان وجد الحل في نظام واسع للتلمذة معتمداً على الكفاءة التدريسية في عمر مبكر ، ولمدى واسع جداً على المنافسة في الامتحانات .

فان الاعتقاد في الفضائل المسيطرة المنافسة تمنع أي واحد من التأمل في أن الاولاد والبنات الراشدين يجب ان يكونوا عرضة للضغط الصارم المشمول جداً . فاذا كان الضغط فكرياً فقط ، فانه سيكون سيئاً لدرجة ، وينعكس على النجاح في فحص قصير بعد استعداد طويل اعتبر حالة ولد ذكي من عائلة فقيرة ، الذي يكون اهتمامه غالباً فكرياً ، ولكن رفاقه لا يهتمون بشيء من اجل الكتب . فاذا نجح في الوصول الى الجامعة ، فانه يمكن ان يأمل في عمل اصدقاء مقارنين له ، وأن يقضي حياته في عمل متجانس . واذا لا ، فانه يكون عرضة ليس فقط للفقر ، ولكن للعزلة العقلية . ومع النقيض السابق ، فهو متأكد تماماً ليعمل بشوق ، ولكن ليس بحكمة . وليدمر مقاومته العقلية قبل ان تنتهي دراسته .

بينما يكون الشر واضحاً لكل من يكون عنده خبرة للتدريس في الجامعة ، فان العلاج ليس سهلاً ليدبر . ومن المحتمل ان يكون غير مرغوب ، ومن المؤكد انه سيكون غير ممكن تقديم تربية جامعية لكل شخص . وقباعاً يكون بعض الاسلوب للاختيار ضرورياً ، والأسلوب يجب ان يعتمد بصورة رئيسية على الكفاءة الفكرية . انه سيكون من

الاحسن اذا لم يكن الضغط هكذا منتشراً كما هو عليه ، عندما تعتمد على الامتحان . واذا كان الاساتذة بإمكانهم اختيار قسم معين من طلابهم على قاعدة انطباعاتهم العامة ، فمما لا شك فيه ان هذا سيقود الى مقدار معين من الممالقة والتحبيذ .

ولكن من المحتمل ان هذه الشرور ستكون أقل حزناً من التي تنشأ في النظام الحاضر . فانه سيكون حسناً اختيار اولئك الذين سيحصلون على تربية جامعية في سن الثانية عشرة والتي بعدها يجب ان يكونوا عرضة للتنافس . ولكن فقط لأوضاع معقولة للصناعة . وفي سن الثانية عشرة يكون عليهم أن يختاروا من اجل الادراك للكفاءة الفعلية .

ان هذه موهبة في اختبارات الذكاء ، وهي مستعملة قليلاً في انكلترا ، في حين انه في اميركا يعتمدون عليها لحد ما ، وأظن ، انه لا يوجد هناك انصاف علمي . ان موهبتهم ليست خالية من الاخطاء – ولا اختبار بامكانه ان يكون ذاك – ولكنها تجلب أكثر او أقل نتائج صحيحة على وجه العموم ، وعلى انهم لا يتطلبون كل هذا الاستعداد المنهك المضني الذي يكون مطلوباً من اجل نوع الامتحان العادي .

ففي المناطق المتحضرة ، وحيثما توجد هناك كثافة كافية للسكان ، يتوجب أن يكون هناك مدارس خاصة لكل ولد وبنت مجدين ، كما ان هناك ايضاً مصحات من اجل من عندهم نقص عقلي . فبداية من هذا النوع عملت في اميركا[1] . ولكن لا تزال لغاية الآن على نطاق ضيق .

---

(١) راجع الاطفال الموهوبون ، تأليف هولنغ ورث ، الفصل الرابع والخامس .

إن من بعض النتائج الهامة على سبيل المثـال ، الولد الذي يكون مجموع علاماته للذكاء ١٩٠ (ومائة هي المعدل) قد وجد في مدرسة عادية حيث لم يكن له اي أصدقاء وكان يعتبر مثل المجنون . لقـد انتقل الى صف خاص للاولاد مع معـدل ذكاء ١٦٤ ، حيث اعترف بـــه بسرعة كقائد « وانتخب لكثير من مراكز الثقة والشرف » .

ان مقداراً كبيراً من الألم الذي لا حاجة له والاحتكاك سوف يؤمن للأولاد الحاذقين اذا لم يرغموا ليتحدوا برغبة مع الاقران البلهاء . فهناك فكرة ان الصقل ضد التنوعات في عهد الصغر هو تحضير جيد من اجل الحياة . فان مؤلفي الكتب ليسوا ملزمين ليعيشوا فيما بين رجـال الدين ولا رجال الدين فيما بين مؤلفي الكتب .

ففي الحياة ، تعطى فيما بعد مهنة الانسان ووضعه دلالة عن مصالحه وإمكانياته . وكان لي في يومي اني عشت في مختلف الرتب الاجتماعية مع دبلوماسيين ، زعماء ، مسالمين ، مساجين وسياسيين — ولكن لم اجد في مكان النقاش الحاد وعدم الاكتراث لمجموعة من الاولاد ، ان القسم الاكبر من الاذكياء لم يتعلموا بعد ليخفوا ذكاءهم ، واذا هم عرضة لقصاص دائم على حساب غرابتهم . والاكثر تناسياً بينهم تعلم في وقت ليظهر عادياً وليسبغ على نفسه مظهر نعومة وبلاهـــة ، ولكنه ليس بمقدوري ان ارى ذلك الدرس يستحق التعلم .

فاذا سرت عبر مزرعـة ، بإمكانك ان ترى الابقار ، والاغنـــام ، الخنازير ، الماعز ، الوز ، البط ، الدجاج والحمام جميعها تسلك طرقها العديدة ، ليس هناك احد يفكر انه يتوجب على البطة الحصول على تناسق اجتماعي

بتعلمها لتسلك مثل الخنزير ، مع العلم ان هذا ما فكر به هكذا للاولاد في المدرسة ، حيث يميل الخنزير ليكون الارستقراطية .

إن فوائد المدارس الخاصة للاولاد الأذكياء تكون عظيمة جـــداً . وليس فقط انهم سوف يتجنبون العقاب الاجتماعي ، وبذلك يتخلصون من الألم الكثير والتعب الشعوري وجميع الدروس في التخـــاذل ، التي تسبب للراشدين المـــاهرين غالبـــاً ان يؤجروا ادمغتهم لخدمـــة الأقوياء الاغبياء .

ومن وجهـــة النظر الفكرية بإمكانهم ان يتعلموا بسرعة اكثر ، ولن يكون عليهم معاناة عبء سماع اشياء يفهمونها تماماً ، مما تكون تشرح للاعضاء الآخرين في الصف . وعلاوة على ذلك ، فان محادثتهم مع بعضهم البعض من المحتمل ان تكون من نوع تثبيت العلم في ذاكرتهم ، وبالامكان ان يكون وقت فراغهم جيداً بدون الخوف من السخرية .

لا شيء بإمكانـــه ان يحث ضد مثل هـــذه المدارس الا المصاعب الادارية . وذلك الشكل من الشعور الديمقراطي الذي له عنصره في الحسد . فحالياً كل ولد حاذق او بنت يشعر باستغراب ، وفي مثل هـــذا المحيط سوف يختفي هذا الشعور .

إن احـــدى المصاعب لكل جهـــاز تربوي هي ان الراشدين يكونون كقاعدة ، ليسوا اساتذة ، وليس عندهم الخبرة المطلوبة لمعرفة ماذا يكون ممكناً وماذا يكون غير ممكن . فعندما يباشر الأنسان التعلم ، ما لم يعلم فئة مختارة من الطلبة الأذكياء بصورة خاصة ، فانه يجد فجأة ان الناس حديثو السن يتعلمون اقل بكثير وأكثر بطئاً بكثير ممـــا افترض هو ،

ان الموضوع يمكن ان يستحق المعرفة ، ولكن مهما يكن لا يستحق التدريس لانه في الوقت الحاضر لا يتعلم اغلب الطلاب شيئاً منه . وان ميول اولئك الذين يضعون المنهاج بدون ان يكون عندهم خبرة في التدريس ، يضعون فيه كثيراً جداً ، مع النتيجة ان ولا شيء يعلم تماماً .

ومن الجهة الاخرى فان الاساتذة ذوي الخبرة ، من الملائم أن يكون عندهم القواعد المختلفة ، التي تكون غير مرغوبة تماماً . والميل الكلي هو أن يضع التلاميذ في نظام البداهة ، وتفضل تلك المواضيع التي لا يمكن أن يكون بها أي شك . مثل أن يكون الطالب قد قدم الجواب الصحيح .

إن المشكل الطويل للقواعد اللاتينية عائد نسبياً لهذا المصدر . والحساب لنفس السبب مقدرة قيمته اكثر . وفي المدارس الانكليزية الابتدائية يستغرق اكثر بكثير من الوقت مما يجب أن يستغرقه . والانسان العادي عليه أن يكون قديراً لعمل الحسابات ، ولكن خلف ذلك من النادر أن يكون عنده مناسبة للمبالغ . وماذا يمكن أن يكون قد تعلم من حساب معقد ، سوف لا يكون ذا فائدة عملية بالنسبة له في الحياة فيما بعد اكثر مما يكون اللاتينية التي كان بامكانه تعلمها في نفس الوقت . وأقل استعمالاً مما بامكانه تعلمه عن علم التشريح وعلم وظائف الأعضاء وعلم حفظ الصحة البدائي .

إن مشكلة التعليم المتزايد هامة وصعبة . هامة لأن الشخص الماهر الذي حاز على تعليم زائد يفقد اختياره في ثقة النفس والصحة ، وبهذا يصبح عضواً أقل نفعاً للمجتمع مما كان يجب أن يكون . وصعبة لأن

فوضى المعرفة السارية تنمو اكبر ، حيث اصبحت بصورة متزايدة شاقة لتعرف كل ما هو متعلق بها . وكلاهما يكون في المسائل المعقدة العملية بصورة بالغة ، وفي الاكتشاف العلمي . لذا ليس بامكاننا تجنب شرور التعليم المتزايد بمجرد القول « دع الاولاد والبنات يجرون بطيش وان لا نكترث بالتعليم المتزايد » .

فان جهازنا الاجتماعي يعتمد بصورة متزايدة على الذكاء المدرب والتعلم. وكآبة العلم على اتساعها هي بصورة بالغة عائدة لفقر في التربية من جانب الرجال العمليين . فإذا كان الصرافون والسياسيون يفهمون النقد والرصيد ، فانه يتوجب علينا جميعاً من الاعلى الى الاسفل أن نكون اثرياء اكثر بكثير مما نحن عليه .

إن تقدم الفكر – ولنأخذ ايضاحاً آخر – ليس بإمكانه متابعة أي شيء مثل سعره الحالي ، ما لم يكن الانسان بإمكانه أن يصل الى حدود المعرفة السائدة في الوقت الذي يكون فيه في سن الخامسة والعشرين ، طالما أن قلة من البشر قادرة على التوصل الى الأساس العميق بعد عمر الثلاثين . والمواطن العادي ليس بإمكانه أن يلعب دوره في عالم مرتبك ما لم يكن اكثر تعوداً مما هو حالياً ليستعرض الاصدارات العملية كأمور تقرر بواسطة الادراك لكتل الحقيقة ، اكثر مما تكون بواسطة الشعور الضار والكلام الفارغ . فلجميع هذه الأسباب ، التربية الادراكية هي ضرورة حيوية في النظام الاجتماعي الحديث .

ومن المفروض أن تكون هناك ارشادات كافية ، وأن تكون هناك شرور التعليم المتزايد . وهذا يتطلب ثلاثة اشياء : الاول والاقصى أن

يكون هناك قليل من الضغط الشعوري بقدر الامكان فيما يتعلق في الحصول على المعرفة ، وهذا يتطلب تطورات عظيمة في نظام الامتحانات والتدريس والتفريق حيث يكون ممكناً بالنسبة للطلاب الأذكياء . ان الضغط الشعوري هو العنصر الرئيسي للتعب الضار ، وبصورة واضحة ان التعب الفكري مثل تعب العضلات يعالج كل ليلة اثناء النوم ، ولكن التعب الفكري يمنع النوم الكافي ، ويجعله غير مريح بواسطة الاحلام السيئة. فاثناء التعليم ، يجب أن يكون للأحداث بقدر الإمكان كيان مرح .

والشيء الثاني المطلوب هو إزالة كلية الإرشاد التي تخدم هدفاً غير مفيد . انني لا اعني ان على الاطفال والاحداث ان يحصلوا على ما هو مشروط ومفيد ، ولكن عليهم ان لا يتعلموا اشياء كانت دائماً تقريباً . فإنني كنت اسأل باستمرار الأحداث الذين انتهوا من المدرسة مؤخراً مما تعلموه من التاريخ . ولقد وجدت بصورة عامة أنهم درسوا التاريخ الانكليزي من هنكست Hengest وهورسا Horsa لنورمان الفاتح Norman conquest مرة تلو الاخرى في كل صف جديد ، وانه خلاف ذلك لم تعرفوا شيئاً . لعلي أكون وحيداً في ذلك ، ولكنني لم أجد نفسي بعد في وضع حيث كانت الحقيقة مفيدة لأعرف عن (مثلاً) علاقات ممالك ميرسيا Mercia ووسيكس Wessex في القرن الثامن . هناك الكثير في التاريخ يستحق المعرفة بغزارة ، ولكن هذا يدرس بصعوبة في المدارس .

أما المطلب الثالث فهو أن جميع الارشادات العليا يجب ان تعطى بوجهة نظر لتعليم الروح والتكنيك للاستعلام اكثر من مقام اذاعة الأجوبة الصحيحة للسؤالات . فهنا مرة ثانية تلام الامتحانات . فالشخص الشاب

الذي عليه ان يجتاز (مثلاً) امتحاناً ابتدائياً في الأدب الانكليزي من الممكن ان ينصح حسناً لأن يقرأ كلمة واحدة لأي من الكتاب العظام ولكن ليتعلم عن ظهر قلب بعض كتب تعطي جميع المعلومات الا ما لا يستحق الحصول عليه . فمن اجل شأن الامتحانات على الناس حديثي السن ان يتعلموا عن ظهر قلب جميع انواع الاشياء مثل التواريخ ، التي تكون اكثر جدية لتطلع في كتب تشار اليها .

والنوع الملائم من الارشادات يعلم استعمال الكتب ، وليس مهارة الذاكرة عديمة الجدوى التي خططت لجعل الكتب غير ضرورية . فان هذا معترف به تماماً فيما يتعلق بعمل خريج الجامعة ، ولكن يتوجب ان يعترف به في طور مبكر جداً من التعليم . وان ابحاث الطالب يجب ان تحكم بواسطة الاستقامة او خلافها من النتيجة القائدة اليها ، وليس بواسطة امتداد المعرفة ومعقولية الجدال . فان هذا الاسلوب سوف يجعل الحصول على المعرفة شيقاً ، وبذلك يخفض لدرجة بالغة الجهد لإرغام شخص ما ليعطي انتباهاً لما هو منهك ، ولذلك فان أي أسلوب يزيل العبء ، هو ايضاً يزيل أغلب التعب .

بواسطة هذه الأساليب ، سيكون ممكناً أن يصبح متعلماً تعليما عالياً بدون تعريض الصحة وحسن الاختيار للخطر . ولكن هذا لن يكون ممكناً حين يكون طغيان الامتحانات والتنافس مستمراً . فإن التنافس ليس شيئاً فقط كحقيقة تربوية ، ولكن ايضاً فكرة للتمسك بها قبل الاحداث . فما يحتاج اليه العالم الآن ليس التنافس ، ولكن التنظيم والتعاون ، فإن كل اعتقاد في توحيد التنافس قد اصبح غير متناسق . وحتى اذا التنافس كان مفيداً ، فانه ليس بحد ذاته مستحسناً ، طالما ان الشعور

المتصل بـه هو شعور العداء وعدم الاكتراث . والرأي بمجتمع كمجمع أساسي يكون صعباً جـداً لأولئك الذين تكون عقولهم منغمسة بأفكار التنافس . إنه أدبياً وليس اقل عن وجهة النظر الاقتصادية غير مرغوب فيه لتعليم الأحداث ان يكونوا منافسين .



١٣

التربية في ظل الشيوعية

رأينا في الفصول السابقة الشرور الناجمة عن التربية بواسطة المؤسسات ذات الملكية الخاصة وارتباطها مع العائلة الفاضلة . والآن علينا أن نبحث ما هو في ظل الشيوعية ، الشرور الاخرى المعادلة المتوقعة او عكسها ، انه بالإمكان أن تكون التربية العامة احسن في ظل الشيوعية اكثر مما كان باستطاعتها في ظل الرأسمالية .

ان وضع التربية حالياً في الاتحاد السوفياتي يجب ان يعتبر في هذا الشأن ، وهو طبعاً ليس بواسطة اي وسائل قطعية ، طالما ان روسيا لا تزال منهمكة في اعمال الانشاء ، وانها لا تزال بعيدة عن الهدف النهائي . وهي اكثر تربية من اجل هدفنا في ان نبحث ماذا تأمل وتقصد حكومة الاتحاد السوفياتي أكثر مما توصلت اليه . فما عمل لغاية الآن هو ضروري في طبيعة المساواة . ففي مطلع الثورة ، كان معظم

الاغلبية من الروس أميين ، والمزارعون الذين يشكلون ٨٠ في المائة من عدد السكان كانوا محافظين جداً في عقليتهم . وأن النقص في الرأسمال ، والنقص في المبـــاني المدرسية ، والنقص في المدرسين ، جميعهـــا كانت عقبات أليمة .

وبالرغم من جميع هذه المصاعب ، فان الكثير قد عمل لجعلها واضحة فيما سيكون نظام التعليم عندما تنجز . اننا سنبحث اذن ماذا أنجز لغاية الآن في التربية ، وبعدها نحاول شرح المستقبل المقصود للتربية .

ان اكثر او اقل احصاء رسمي قدّم من قِبل ب . بينكيفتش P. Pinkevitch رئيس جامعة الولاية الثانية لموسكو في كتابه عن التربية الجديدة في الجمهورية السوفياتية ، نشر في لندن من قِبل وليـــامز ونوركيت ليمتد .

هذا الكتاب يمكن قبوله كمرجع رسمي لجميع الاسئلة بالنسبة للمنظمات التدريسية وأهدافها الحـــالية . والكثير من القراء سوف يفاجأون حين يجدون كم يوجد هناك تشابه لما هو قائم في البلاد الغربية .

ان تعليم الاولاد ليقرأوا ويكتبوا ويعملوا حسابات هو قطعـــاً من التطبيق الفني الذي ليس متـأثراً بالنظام الاقتصادي . والأسئلة بالنسبة للصحة هي ايضاً غير قابلة للجدل . ولكن علاوة على مثل هذه الأمور ، فانه توجد هناك أنظمة الكشافة في تدريس اخلاقية المدرسة ، وفي تقرير الاخلاص للدولة ، وهلم جراً ، الـتي تقريبـــاً مشابهة لتلك المستعملة في انـكلترا واميركا . وشيء مـــا من وجهة النظر المألوفة لعميد الجامعة كما هو معروف في الولايات المتحدة يخرق من خلال الاسلوب الشيوعي غير

المألوف . وبالرغم من هذه الأصداء الأنظمة الأقدم ، فانه مهما يكن هناك الكثير فهو جديد ، وما هو جديد له اهمية بالغة .

والارتباط الودي فيما بين التربية والنظام الاجتماعي الذي سبق وشرح في الصفحات الماضية أكد طبعاً بدرجة محدودة جداً من قِبل الشيوعيين . فان بينكيفتش ذكر من تعـــابير لينين عن المدارس في البلاد الغربية الرأسمالية :

« إن الدولة البرجوازية التي كانت اكثر ثقافة ، هي الاكثر دهـاء في الخداع » مؤكداً ان المدارس بإمكانها ان تبقى خارج السياسة ، وهكذا تخـــدم المجتمع . ففي الحقيقة كانت المدرسة أداة كلية لسيطرة الطبقية في ايدي البرجوازيين ، وكانت طيـلة الوقت مشحونة بروح الطائفية ، وهدفها كان لاعطاء الرأسماليين عبيداً الزاميين وعمالاً أكفاء .

ففي البلاد الشيوعية ، تكون المدرسة أداة لسيطرة الطبقية في أيدي البروليتارية . ولا يوجد هناك أي تدريس للسلوك خلافاً لمـا هو مفيد للعمال في كفاح الطبقة .

ونقل عن لينين مرة ثانية قوله : « اننا ننكر أي نوع من الاخلاق يكون مأخوذاً من الفكرة اللاإنسانية وغير الطبقية ، ونعتبر مثل هذه الاخلاق كخيانة وخداع تقفل أدمغـة العمال والمزارعين لصالح اقطاعيي الارض والرأسماليين ، وأننا نقول أن اخلاقنا تكون خاضعة كلياً لصالح الطبقة الكادحة من البروليتارية » .

وأنهـا لتظهر تتبع ذلك عندما توصلت البروليتارية الى نصر محتم ، وهكذا لم يعد هنـــاك اي كفاح طبقي ، ولم يكن هنـــاك اي شيء

كالأخلاق . وبينكيفلش ، مهما يكن ، سمح لفكرة نوعاً مـــا اكثر ايجابية لتظهر حين قال :

« ان هدف الطبيعة والارشادات العـــامة في روسيا السوفياتية هو المساعدة في جميع التطورات الصحية ، القوة ، الشجاعة الواقعية للانسان المستقل فكرياً وعملياً ، متعرفاً بالجوانب العديدة للثقافة المقترنة ، والمبدع والمحارب في صالح البروليتارية وتباعاً في التحليل النهائي لصالح جميـــع البشرية » .

ومن خلال حذف الاشارة الطارئة الى البروليتارية في هذا التعبير ، فاننا حصلنا على فكرة محدودة جداً لا تشمل شيئاً بوضوح للشيوعية . ولكن في فترة الانتقال تلعب الدعاية دوراً كبيراً ، وأثنـــاء هذه الفترة « فان الهدف هكذا لنتكلم عمـــا هو تعليم العقيدة للشباب في فلسفة البروليتارية » .

وقـــد اعترف بنيكيفلش انه « من وجهة نظر تشكيلات سلوك الأحداث والأطفال في انها بدون منازع أهم فترات الحياة » . فهو أعلن انهـــا ستكون مرغوبة اذا اعتني بالأطفال في مؤسسات ليس فقط من أجل خاطرهم ، ولكن ايضاً كي ندرك تماماً الدولة الاشتراكية التي بها المرأة تحررت من الذل والغبـــاء والاداة غير المنتجة ، تحتل مكانها جنبـــاً لجنب مـــع الرجل . ففي كل من الطفولة والقصور يفكر ان المدرسة ذات تأثير احسن من العائلة .

ان انتقادنا الرئيسي للمدارس المقارنة هو انهـــا تتعاطى مع الاطفال الذين يقضون ربع وقتهم في الخـــارج ، وبعيـــدين عن نفوذ المدرسة مع

الاطفال الذين يأتون الى المدرسة لمعلومـات وتقاليد معينـة ، وعلى أقل تعديل الى ميل باتجاه وجهة نظر معينة عن العـالم . وبدون ادنى شك فان بيت الطفل حيث يدخل الاولاد والبنات فيه عهد الطفولة او اليفاعة المبكرة ، ويبقون لغاية اقتراب عهد الرجولة ، يقدم شكلا تاماً من التربية ففي بيوت الاطفال ، بإمكاننا أن نوجد بدون ظروف معيقة نوع المحيط المثقف الذي نحن مدرسي اليوم نتوق اليه . ونجـد أنفسنا غالباً عاجزين في المدارس اليوميـة العـادية نظراً لتفوق قوة البيت والعوامل الاخرى الخارجية .

إن مطامح الحكومة السوفييتية قد جعلت واضحة بواسطة هـذه التعبيرات ، ولكن من أجل الحاضر فهم ليسوا أكثر من طامحين ، وفقط ٤ أو ٥ ٪ من الاطفـال الذين في سن مـا قبل المدرسة يعتنى بهم بواسطة نوع من المؤسسات . ان التعليم الدولي الاجباري محصور حاليـاً في اربع سنوات من سن الثامنة للثانية عشرة ويقضي في المدارس الابتدائية .

أثنـاء فترة الدراسة سواء كانت طويلة او قصيرة ، فان المدارس الروسية تختلف عن تلك في البلاد الاخرى ، في كونها أقل علمـاً وأقل بكثير تركيزاً في بلوغ المعرفة . فالمعرفة يجب أن تكون الهدف ، بل ان تكون أكثر طبيعياً وانتاجاً عرضياً لنوع معين لمنظمة حياة الاولاد في المدارس .

ففي الحقيقة يجب أن نجعل مدارسنا « حيـاة مدرسية » . ففي عمل المدرسة يكون الاتصال بصورة ودية بالحقيقـة ، والمكان الواضح يعطى للعمل المنتج . فان الجهاز الكلي للمدرسة عليـه أن ينمي تطور الغرائز الاجتماعية ويجهز تدريبـاً اشتراكياً للثوريين الشيوعيين في المستقبل .

الاولاد في المدرسة لا يتعلمون الدروس فحسب ، بـــل والعمل اليدوي المفيد ايضاً ، وذلك بقدر ما تسمح به قوتهم ومهارتهم . ويعملون هـــذا ليس كتعليم ولكن كجزء من واجبات المواطن .

إن بنكيفتش يتكلم عن القاعدة الهائلة الاجتماعية والسياسية للعمل في المدرسة ... فطالما ان العمل ينظر اليه كشيء ما مفيد او قيم من وجهة نظر التدريب الآلي ، فانه يجب أن لا يكون عندما تستحق مدرسة أن تحمل اسم الاشتراكيـــة او الشيوعية . وعلى طلابنـــا أن يشعروا بأنفسهم أنهم أعضاء عاملون في منظمة عمالية . هذه هي احدى أهم ظواهر التربية في روسيا .

ولم يوضح بنكيفتش بتفـــاصيل كثيرة عمـــا يشكل عمل الأولاد وكم ساعة من المنهاج تكون مخصصة لها ، والمهن القانونيـــة في الانتاج الفعلي في المعمل او المطحنة . فهو يقول انهـــا تكون جزءاً من العمل اليـــدوي للمدارس بفكرة انهم يتناسقون مع المنهاج التعليمي . ففي النواحي الريفية ، فإن العمل في المزارع يحل مكان العمل في المصانع وبالنسبة لهـــذا فان جوليان هكسلي يقول حقيقة [١] :

ان هذا الارتباط للمدارس الريفية مع المزارع هو اكثر بكثير ليحكى من اجله ، اكثر من تلك المدارس في المدن التي بها مصانع . ومن اجـــل الزراعة هناك موضوع واسع ، بينما كل مصنع يتعاطى فقط بفرع اختصاصي من الصناعة ، فان الزراعة اكثر تناسباً مع حيـــاة الريف من الصناعة

---

(١) في وسط العلماء السوفييت ، صفحة ١٠٢ .

المتناسبة مع حياة المدن . وان انسجام المدرسة مع المزرعـة كجزء مكمل لمؤسسة افرادية جيد من وجهة النظر التعليمية .

ووجهة النظر هذه ، مهما يكن ، هي اصلاً مختلفة عن تلك التي عند المرشدين السوفييت ، الذين جعلوا عمل اولاد المدارس نوعاً مـا في ضوء النظام السلوكي . « وبينما الدراسة ضرورية » ، يقول بنكيفتش : « ان تعاليم فعاليات الحيـــاة العملية لا تكون اقل ضرورة . ففي مدرسة عمالية اشتراكية تكون الفعاليات اجتماعية ، وبالطبع تكون نافعـة .. » هل نحن نعتبر اجتماعياً العمل المفيد ، كعمل له صبغة اجتماعيـة للمدرسة وتلاميذها ، او كعمل للمدرسة يكون مفيـداً للمجتمع المحيط بهـــا ؟ ان اسلوبنا في التفكير بالمعنى المطلق للمشكل يعتمد على تقبـــل التعبير الثاني . وذلك في القول ان عمـل الاولاد يجب ان يكون عملاً اعتبارياً ضرورياً وليس عملاً خاصاً اختير على حساب القيمة التربوية .

ان العمل المفيد اجتماعيـــاً في المدرسة يقسم الى قسمين رئيسيين : الاول ، يشمل الاثارة والدعاية . والثاني ، يشمل العمـل العملي . فتحت العنوان السابق يثار الاولاد على تنوع عظيم من المستويات ، فمثلاً دوران الحصول من اجـــل « الاكثر استحقاقاً » للمرشحين في الانتخابات ضـد الدين ، الملاريا ، البق ، التدخين والسكر . وان الجهد العملي يظهر تنوعـــاً مشابهاً . فالاولاد الذين يكونون مشغولين في تعقيم الجراثيم باهـتمام بالغ ، وفي شره التمارك بواسطة غرس الاشجار ، وفي تمديد الكهرباء الى بيوت المزارعين ، وفي توزيع النشرات الانتخابية ، وفي قراءة الصحف للأميين ، وفي إقصاء الطفيليين ، وفي مساعدة الارامل المحتاجين .

ليس هدف المدارس السوفييتية فقط تفهم العــالم ، ولكن تطويره . وهدفها كما ذكر بنكيفتش هو « اعادة انشاء العالم وفقاً لنظرية ماركس » فان مجمل الفكرة للادراك العابر تكون غريبة بالنسبة للنظــام ، وهذا يجب ان يتذكر اذا كان النظام سيحكم بانصاف .

واعتقد انها كانت كالروسيين اكثر منها كالماركسيين ، حيث ان المؤتمر الخامس والثلاثين لجميع روسيا في فترة ما قبل التربية المدرسية اختــار الحلول التالية : « ان الموسيقى يجب ان تتخلل كلياً حياة الطفل ، وان يكون هناك موسيقى اثناء العمل ، موسيقى اثناء اللعب وموسيقى اثناء الاعياد . فالمدرس عليه ان يأخذ بعين الاعتبار الخلق الشخصي للطفل ، ومن خلال تنظيم اركسترا وغناء جماعي يجهز بالخبرة الموسيقية الضرورية ». ان هذا يستحق الاعجاب ، ولكن ليس بإمكاني الاعتقاد ان ثورة شيوعية سوف تجعل الانـكليزي موسيقياً ..

إن العقلية الحربية ضرورية في روسيا ، نظراً لعــداء البلاد الاخرى للشيوعية ، حيث ادخلت الى التربية عدد من الظواهر التي هي تقريبــاً مشابهة لتلك التي نتجت عن الوطنية في الاماكن الاخرى . فان « الرواد الشباب » هم نسخة عن الكشاف ، وعندهم تقريباً نفس القوانين والوعود وقوانينهم هي :

١ ــ العامل هو حقيقة لمبرر الطبقة العاملة ووفقاً لآراء لينين .

٢ ــ العامل هو الأخ الاصغر والمساعد الى الكومسومول والشيوعي .

٣ ــ كما إن العامل رفيق للرواد وللشغيلة وأولاد المزارعين في العالم .

٤ – العامل ينظم الاطفال المحيطين ويساهم معهم في الحياة المحيطة : العامل مثال لجميع الاطفال .

٥ – إن العامل يكافح من أجـل المعرفة ، والمهارة والمعرفة هما قوة في الكفاح لصالح العمال .

العامل يقسم ايضاً اليمين المعظم :

« أنا عامل شاب في الاتحـــاد السوفيتي ، في حضور زملائي اقسم بشرفي : (١) انني سوف ادافع بثبات عن صالح الطبقة العاملة في الكفاح من أجل تحرر العمال والمزارعين في العـــالم . (٢) وانني بشرف وبدون تهاون سوف انفذ توصيات لينين وقوانين وعادات الرواد الشباب » .

ومــع كل فاننا أعلنـا علناً أن الحكومة السوفيتية لا تعتقد في التربية « الاخلاقية » ، فهناك ذوق ظاهر للاخلاق ، بامكان المرء القول في تعظيم الذات عن تلك القوانين والوعود . إن صورة الرائد الشاب المكافح من أجل المعرفـة ، كونه نموذجاً لجميع الاولاد ، يعود الى كتب التقوى للأولاد في شبابي » .

فالى اولئك الذين اصغوا الى دعاية الرجعية ، فانها ستأتي لهم مفاجأة ليجدوا ان صفات السوفييت في تربية الجنس هي بعيدة عن الواقعية . « ان دور المدرس والآباء » كما يقول بنكيفتش هو « لحماية الولد ضد الاثارة غير المتوجبة لصالح الجنس » . ونشاط الشباب « يجب أن يوجـــه باتجاه الثقافـــة الطبية والرياضة الفعالة ، العمل اليدوي ، والنشاط الفكري ، والحركة العماليـة ، وجميع اشكال العمل الاجتماعي الذي يتطلب مقداراً

معتبراً من القوة البدنية . فاذا تمددت قوة الطفل بصورة اعتيادية في هذه الاتجاهات فانه لن تبقى قوة للتطور المثير في ميول الجنس » .

إن التربية المشتركة موافق عليها كمنخفض لجاذبية الجنس فيما بين الاولاد والبنات . والمعلومات عن المواضيع الجنسية يجب أن لا تكون متزايدة طالما انها « اذا كانت فان النتيجة تكون فقط اثارة غير صحيحة ، والواحد بامكانه أن يفترض صفات فضيلة غير كافية باتجاه علاقات الجنس » . لقد رفض بذعر الاقتراح انه يتوجب على الاطفال أن يراقبوا النكاح في الكلاب ، الدجاج ، المواشي ، والخيول . ويقال : « ان مسألة الجنس لم تكن منفردة لتحليل منفصل وخاص ، فان انتباه الاولاد والراشدين سوف لا يكون محدوداً بهم » . انه يشار الى أن سؤال الجنس يجب أن يكون خاضعاً « لمشاكل اخرى اكثر اهمية » . فجميع هذا يمكن أن يكون سليماً او غير سليم ، ولكنه لا يظهر أي شيء متعلق بالثورة . إلا من أجل تحليل التربية المشتركة ، التي من الصعب أن تدعى جائرة ، وان الآراء المعبر عنها تكون باتفاق واقعي مع تلك لمدراء المدارس الانكليز .

ولتقدير وجهات نظر التربية في ظل الشيوعية من التجارب الحالية في روسيا ، ليس ذلك من السهل . ليس فقط ان هناك وجهات نظر هامة تكون بها مقاصد الحكومة لم تنفذ بعد ، ولكن ما هو اكثر اهمية هو عقلية الحرب الناتجة عن صراع العالم على نطاق واسع فيما بين الرأسمالية والشيوعية . هكذا يسود المدارس في انه من الصعب التكهن كيف انها ستتطور اذا كانت الشيوعية في كل مكان منتصرة .

ولما كنت شخصياً في روسيا عام ١٩٢٠ كان قد أنجز القليل . ففي ذاك الوقت رأيت مدارس حضانة ، حيث كان الاطفال سعداء ، والعناية الصحية كانت ممتازة . ولكن حيثما يكونون عرضة لدعابة شديدة ، فانهم يتمكنون من التكلم . ولقد رأيت مدارس لأولاد اكبر ، وكانت تعمل أقصى جهدها بالرغم من الفزع لنقص المعدات . وتكلمت مع اساتذة الجامعات الذين كان وضعهم بعيداً عن التوافق ، ولكن هذه الخبرة لها فائدة قليلة نظراً للتطورات المتتالية . كما بالنسبة لها ، فقد اصبح عندي فائدة اول تقارير شخصية .

أما ما يتعلق بالدين والجنس فيظهر حالياً أنهما يكوّنان فارقاً بسيطاً فيما يتعلق بالمدارس الروسية والغربية . فـان الدين الذي يدرّس ليس نفس الشيء ، ولكنه يدرس بعقيدة متساوية . ففي روسيا كما في الغرب، هنالك افتراضات ، والمفروض الاعتقاد بها بدون شك ، وليست عرضة لانتقاد دقيق . ففي حقيقتها ، ان الدين الروسي غير مشابه لدين البلاد المسيحية، وانه واحد ، وأغلب الناس الشباب الذين يكونون عرضة له يتقبلونه بحماس ، ويعملون قواعد حياتهم طبقاً له . والحقيقة ، هي ان الناس الاذكياء بامكانهم اعتبار الديانة الروسية كوسيلة باتجاه خلق عالم افضل ، وبامكانهم تقبل عقيدتها على اقل تعديل فلسفياً بدون الاستسلام العقلي .

ففي هذا الخصوص ، فان الماركسية عندها الآن الفوائد كالتي كانت عند المسيحية عندما كانت حديثة العهد ، ولكن هل بإمكانها الاحتفاظ بهذه الفوائد اذا كانت قائمة ومنتصرة ؟ انها متحدة في اللحظة الحاضرة مع الأمل والفعاليات المثمرة نظراً لوجود بلاد شاسعة نصفها خال وناضج للتطور الاقتصادي .

لقد كانت اميركا في وقت مـــا بنفس الوضع ، وكان لها ريادة الديمقراطية ، ونسبوا لها الفضائل التي بإمكاننا الآن مشاهدتها في الارتباط بوجود القارة المنتظرة اثارتها . ان حدثاً جغرافياً مشابهـاً يعمل الآن لصالح الشيوعية ، ويجب ان يعم تأثيره قبل أن نقدر النتائج ، التي من المحتمل أن تكون في البلاد النامية اقتصادياً .

فاذا بقيت العقيدة الماركسية معدية كما هي حالياً ، فانه من المحتمل مع الوقت أن تصبح عقبة عظيمة في طريق التقدم الفكري . وسابقـاً هنالك مظاهر للعلم الحديث يجدها الشيوعيون لإخفـــاء لاهوتهم . فمثلاً وجهات النظر فيما يتعلق بالذرة التي اوصلت اليها نظرية الذرة . فإن الرأي على أن كل شيء في صفات البشر له دوافع اقتصادية يمكن في اي لحظة أن يتحول الى خلاف عنيف مع العلم .

وعلى سبيل المثال الدودة الوحيدة تتلاشى قدرتها في البلاد الحارة ، وفي هذا الشأن يكون الطقس وليس الاقتصاد العامل النهـائي . وعلاوة على ذلك ، فإن جميع الفلسفة الماركسية تكون هكذا مهتمـة جـداً في الكفـــاح الطبقي حيث أصبحت غامضة وغير محدودة ، عندما تدرس العالم بدون الطبقية كما تريده . فاذا العقائد الماركسية القاهرة كانت تحل مكان المسيحية ، فمن المحتمل أن تكون عقبة عظيمة للتقـدم العلمي كما كانت المسيحية .

ومهما يكن يظهر غير محتمل في ان الفلسفة المتحدة حالياً مع الشيوعية سوف تحتفظ بقوتها ، اذا كان الشيوعيون منتصرين . فالشيوعية في حـد ذاتها مجرد نظام اقتصادي يحكم به بعوامل اقتصادية وسياسية . فالعقيدة

المادية المنطقية والتعبير الاقتصادي للتاريخ ليسا عقلياً اجزاء ضرورية للنظرية الشيوعية . فاذا لم يعد أحد يتحدى الشيوعية كنظام اقتصادي ، فانه سوف لا تكون هناك نفس الحاجة لقمع الضلال الديني . وإن كلا من ماركس ولينين ، مما لا شك فيه ، كانا لا يزالان موقرين ، ولكن يكون مكتشفاً انهم لم يعنوا ما قالوه . ان عقيدة الوقت الحاضر هي حادث في الكفاح ، وبإمكاننا أن نأمل انها سوف تتلاشى تدريجياً اذا كان الكفاح قد وضع في اصدار ناجح .

كما ان هناك تطابق اعتبارات مماثلة فيما يتعلق بتنازع الطبقات . فالتربية في البلاد الرأسمالية تعاني كما رأينا من نفوذ الأغنياء ، والتربية في روسيا تعاني بالعكس من نفوذ البروليتارية . ان اولاد البروليتارية يتعلمون ليحتقروا اولاد « البرجوازية » والناس الشباب من اصل « برجوازي » عندهم صعوبات اكثر من الآخرين في الحصول على تعليم أعلى . ولكن خلال جيل ، فان هذه المتاعب سوف تزول حالما لم يبق عندها سوى اولاد البروليتارية .

ان الأمر الأكثر اهمية فيما يتعلق بالمستقبل ، هو الإزالة الجوهرية للعائلة . وليكن متوقعاً انه عندما تسمح الاعتمادات المالية فإن الحكومة السوفياتية سوف تجعل الاولاد اكثر فأكثر يتلقون علومهم كلياً في مؤسسات . وأن يكون لهم القليل من الاتصال مع آبائهم . والفوائد وعدم الفوائد لهذا النظام قد بحثت في فصل سابق . وانني سوف لا أعيد ذلك . ولكن سواء للخير او الشر ، فان هذا من المحتمل ان يكون المظهر الأكثر اهمية في التربية الشيوعية المتطورة كلياً .

هنـالك العديد من الظواهر التي بها التربية في ظل الشيوعية تكون مفضلة عن أن يكون في البلاد الرأسمالية . واحدى هذه هي تسكين التنافس واستبدال فعاليات المجموعة من اجل عمل الفرد . والحقيقة ان المدارس التقدمية المعزولة باستطاعتها ان تحاول هذا في مثل هذه البلاد كانكلترا واميركا ، ولكنها معرقلـة بواسطة الحاجة لتحضير الاولاد للامتحانات ، ومن اجل كفاح التنافس في حياة الراشد .

علاوة على ذلـك ، فان الاولاد الذين تربوا في مدارس استثنائية هم عرضة لأن تكون عنـدهم بعض الصعوبات في ملاءمة انفسهم للمحيط – صعوبة من المحتمل ان تستحق التحمل ، ولكن يكون منهـا الولد الروسي معفياً .

ان المدرسة التي تهدف الى خلق محيط غريب ، عليهـا ان تكون اكثر او اقل عزلة عن العالم العادي ، وهذا حدث يؤسف له حتى عندما يكون ضرورياً . ففي روسيا ، أزيل التنافس ليس فقط من المدارس ، ولكن حتى من الحيـاة اليومية ، التي تجعل خلق روح تعاونية ممكنة وغير معروفة في الغرب .

ان مساهمة المدرسة في العمل العادي للعالم في حين ان لها اخطارها وفوائدها ، هي بنظري تتفوق على جميع العيوب الممكنة . فحالياً هناك دعاية متزايدة في العمل الذي يتوقع ان يقوم به الاولاد ، فانهم يجعلون في عمر مبكر في ارساليات للعقيدة الشيوعية ، التي لا يمكن ان تفشل في ادخال سعادة معينة وضمان نفسي غير مرغوب فيه . ولكنها حسنة للنـاس والشباب ليشعروا بأنفسهم كجزء من المجتمع وليكون عندهم

إدراك انـــه يتوجب عليهم ان يكونوا نافعين بقدر ما تسمح بــــه طاقتهم .

واعتقد ان المدرسين التقدميين في الغرب كانوا ميـالين لخلق الأهمية الشخصية في الطفـل ، وليدعوه يشعر نفسه ارستقراطياً قليـلاً ، كما يجب ان يخدمه الراشدون . وهذا يوصله لينمو فوضوياً ، ضجراً من قيود الحياة الاجتماعية . من هذا المطل ، تكون التربية الروسية حرة : فـان الطفل يعمل ليشعر ليس هكذا كثيراً بواسطـة الفرض ، ولكن اكثر بواسطة توجيه فعالياته . وهـذا الجزء السلوكي من التربيـة الاخلاقية في روسيا يكون بديعاً . وعندها اذا كان يعتقد في بنية النتائج حيث أقدر ان الشباب يشعرون بأنفسهم جزءاً وحزمة من المجتمع ، وليس كما يفعلون غالبـاً في الغرب وحدات معزولة ، والذين يصبحون مستهترين بواسطة اليأس او مفترسين بالتهكم .

ان الشيوعية اكتشفت نظاماً اخلاقياً ، بإمكان الشباب الحديث تقبله ، وأسلوباً للحياة بإمكان الشباب الطليعي ان يكون سعيداً . ان البـلاد الرأسمالية تجد هـذا المشكل غير قابل للحل ، لأن مؤسساتها لا يمكن حفظها بدون خداع .

والمثقف فكرياً ، ثقافة غنية ومعقدة لحضارة قديمة ، يجب أن يعترف على شيء مـــا ضئيل ، وعلى الغالب بصورة لا تحتمل روتيننا في مظهر الشيوعية ، ان عملية إحـــالة جميع الأسئلة مهما كانت بعيدة الى حرب طبقية تدب الفوضى في كل شيء ، وتدمر السرور في المهارة الفكرية . إن أي إيضاح من الفكر الصحيح سوف يخدم ليبين ما اعنيه : خذ على سبيل المثال الأساليب التي تقدر بها مسافات النجوم البعيدة والشهب .

إن في هذه الأساليب نموذجاً ممتازاً للذكاء والتعقل المتحذر متحد مع الملاحظة الدقيقة . ولغاية مـا اعرف فانها تعمل فرقـاً بسيطاً للأنجاز ، كفاح الصف سواء المسافة للنجم المعني تكون مائة او الف سنة ضوئية ، إلا أنهـا تزيد احترامنا للجنس البشري في ان البشر عليهم أن يكونوا قادرين ليقرروا أية من تلك تكون اقرب الى الحقيقة .

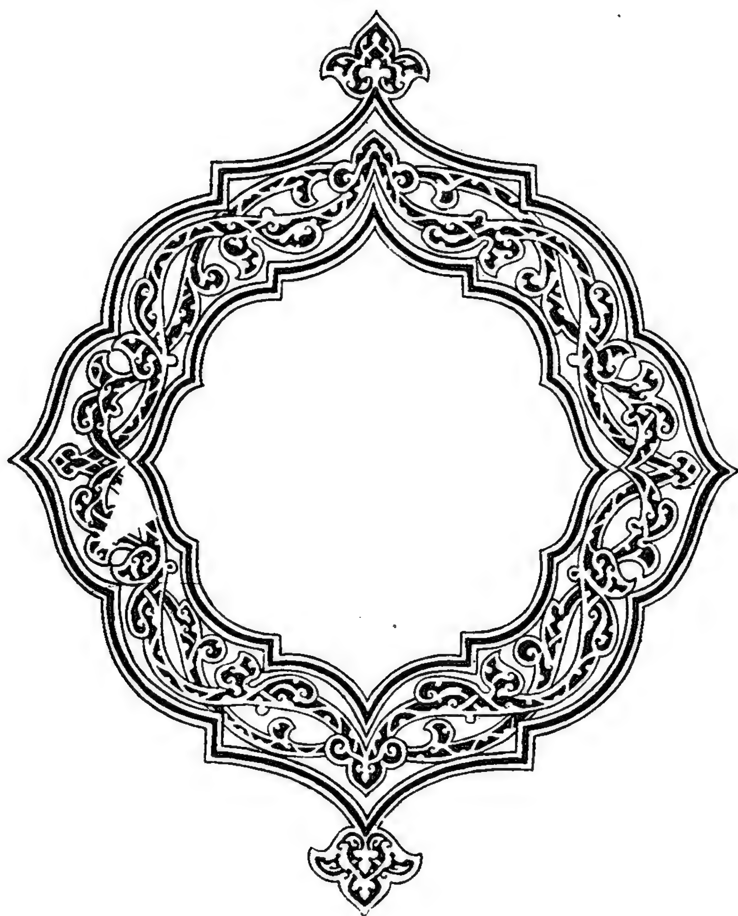
انا لا اعلن ان الشيوعية سوف تضع فيتو على الابحاث الفلكية ، ولكنني احسب ان فلسفتها اذا اعتقد بهـا واقعياً ، سوف تحول باعث حب الاستطلاع العلمي الذي يقود البشر الى مثل هـذه التحريات . ان مظاهر الماركسية تقود الى تحليل خطأ ، فمثلاً عمل نيوتن يمكن أن يكون عنده جميع انواع الدوافع الاقتصادية ، ولكن العمل بحد ذاتـه يكون اكثر فائدة واهمية من دوافعه : وبعد كل شيء ، فإن الاقتصاد عليه أن يعمل مع المشكل المحافظة عليه على قيد الحياة اذا كان هذا المعضل قد حل بصورة مرضية ، كما باستطاعته أن يكون بواسطة الشيوعية . فعلينا أن نحتاج الى شيء آخر نفكر بـه ، وبعض قاعدة جديدة نعبر بموجبها عن تاريخ المستقبل . ان البساطة هي ميزة في الهتاف ، ولكن ليس في إحدى الفلسفات .

إن كل شيء مخطط عن قصد من المحتمل أن يعاني من البساطة غـير المتوجبة التي تقود الى الملـل ، وحتى الى نوع من الجنون من سماع نفس النغم يعزف باستمرار . ومن المحتمل أن تكون الحياة بنفسها متجنبة هذا الخطر . وعلى اي حال ، ففي روسيا لا تزال هنـاك مخلفات كثيرة من قبل ان تحل الثورة ، حيث ان مخططات الشيوعية لم تتمكن من ادخال بساطة غير لازمة من اجل وقت طويل آت . ولكن في التربية ، اذا لم

يكن هناك مثل هذه الاعمال العملية الواضحة والمفيدة لتنجز ، فإن خطر زيادة التسهيلات ستكون حقيقية جداً .

ان العالم اكثر غنى وتنوعاً مما هي قاعدة الماركسيين ، والجيل المحصور ضمن فلسفة الرأسمال يمكن ان يكون سعيداً ، ولكن يكون حكيما ، وليس بامكانه ان يعرف انها ليست فكرية ، ومن المؤكد انها ستكون سطحية . قول هذا من وجهة نظر الفلسفة وليس السياسة .

ومن وجهة نظر السياسة (في اوسع معنى) اعتقد ان فتوانا يجب ان تكون مختلفة ، إن الشيوعية تقدم حلا للمعضل الصعب للعائلة وتساوي الجنس – وحل من المحتمل ان نمقته ، والذي ليس بأي حال يقدم منفذاً ممكناً – . انها تمنح الاطفال التربية ، التي منها فكرة التنافس المعادية للمجتمع تكون قد استبعدت كلياً . وتخلق نظاماً اقتصادياً يظهر ليكون النقيض العملي الوحيد لنظام الأسياد والعبيد . انها تدمر فصل المدرسة عن الحياة ، لكون المدرسة مدانة لأصلها الرهباني ، نظراً لأن العقلاني في الغرب يصبح بصورة متزايدة عضواً ضاراً في المجتمع . إنها تمنح الشبان والشابات أملا ليس خيالياً . ونشاطاً في المنفعة ، لا يشعرون منها بالشك . واذا قهرت العالم كما يمكن ان تفعل ، فانها سوف تحل أغلب الشرور الرئيسية لوقتنا الحاضر . وعلى هذه الأسس وبالرغم من التحفظ ، فانها تستحق المساندة .



١٤

التربية والاقتصاد

في التربية العامة كما هو ساري في الوقت الحاضر في البلاد الغربية ، وجدنا في فصول سابقة ظواهر مختلفة دعت الى الانتقاد . فهنالك اولئك الذين يتمسكون انـه مهما يكن خطأ في التربية ، او من ذاك الشأن ، اي شيء آخر فمصدره في النظام الاقتصادي السيء . انا شخصياً لا اعتقد بهذا ، وانني أميل الى وجهة النظر على انـه في ظل اي نظام اقتصادي سيكون هناك مقدار معين من الغباء ، ومقـدار معين من حب النفوذ ، وكل منهما سوف يقف في طريق إبداع نظام تربوي كامل . فمهما يكن تأثير العوامل الاقتصادية على التربيـة ، يكون بدون شك عميق الأثر ، وليس دائماً ظاهرياً واضحاً . وسوف أحاول في هذا الفصل ان اعزل العامل الاقتصادي في التربية ، في أزمنة وأمكنة مختلفة .

عندما انتعشت التربية الاوروبية بعد العصور المظلمة ، كانت امتيازاً

للرهبانية . ولغاية يومنا هذا لها خاصيتها التي تعيدها الى أصلها الروحاني . فقبل عصر النهضة ، كان للارستقراطية المنتشرة على العموم قليل من المعرفة ، ولكن الاكليروس ، خاصة الاكليروس المنتظم ، كان ليس بصورة غير متكررة يحوز على سعة اطلاع معتبرة . فقليل من معرفة اللاتينية كان حاجة مهنية ، ولكن هذا الحد الأدنى من التعري لن يكون قد اعتبر كثيراً . لقد كان بصورة رئيسية متصلاً مع المغاربة ، خاصة في صقلية واسبانيا ، وهو سبب انتعاش التعلم في القرون الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر . وبينما هذا الاتصال كان له طبعاً اسبابه التي كانت بصورة كبيرة اقتصادية ، نرى أن تأثيره على التعلم يجب أن يعاد بالأساس للغريزة الفكرية غير المكترثة من جانب عدد قليل من الأفراد .

ان الفلسفة المدرسية ، وتعليم القرون الوسطى كانا بصورة عامة عائدين لحماس الأقلية الروحانية ، وأغلبهم استنتج قليلاً من الفائدة المادية من عملهم ، بينما ليس هناك قلة تعرضوا الى خزي بواسطة وقاحة تأملاتهم . إن وجود الكهنة والرهبان كان ضرورياً من اجل الحركة ، ولكن سببها البدائي كان التعطش المجرد من أجل المعرفة .

وفي تربية الارستقراطية العامة ، التي باشرت نوعاً ما فيما بعد ، يمكن ان يقال نفس الشيء . فالامبراطور فريديريك الثاني الذي في عهده يمكن اعتبار الثقافة التعليمية قد بدأت ، كان على اتصال مع المحمدية منذ فجر حياته الباكر ، وقد استغرق في حب استطلاع نهم متعلق بكل شيء مؤكد . وانتعاش اليونانيين في ايطاليا في القرن الخامس عشر ، والثقافة الوقور التي انتشرت منها الى الأمم الشمالية ، عائدة بتسربها

حب التعلم من أجل شأنها .

انها الحقيقة في هذا الباعث كان غارقاً في المعرفة اللاتينية ، وبعض المعرفة اليونانية اصبحت علامة السيادة ، وكانت تفرض على الاولاد . مع ان النتيجة هي ان الناس فقدت الذوق من اجلها ، وحتى معها مهما كان الباعث للحصول على تعليم عال ، كان فخرياً اكثر منــــه اقتصادياً . ولم يكن من اقطاعي توقف عن تسلم اجرتــه حين فشل في الحصول على الثقــــافة . ان الارستقراطي مثل الراهب كان رجلاً عاطلاً عن العمل وباستطاعته ، اذا اختار ان يتعلم ، فمن اجل السرور بدون اي هــدف نفعي .

ومع ذلك ، فان فكرة المعرفــة كشيء مرغوب على حسابها الخــاص لا تزال تتوانى في الجامعات ، وفيما بين كل من الفلاسفة المتمسكين (الذين انا واحد منهم) بأشياء مختلفة حدثت وغيرت كلياً وجهة النظر السائدة فيما يتعلق بعمل التربية . والعامل الاكثر اهمية من تلك هو انشاء تعليمات دولية اجبارية . فلقد وجدت ان الاولاد والبنــات بامكانهم ان يتحولوا الى مواطنين احسن وعمال اكثر كفاءة اذا عرفوا كيف يقرأون ويكتبون مما اذا كانوا لا يعرفون .

انها الحقيقة في تعقب هذا الهدف . وهو ان ارباب السياسة قد عرقلوا من خلال التقاليد المدرسية . فان التربية في المدارس الابتدائية تكون غالباً بصورة واضحة في حب المطالعـة في الكتب . بينما من الممكن ان تناقش على ان تدريباً شبه عملي سيكون قد قدم هدف رجال السياسة . ففي هذا الشأن ، فان التربية الروسية أحسن ملاءمة للجيل . ومهما يكن ، فان المدارس الابتدائية بشكل عام عملت ما هو مطلوب منهــا ، وهي

الآن في كل بلد متحضر احدى الوسائل الحيوية للحكومة .

عامل آخر يميل الى وجهة النظر النفعية للتربية في نمو العلم والصناعة . فالتقدم التكنيكي يتطلب حالياً معرفة علمية ، والاختراعات الجديدة هي مصدر لكل من الثروة والعظمة الوطنية . ففي هذا الشأن ايضاً ، منعت تقاليد عصر غابر التوافق مع الحاجة الحاضرة ، إلا في روسيا . فاذا كانت التربية كلياً محكومة باعتبارات نفعية ، فان مكانة العلم والتكنيك الصناعي ستكونان اكثر بكثير مما هما عليه ، ومكانة الثقافة الأدبية ستكون اقل بكثير . ولكن في حين أن هذا لم يحدث بعد كلياً ، فانه قد يحدث على درجات ، وهو ما حدث كلياً قبل زمن طويل .

ان تأثير العوامل الاقتصادية على التربية يمكن التصرف به تحت خمسة شروط سوف نبحثها بالتوالي :

اولاً – حسب الظروف الاقتصادية للدولة ، فان المبالغ المادية التي يكون بالمقدور إنفاقها على التربية سوف تختلف ، ولكن من اجل غنى الأمم الغربية بواسطة الثورة الصناعية ، فان التربية العالمية الاجبارية قد تكون غير ممكنة . وليس هناك من بلد كان عنده الاحترام الاعظم للتعلم اكثر من ذاك الذي كان سائداً في الصين قبل ان يختار الصينيون المستويات الاوروبية ، ولكن الصين لم تكن غنية كفاية لتعلم القراءة والكتابة لأكثر من خمسة بالمائة من مجموع السكان. ففي انكلترا عام ١٧٨٠ او حتى عام ١٨٣٠ كان من الصعب جداً ان تفرض ضرائب جديدة كافية لتجهز دراسة لكل شخص . وحالياً لا تزال تعتبر غير ممكنة لتجهيز مدارس حضانه إلا في قلة من المناسبات النادرة .

إن رفع مستوى سن المدرسة من الجهة الثانية لا يفكر فيـه لترفع الصعوبات الاقتصادية . ونظراً للبطالة والحصانة ، فان الرجـــال العمليين وافقوا على ان عمل أي شخص يعمل بجمـل اي شخص سواه أفقر ، وهكذا تكون فائدة المجتمع في الاحتفاظ بأي قسم بعيداً عن الاستخدام المنتج . وعلى هذا الأساس يعتقد انـه علينا ان نكون جميعـاً أغنى من الاولاد الذين يحفظون بالمدرسة لوقت اطول . ان المعضلة في انكلترا لرفع سن المدرسة ليس اقتصادياً ، ولكن لاهوتياً : ان الطوائف ليس بمقدورها ان توافق بالنسبة لنوعيـة الخرافات ، التي بهـــا الاولاد والبنات سوف يرسلون للخارج الى العالم .

ثانياً - ان أحد أهداف التربية هو لزيادة مجموع الانتاج . ومن المحتمل ان هــذا كان الدافع الاساسي في عقول اولئك الذين اول من أدخلوا التربية العالمية ، ومما لا شك فيه انها باعث سليم . فالناس الذين بامكانهم القراءة والكتابة يكونون اكثر كفاءة من اولئـك الذين لا يحسنون ، ولكن الدافع لتقدير الانتاج مضخماً ، يعمل حتى اكثر مباشرة في تنمية التربية التكنيكية ، والارشادات العلمية، والابحاث .

إن الحكومة البريطانية تنفق مبالغ اكثر بكثير على الابحاث مما كانت قد أنفقت فيما اذا كانت محرضة بواسطة احصاء مالي سليم ، والسبب هو كون أغلب الموظفين المدنيين عندهم تربية كلاسيكية وهم جهلاء بكل شيء يجب ان يعرفه الرجل الحديث . اعتبر على سبيل المثال الأبحاث الطبية . إن المواطن العادي هو كلفة على الأمة في بداية ونهـاية حياته ، ولكنه مفيد أثناء سنوات عمله .

إن الاطفال الذين يموتون يكونون محض خسارة اقتصادية ، وانخفاض الاخلاق خلال السنوات الباكرة يكون اذاً ربحاً للدولة ، او مرة ثانية اعتبر هذا الامر كاقتصاد . ففي دراسة علم الحيوان التي هي ذات أهمية فائقة في كثير من فروع الزراعة يجب ان تعتبر دقة مصروفنا العام في هذا الموضوع تبذيراً مقصوداً . أنا لا أقول شيئاً من الاكثر وضوحاً والفروع المعروفة جيداً للابحاث الصناعية مثل الصناعات المركبة ، المتفجرات الشديدة ، الغازات السامة وسواها . إن بعضها يكون مفيداً وبعضها يكون العكس تماماً . إن الفائدة من المعرفة العلمية لا تزال لغاية الآن لم تدرك حق بواسطة المواهب الفنية والمكان الأوسع بكثير من اجل الفكر في منهاج المدارس الثانوية .

ثالثاً - نظام التوزيع له تأثير عميق على التربية ، أعظم بكثير من العاملين اللذين جرى بحثهما فيما سبق . ان نظام التوزيع يقرر تقسيم الامة الى طبقات ، وحيثما يكون هناك طبقات ، فإن الطبقات المختلفة سوف تتلقى انواعاً مختلفة من التربية . ففي المجتمع الرأسمالي ، يتلقى ذوو الدخل المحدود تربية اقل ، وأولئك الذين يهدفون لدخول مهنة تعليمية يتلقون الأكثر ، بينما مقدار متوسط يعتبر مناسباً لأولئك الذين سيكونون سادة او رجال اعمال .

وكقاعدة عامة ، فان الولد أو البنت ينتميان الى نفس الطبقة كوالديهم ، ولكن اولئك الذين يرحبون بمنحة دراسية بواسطة كفاءة خاصة ، بامكانهم الارتقاع من طبقة ذوي الدخل المحدود الى الطبقة المهنية . بواسطة هذه الوسائل في انكلترا ، فإن أحسن الأدمغة عند الذين يخلقون في الطبقة ذات الدخل المحدود يكونون سياسياً معقمين ، وينقطعون كقاعدة

ليكونوا في الجانب الذي قرر لهم بواسطة ميلادهم . وفي هذه الميوعة على الطبقية ، فان المجتمع البلوتقراطي يختلف عن المجتمع الارستقراطي . وهذا هو احد الأسباب التي تجعل الثورات أقل عرضة لتظهر في ظل البلوتقراطيات مما في ظل الارستقراطيات .

ان النظام الاقتصادي الذي يدعوه اخصامه بالرأسمالية ، نظام معقد. ومن أجل اهدافنا فهو هام لنعرضه في درجة ما للتحليل . واني أؤكد القول ان هناك ثلاثة مصادر رئيسية للثروة في العالم الحديث خارج الاتحاد السوفيتي .

اولاً : ملكية الاراضي والحصر الطبيعي .

ثانياً : الميراث في العائلة الأبوية .

ثالثاً : مؤسسات الاعمال .

وهذه الثلاثة ليست بصورة ملازمة مرتبطة معاً . فهنري جورج رغب في إزالة الأولى ، بينما ترك الثاني والثالث بدون أن يمسا . وفي الرهبنة الكاثوليكية العلمية ، فإن الأول قائم والثالث محتمل أن يكون قائماً ، ولكن الثاني استبعد عداء معيناً لليهود إذا كان بامكان واحد أن يحكم بواسطة كراهيتهم ، قد يحتفظ بالأول والثاني ، بينما يدمر الثالث .

اعتقد ان ملكية الاراضي والوراثة كلاهما من مخلفات العهد الارستقراطي ، وهما عرضة اكثر لانتقادات الاشتراكيين من مؤسسات الأعمال . حيث هذا الأخير يكون المصدر الوحيد للنجاح ، كما على سبيل المثال في قضية هنري فورد ، انه عرضة للتساؤل فيما اذا كان يسبب ضرراً كثيراً لصالح الأمة كمجموعة . ومؤكداً ان فكرة الطبقية كما تفهم بصورة عامة هي

غير ممكنة بعيداً عن الميراث . ففي التربية بصورة خاصة ، فإن الشيء الهام هو أن اولاد الأغنياء عندهم تربية تكون مختلفة عن تلك التي تعطى لأولاد ذوي الدخل المحدود . وفي اميركا حيث البلوتقراطية تكون أقل تأثيراً مما في اوروبا بواسطة تواني بقايا الارستقراطية .

ان مؤسسات الاعمال هي عادة ممثلة كالمصدر الرئيسي للثروة . وهذا له تأثير على عقلية الأحداث ، التي تكون تماماً مختلفة عن تلك التي ظهرت في المجتمع عندما كانت ملكية الأرض والميراث اجتماعياً ، المصادر الرئيسية للثروة .

انها تشدد على جهود الفرد وتكون لذاك المدى حسنة ، ولكنها تشدد على الجهود في شكل التنافس ، وتلك في هذا الشأن معادية للمجتمع . ففي ظل نظام اقتصادي اكثر عدلاً ، لن يكون هنالك تنافس من النوع الحالي ، ولن يكون هناك طبقية مثل التي تكون مؤلفة لنا .

انها الحقيقة في انه من المحتمل انه لا يزال هناك تنافس من نوع ما ، كما انه لا يزال هناك طبقات مختلفة في الادراك . ولكن النوع والادراك قد يكونان مختلفين جداً عن تلك التي اعتدنا عليها . ففي مجتمع شيوعي ، سيكون هناك مراكز نفوذ كما أن هناك مراكز يكون بها العمل بصورة غير عادية ساراً .

إن الرجال الذين يشغلون هذه المراكز هم في بعض الشؤون يشكلون طبقة اعلى من اولئك الذين يشغلون مراكز تشمل نفوذاً قليلاً وعملاً غير سار . وسيكون هناك بالتقدير تنافس للحصول على المراكز التي تشمل نفوذاً اكثر وعملاً ساراً اكثر . ولكن في عالم بدون وراثة ونفوذ وراثي ،

فان كل فرد سوف يزاحم كلياً على جدارته ، وليس على مصلحة جائرة لفرص تربوية احسن . فاذا حصل على تربية احسن من جاره فسيكون ذلك لأنه اظهر نفسه احسن اختصاصاً في التوصل اليها ، وليس لأن والده حدث أن كان غنياً .

فمها كان انصاف الطبقات الذي يمكن أن يسود في مثل هذا المجتمع ، سيكون اذا موجوداً في قضية كل فرد معتمداً على استحقاقه الضمني . فالموسيقار العظيم مثلاً ، سيكون دائماً متفوقاً . الواحد الذي يكون متوسطاً ، سوف يكون اكثر اشراقاً حتى اذا لم يتقاض اجراً عالياً اكثر .

ان هذه الدرجة من عدم المساواة والتناقض اللذين يكونان غير قابلين للتجنب . وعدم المساواة متأصلة في طبيعة الاشياء ، والتنافس يكون ضرورياً كي ينجز ذاك العمل الصعب من قبل الرجال الاكثر كفاءة ، ولهذا فان معضلة التربية المتزايدة التي سبق وبحثناها في فصل سابق تكون معضلة صعبة .

ان التنافس التربوي سوف يكون مهماً كان أقل صرامة بكثير مما هو عليه حالياً ، حيث يكون عند الجميع مساواة اقتصادية ، كما يكون عندهم ضمانة اقتصادية ليس فقط لأنفسهم ، ولكن من أجل اطفالهم . ان عدم المساواة والضمانة هما اللذان يجعلان التنافس هكذا مزيراً في الوقت الحاضر ، وحين تزال هذه العناصر ، فان اللسعة ستخرج منها .

اما فيما يتعلق بالوطنية ، في حين ان الدوافع الاخرى تدخل ضمنها ، هناك ارتباط مع الملكية الفردية . وهذا ليس واضحاً فورياً ، ولا يوجد في وجدان أغلب الافراد . انه ارتباط بصورة غير مباشرة حسب

الاوضاع الأكثر تقدماً للرأسمالية . ان البلاد غير المتطورة عندها فائدتان لمركز المستثمر كأسواق ومصادر للمواد الخام .

ففي كلا الشأنين تكون اكثر فائدة عندما تكون تحت اشراف الدولة التي ينتمي اليها المستثمر . فالرأسمال الاميركي يجد مجالاً مفيداً للاستثمار في شمال افريقيا ، كذلك الرأسمال البريطاني في الهند ، والرأسمال الاميركي في اميركا الوسطى .

ففي هذه الطريقة ، المستثمر الذي يفكر في استثمار رأسماله خارج بلاده الخاصة يصبح مهتماً بالامبريالية اقتصادياً اذا لم يكن اقليمياً ، ويجد انه بواسطة الدعاية الوطنية يكون قسماً معتبراً من نفقات مؤسسته قد تحول على اكتاف دافع الضرائب .

ان هذا هو المصدر الغالب لوطنية الأمم القوية ، في حين ان المواطنين الذين يهتفون للمعرفة يكونون على العموم غير مدركين للقوات المنحوسة التي اوصلتهم ليفعلوا هكذا ، فان وطنية الامم الاضعف تكون دفاعاً ضد الأمم المفترسة . ولحد ما طالما انهم يقاومون الاستغلال بدلاً من ان يمارسوه ، فانهم مؤقتاً في وضع اخلاقي احسن من ذاك الذي عند الأمم الأقوى . ولكن العواطف التي تولدت في امة ضعيفة تحارب من اجل استقلالها ، تكون حالما تنجح مستحصلة على جميع النواقص التي كانت سابقاً قد ندد بها ظالموها . فبولونيا بعد مائتي سنة تقريباً من الاذعان ، حصلت على الحرية ، لكنها رأت عدم وجود مبرر كي تنقل الى الاكرانيين الأعباء التي عاناها سابقاً البولونيون .

ان القومية هي قاعدة فاسدة ، ويجب لا تستحسن حق في الأمم التي

تحارب من اجل حريتها . هذا ليس لنقول ان الأمم يجب ان تقــاوم الضغط ، بل لنقول انه يجب ان يقاوم من وجهــة دولية وليس بمجرد وجهة نظر قومية .

ان شرور القومية سواء في أمة قوية او ضعيفة تكون مرتبطة بالملكية الخاصة . ففي الاهتمام بالاستغلال او بالمقاومة للاستغلال ، فانه من المعقول ان نفترض انه اذا كانت الرأسمالية الخاصة قد ازيلت ، فان الجزء الشرير الذي يمثل دوره حاليــاً بواسطة القومية في التربية ، سيكون بصورة معتبرة منخفضاً . ومع كل يمكن أن لا يزول كلياً .

والعامل الرابع لبحثنا عن تأثير الدوافع الاقتصادية على التربيــة هو المواهب ، وحيثما الحرية بالوصية تكون قائمة ، فان الانسان بإمكانه ان يترك ملكيته لأي هدف لا يعتبر مناقضاً للسياسة العامة . ولأمد قريب ، فان الموقف من اجل نشر العقلانية كان لاغياً في انكلترا على اساس ان العقلانية مناقضة للسياسة العامة لدولة مسيحية . والآن هذا لم يعد الحال . ولكن مع ان الهبات من اجل اهداف تقدمية يمكن أن لا تكون غير شرعية فانها مؤكداً ان الهبات يجب بصورة رئيسية ان تكون قوة محافظة .

انهم يحدون رغبات البشر الذين هم اموات . وغالباً الذين ماتوا منذ قرون . فان الكنائس ، والجامعات القديمة والعديد من المدارس ، يعتمدون الى حد كبير او ضئيل على الاوقاف القديمة . ففي اميركا . تكون المعقول النيرة على نطاق واسع حديثة ، ولكن حيثما تكون فانهــا تأتي من البلوتقراطيين العظماء ، الذين من الضروري ان يكونوا محافظين وغالباً غير مثقفين . هكذا يكون عندهم تأثير فعال في عرقلة الحركات التقدمية في

التربية . فرئيس الجامعــة الذي كان اساتذته مشتبهين بالتطرف ، يكون اقل احتمالاً ليضمن الهبات من المحسنين من قادة الصناعة ، اكثر من اولئك الذين يظهر زملاؤهم جبهة حصينة في صالح الوضع السائد .

ان العقول النيرة عندها تأثير فعال في عمل الجانب الديني في التربية اكثر محافظة مما قد تكون خلاف ذلك . والروابط فيما بين الدين والملكية الخاصة تتبـع من خلال حقيقة أن الناس يتركون اموالهم للاشخاص الدينين . وعلى ان هذا يضحي لقرون بعـــد وفاتهم الدعاية من النوع المعين من الخرافة التي آمنوا فيها . ففي انـكلترا واسـكتلندا يكون من الحقيقــة ان هذا بإمكانه ان يتغير بواسطة التشريـع .

ففي عهد الاصلاح تركت الملكية من قبل المتدينين في القرون الوسطى وتحولت من اهدافها الاساسية الى التعاليم الانجيلية . وعندما كانت ملكية الكنائس الحرة في اسكتلندا قد قررت قضائيــاً لتتبـع حسب القــانون الاحرار الصغار ، وكان القانون قد تغير ، حيث إن ارث المؤمنين المتعصبين بالقضاء والقدر بإمكانه ان يستعمل لتعليم العقائد ، الــتي منهــــا الايمان بالقضاء والقــدر قــد ازيل . ولكن في اميركا يمنع الدستور مثل هــذا التشريـع .

فاذا تركت اموالك الى مؤسسة مكرسة الى عقيــدة اهالي كينتوكي Kentucky والأسباط العشرة الضائعة ، فان الاموال لا يمكن ان تتحول من ذلك الاستعمال . وفي انـكلترا ، مع ان التحويل غير ممكن فانها نادرة . حيث ان الكنيسة الانجيلية والكنيسة الرومانية الكاثوليكية هما مؤسستان غنيتان ، ويكون دخلها جاهزاً لأولئك الذين يعترفون بعقائد مناسبة .

هكذا تكون هنالك دوافع اقتصادية لا تحصى للتمسك بنفس الآراء ، كما كان متمسكاً بها من قبل الاجداد الغابرون . فلكل تقدم فكري ، هنـــالك عقوبة اقتصادية . حينما اكتشف Colenso ان الارنب لا يمضغ الاجترار ، فقد جرد من راتبه .

فاذا لم يكن هناك مثل هذه الاشياء من الهبات الدينيــة ، فمن غير الممكن ان يشك ان الاشياء قد تغير بسرعة اكثر مما هي عليه الآن . حتى كما هي عليه فانها بالحقيقة بسرعة اكثر مما في السابق .

هناك اشياء عديدة ، وعلى رجال الدين الانجيليين ان يعترفوا ليؤمنوا بها ، في حين انها مفتوحة لهم ليقولوا انها مجرد مهنة ، ولا احـد يفكر بالأسوأ منهم اذا قالوا هكذا .

فبعض اجزاء من الايمان المسيحي كانت له حيـاة في وقت مـــا ، وبعضها في وقت آخر . مثلاً في الوقت الحاضر ، تكون وجهة نظر اغلب المسيحيين في ان ملاحظات المسيح في موضوع الطلاق هي تفسير حرفي ، بينما اقواله بالنسبة لمثل هذه الامور غير قابلة للمقاومة ، وعفة الايمـان ، ومنح ملكية الفرد الى الغير تفسر استمارياً كأنها تعني العكس لما قالوه . ولكن المسألة التي تبعـد عن تعـاليم المسيح تكون جائزة المسيحي ان يتقبلها وهي مسألة معقدة سوف لا أتابعها ابعد من ذلك .

والعامل الخامس لبحثنا في التأثير الاقتصادي على التربية هو التقاليد . ولا أعني التقاليد بشكل عام فهي موضوع اوسع بكثير . بل اعني التقاليد المستقاة من بعض العوامل الاقتصادية التي سادت في الماضي ولكنها لا تسود حالياً . فالاخلاق الجنسية التي هي غالباً محافظة جـداً ، تقدم احسن

الايضاحات لهذا العامل . ففي الايام السابقة عندما كان العالم اقل اهلية بالسكان ، وكانت اخلاق الطفل عالية ، فـان الزوجين كانا يقومان بخدمة اجتماعية في انجابهم كثيراً من الاولاد . ولغـاية مـا التربية ومنع تشغيل الطفل قد جعلت الاطفال مصدر نفقات ، فالاولاد كانوا غالباً فائدة مالية لآبائهم . فالشعور ضـد حصر النسل والاجهاض كانا في تلك الايام إجراء اقتصادياً سليماً يفتقر اليـه حالياً ، ولكن الشعور مستمر لانه اصبح متحداً مع الدين .

إن العائلة الأبوية عندها بجلاء اساس اقتصادي ، طالما ان النساء ليس بمقدورهن ان يصطدن بنجاح اثنـاء الحمل والرضاعة . فلغاية الاوقات الحديثة كان عند النساء مجال ضيق لاقامة معيشة مستقلة ، واصبحن اذاً ملزمات ان يتكلن على الازواج او اي قريب ذكر . ان العائلة تشمل اعالة الزوجات ، والنسل من جـانب الذكر قادت بالطبع الى الاصرار على الفضيلة في الزوجات مفروضة بآداب صارمة جداً ، والقداسة الدينية عادة في الحضارة الباكرة بواسطة عقوبـة الموت للنساء المدانات بالزنا . بينما العقوبة القانونية اصبحت اخف وزالت اخيراً الا في قلة من الاقاليم مثل ولاية نيويورك ، فان الاحكام القانونية والدينية باقية . وهـذا الجزء من القانون الساري كما رأينا يكون غير ملائم عملياً ، في حين انه ليس نظرياً مـع المطالبة في مساواة النساء مع الرجال . وحيثما بامكان النساء كسب معيشتهن فـان مطلبهن في المساواة لا يقاوم .

ان جهوداً جنونيـة بذلت لمنـع المرأة المتزوجة من الحصول على الاستخدام ، ولكن ليس لتفترض ان هذه الجهود بامكانها ان تحرز تقدماً اكثر استمراراً . وسيكون ايضاً ازدياد في عدد الاساليب التي يكون

من الممكن للمرأة ان تكسب معيشتها بدون ان تكون معصومة بالفضيلة من وجهة النظر العرفية . فقانون الاخلاق الساري المفعول يكون اذاً في تقدم التخلي عن العوامل الاقتصادية .

ومستوى النسل المنخفض مقروناً بالجندية يمنح الدولة اهتماماً متزايداً في رفاهية الاولاد ، طالما انه ضياع من وجهة النظر الحكومية من اجل ذكر يموت قبل ان يصبح مسناً كفاية ليقتل في ميدان المعركة . وحيث العوامل الاقتصادية تكون متحدة لتخفض فضيلة النساء ولتزيد نصيب الدولة في العناية بالاولاد ، فانه واضح ان اهمية الآباء يجب ان تضمحل ، وبذلك يكون جميع الشعور والفروض الاخلاقية مرتبطاً بالعائلة الأبوية . وفي الوقت الحاضر ، ان الآباء والدولة متحدين بالتفكير على انه سيكون حسناً للأولاد ليعلموا مظاهر عن الامور الجنسية التي تأتي من الماضي وليست متناسقة جيداً للعالم الحاضر . وهذا هو مثال المحافظة على الشعور حيث يكون الجنس والعائلة معينين . هذه المحافظة تكون بصورة خاصة قوية فيما يتعلق بالتربية ، طالما ان اغلب الناس من رأي انه بمقدورها ان تسبب ضرراً للاطفال ليعلموا اخلاقاً صارمة .

فالتربية اذن تميل لتمنع المجتمعات من ملاءمة انفسها لحاجات جديدة بسرعة كما ينبغي ، وتسبب للكثير من الرجال والنساء الراشدين ان يشعروا بالفزع مشتق من تدريبهم الباكر فيما يتعلق بما هو حسن لتقبله كأمر طبيعي . بينما تكون العوامل الاقتصادية قد لعبت دوراً في انتاج سلوك الجنس ، الذي يعلم في المدارس . فان هذه العوامل تنحصر في الماضي ولا تجد اي انصاف في الحاجات الاقتصادية في يومنا الحاضر .

وعلى أي حال ، كما رأينا العوامل الاقتصادية مرتبطة مع الملكية

الخاصة تميل لتجعل التربية محافظة ، فانـه من المحتمل ان يشك ، اذاً ستكون اقل محافظة في ظل الشيوعية ، عندمـا تكون فترة الثورة قد انقضت . انها ستكون عرضة كليـاً لتتحد مع الإشراف البيروقراطي ، والبيروقراطية ليست قاعدة مشوقة جداً للتحول . ولربما عندمـا يكون هناك اقل حاجـة للتحول السريع مما هي عليه حالياً . ولعل الجنس البشري سيكون الأحسن في فترة استقرار سلمي . ومهما يكن ذلـك ، فـان استبدال التعاون بالتنافس كفكرة تربوية سيبقى تقدماً اخلاقيـاً راسخاً ، ويجعله فقط التحول الكلي في النظـام الاقتصادي ممكناً . وعلى هذا الأساس وحده يرينا التأمل ان التربية في ظل الشيوعية سوف تنتج رجالاً ونساء احسن مما بامكان الغرب ان ينتج ، بينما النظام الحالي مستمر .



١٥

الدعاية في التربية

ان الدعاية يمكن ان تحدد كأي محاولة بواسطة وسائل الاقناع ، وفي تحبيذ المخلوقات البشرية في خدمة حزب واحد لأي خلاف . انها هكذا مميزة من الاضطهاد ، بواسطة اسلوبها الذي هو احد من يجتنب القوة ، ومن الارشادات بواسطة باعثها الديني وليس المعرفة ، لكنه المولّد لنوع من شعور الحزب . قد تختلف عن الارشادات في لاشيء ، ولكن الباعث طالما انه (في حين ان هذا ليس استثنائياً) يحتوي كلياً على معلومات دقيقة . ولكن حتى عنده فانه يحتوي على مثل هذه المعلومات مثلما يميل في اتجاه معين الى استثناء كذاك الذي يكون عنده ميل معاكس .

ان الثناء والقدح كما يكونان معارضين للتحليل النفسي العلمي ، هما دعاية . بينما أغلب البشر عندهم فضائل كافية وعيوب تامة ليتمكنوا من الاستغناء عن الكذب . ففي اسلوب مستحسن ، سيكون ممكناً ان تكتب

تاريخ امة من وجهة نظر الصداقة او العداء . ولتحدد شخصاً ما في عمل هكذا في إفادات حقيقية ، فان الانطباع الذي ينقل الى القارىء يكون غير صواب ، ولكن فقط بواسطة حذفه .

ان الدعاية في التربية لهـــا دورها ، وليس من راشد بإمكانه تجنب التعبير عن كراهيته وما يفضله ، وان اي تعبير كهذا في حضور الشباب له تأثير الدعاية . فالمسألة من اجل المربي ليست في انه سيكون هنـاك دعاية ، ولكن كم وكيف نظمت ومن اي نوع ؟. وايضاً في بعض الطور اثناء التربية ، يجب ان يعمل لتحرير الاولاد والبنات بقـدر الامكان من تأثير الدعاية بواسطة تعليمهم أساليب من الوصول الى احكام مصنفة .

ان الدور الذي يلعب بواسطة الدعاية في التربية كان بصورة مستمرة في تزايد منذ عهد الاصلاح . وأول من كان يتقن فنهـا هم اليسوعيون ، الذين من خلال حصولهم على الاشراف على التربيـة عززوا المكاسب التي عملت في العهد المناوىء لعهـد الاصلاح . ولكن البروتستانت لم يكونوا متخلفين بكثير . فمثلاً في انـكلترا ، انتفع من التحقيق الاسباني : ونيران سميثفيلد Smithfield ومؤامرة البارود لأبعد مدى . فالقرن الثامن عشر ، كما تباين مع القرن السابع عشر ، كان سليماً ومتحرراً من الدعاية لغاية انفجار الثورة الفرنسية .

ان حروب القرن الثامن عشر ، كانت هامة كما كانت في بدايتها ، ولم تكن عنيفـــة جداً ، كما لم تمنع المتنازعين من احترام بعضهم الآخر . ولكن اليعاقبة قادوا الى روح العنف في اوروبا ، في حين اصبح الانـكليز ضد نابليون محاصرين ، كما اصبح الالمان وطنيين .. فمن ذاك الوقت الى يومنا

الحاضر ، فلن الخلاف فيما بين التقدم والرجعية قد نما اكثر فأكثر مرارة . بينما لعبت القومية دوراً متزايداً في حياة الرجال والنساء العاديين . ففي الوقت الحاضر ، يكون اختلاف الأمم ، وحتى الفئات السياسية المختلفة ضمن نفس الامة منفصلاً كليـاً ، ليس فقط بواسطة معتقداتها ، ولكن بواسطة ما تعرفه وما لا تعرفه من خلال احكامها عن الرجال العظام ، ومن خلال آمالهم وخوفهم من المستقبل .

ان الدعاية تكون اولاً تأثيراً ، وبعدها دافعاً ، في الاقسام القائمة في العالم الحديث . قبل عهد الاصلاح ، كان هناك درجة معينة من الوحدة في اوروبا . فمثل هذا الضلال كما كان سائداً قد عولج بواسطة التعذيب ، ولم يكن هناك حاجة للدعاية في الفكر الحديث . في حين أثناء الحروب الدينيـة كان على العكس ، النصر او الفشل يمكن ان تقبلها القوة لعمل الهدى . فانتصار فرنسا في الحروب الثورية كان لحد كبير عائداً للنشاط والحماس المولود من دعاية اليعاقبة .

ان الاشتراكية والشيوعية قد قدمتا كلياً بواسطة الدعاية ، ولكن من أجل الدعاية الوطنية ، فان الأمم لم تعـانِ التضحيات المطلوبة منها في الحرب العظمى .

والتربية العالمية قد زادت لحد بالغ للمناسبات للدعاية . ليست الدعاية هي نفسها الداعية فقط ، ولكن قوة القراءة تجعل جميع السكان مشتبهين لتأثير الصحافة .

لقد كان هـذا السبب الرئيسي في جعل الحرب الاخيرة اكثر مرارة من الحروب السابقة . فالناس الذين تعلموا ليقرأوا ، ولم يتعلموا أي شيء

خلافه ، بإمكانهم ان يتأثروا بواسطة الروايات الشنيعة . بينما في الأزمنة السابقة ، لم يكن أغلب النـــاس عندهم اي تعليم او مقدار جيد منه ، وكانوا في كلا الحالتين عندهم حصانة نسبية . وكما هذه البادرة تظهر ، فان الدعاية الآن عندها أهمية لم تكن لها فيما قبل .

ان الاشكال الرئيسية للدعـاية هي ثلاثـة : من أجــل الاحزاب السياسية ، من أجل الطوائف ، ومن أجل الأمم . الاول من هـذه ليس بالامكان ان يكون علانية متعهداً من قبل الدولة ، التي بإمكانها مهما كان ان تشغل في الدعاية ضد أحزاب صغيرة جـداً كالشيوعيين في انكلترا وامريكا . الدعاية من اجل الاحزاب السياسية هي بصورة رئيسية ليست موجهة في مجرى التربيـة . وبالطبع فان جو المدرسة للاغنياء يكون محافظاً . الاولاد سوف ينمون في أي حال محافظين ، وهكذا ليس هناك حاجة كثيرة لدعاية الحزب .

الطوائف والامم تعتبر اموراً مناسبة للدعايـــة في المدارس . فالروم الكاثوليك يفضلون ان يتعـلم اطفالهم في مدارس الكاثوليك الرومانيين ، والبروتستانت يفضلون جواً دينياً لطيفاً يعبر تقريباً عن اعتقادهم . فكل امـة عظيمة تتذرع بالروح القومية لتتغلغل الى مدارس الدولة ، وتعتبر هذا الشيء أهم الاجزاء القيمة لتربية الموطنين العاديين . في ظل الشيوعية القومية لا تدرس ، ولكن هناك دعاية فائقة للشيوعية مرتبطة بالمعلومات ان الاتحاد السوفيتي هو زعيمها ومن المحتمل أن يشك في ان التأثير على عقول الاولاد يختلف لدرجة بالغـــة عن القومية الناجمة عن التربية في البلاد الرأسمالية .

الدعاية في التربية تكون عادة ناجحة في اهدافها مـا لم يكن هناك سبب خاص لفشلها . إن الاغلبية العظمى للجنس البشري يتقبلون الدين الذي ترعرعوا فيـه ، والوطنية التي تعلموها في المدرسة . إن الاولاد المهاجرين في الولايات المتحدة اصبحوا وطنيين اميركيين ، وعادة يحتقرون بلاد آبائهم الاصلية . هذا الشعور هو بصورة رئيسية من تأثير المدارس . والشيء الوحيد الذي يسبب للدعاية القومية ان تفشل على نطـاق واسع هو الاندحار في الحرب . فأغلب الروس امتنعوا أن يكونوا وطنيين في عام ١٩١٧ ، وكثير من الالمان امتنعوا في عام ١٩١٨ ، واغلب هـذه الاخيرة ، مهما كان ، كانت مرغمـة بواسطة معاهدة فرساي للتخلي عن الاممية . الدعاية سوف لا تفشل كقاعدة ، مـا لم تحاول أن تجعل الناس يعتقدون شيئاً ما يكون عندهم ضدها اشمئزاز قوي ابتدائي .

انهـا لم تعد ممكنة في جعل الايرلنديين الجنوبيين يشعرون بوطنية انكليزية ، او ان يختاروا الدين البروتستانتي . فاذا كانت الدعاية تريد أن تنجح ، فانه يجب ان تلقن شيئاً ما يولد بعض نوع من الغريزة المحبذة . وفي تلك الحالة ، باستطاعتها في درجة بالغة أن تزيد حقد شعور فئة .

وحيثما تكون بعض الكراهية سارية ، فبالإمكان تقويتها . وحيثما بعض الشعور الخرافي يكمن ، فبامكانها ان تمسك بزمامها وتجعلها سائدة ، وحين يكون حب القوة راكداً بإمكانها ايقاظه . ولكن هنـاك حدود بامكاننا عملها في الدعاية من أجل الخير والشر . وعلى أقل تعديل ، طالما هذا هو الحال ، فربما عندما تكتمل الكتلة النفسية ، سوف لا يكون هناك حدود لما باستطاعة الحكومات ان تجعل رعاياها يعتقدون .

ومن المحتمل ان تكون الدعاية متعلقة بالقيم ، او بالاقتراحات العامة ، او بأمور حقائق تنطبق نوعاً ما على اعتبارات تلك الحالات الثلاث .

إن القيم النهائية ليست اموراً يكون الجدال فيها ممكناً . فاذا اعتقد انسان ان التعاسة مرغوبة ، وانها ستكون شيئاً حسناً اذا كان دائماً عنده ألم اسنان ، فمن الممكن أن لا نوافق معه . ومن الممكن ان نسخر منه عندما نمسكه ذاهباً الى طبيب الاسنان ، ولكن ليس بامكاننا ان نثبت انه مخطىء ، إلا إذا قال ان الحديد اخف من الماء .

فـــاذا كان هناك عرف يقول باعتقاد ان السعادة يجب ان تكون محصورة في اولئك الذين اسمهم الاول يبتدىء بحرف « ز » ، فمن المحتمل ان يلقى تأييد المتحمسين من جيش Zacharys و Zedekiahs و Zebedees ، ولكنه في النهايـــة سيكون مدحوراً بواسطة الفرق الصلبة من جونز وجورج . ان هذا مهما يكن سيكون نقضاً فلسفياً لرسالة النبي التي ستبقى صالحة عقلياً تماماً كما يكون نقيضها وبالنسبة للقيم النهائية يمكن أن يوافق اولاً ، على انــه عليهم ان يحاربوا بالبنادق او الاقتراع بالورق ، ولكن ليس بالامكان تبرير ذلك عقلياً .

ففي الحياة العملية ، من الصعوبة للمسائل ذات القيم النهائية ان تظهر في نقاوتها المعقولة طالمـا ان البشر مهتمون بمـا يجب ان يعمل . فالعمل الذي سينفذ يعتمد على اعتبارين .

اولاً : ما يحتمل أن يكون تأثيره .

ثانياً : سواء هذه التأثيرات تكون اجمالاً حسنة او اكثر دقـة فهي الرصيد الذي يكون احسن من تأثيرات اي عمل آخر يكون ممكناً في

الظروف . ومن هذين السؤالين الاولين ، يكون ذلك علمياً وليس نظرياً ، ويكون مسؤولاً للجدال المعقول مثل اي سؤال آخر علمي . انه عندما يكون خلاف ما يجب أن يعمل ، يتحول الى السؤال الثاني في انه ليس هناك اي امكانية نظرية لتقريره بواسطة الجدال .

ففي النزاع السياسي ليس هنـــاك نقيضان ، الواحد الاسمي والثاني حقيقي . كل انسان يترك للعمليات غير المساندة للغريزة وسوف يصر ان سعادته الخاصة هي الخـير السامي ، وتأتي بعد ذلـك عائلته في الدرجة الثانية . وبينما ذاك لأمته ولحزبه ولدينه يكون مرغوباً فيه ، طالما انـه لا يتضارب مع مصالحه الخاصة . فاذا كان ملكاً مطلقاً يمكن ان يتمسك بهذا الرأي طيلة حياته . ولكن اذا لم يكن (والذي يكون بعد كل شيء الحالة العادية) ، بامكانه ان يسلك طريقه فقط من خـلال مساعدة الحلفاء ، ومن الحصول على حلفـاء على اقل تعديل بواسطة التظاهر انه يلاحق بعض أهداف مألوفة بالنسبة له ولهم . وكقاعدة ستكون هـذه الظاهرة واقعية حيناً وجزئياً لا . فطالما انها ليست واقعية فانهـا تعتمد جزئيـاً على مولد الاحساس ، وقسما على المبررات الكاذبة . فالدور الذي يمثل بالمبررات الكاذبة هو أعظم من أي افتراض حديث غير معقول .

فمثلاً من نهـاية الحرب لغاية خريف عـــام ١٩٣١ ضحت الصناعة الانكليزية بالمصارف البريطانية لأن مجموع الصناعيين البريطانيين قـد غرر بهم بواسطة الجـدال الكاذب الذي قدم من الصرافين البريطانيين . فكل حزب سياسي ، بينما يمثل واقعيـــاً مصالح فئـــة مـا يحاول ان يقدم نفس النتيجة بواسطة وسائل شعور مثير . وفي كلا الحالتين ، فان الخلاف بالنسبة للقيم النهائية لا يظهر طالمـــا ان الحزب السياسي لا يتجرأ على

الاعتراف بأنانية الفئة التي تكون مصالحها قد شكلت لتتسع . ان كل حزب سياسي يؤكد ان اهدافه هي السعادة العظمى الممكنة لجميع المجتمع في هذا العالم وبعدها في التالي ، اذ بالامكان اهمـال المسائل ذات القيم الأدبية النهائية في وضعها العقلي ، بينما تحتفظ بأهميتها السياسية في الاوضاع الشعورية .

وضمن ما قيل يتبع أن هناك قطاعاً معتبراً في الخلافـات السياسية يكون مفتوحاً للجدال العلمي . عندما تناضل فئـة في ان مصالحها هي حقيقة متماثلة مع مصالح الآخرين ، وأن نضالها بامكانه دائماً نظرياً وبعض الاحيان عملياً أن يوافق عليه او لا يوافق ، فالأمم الأمبريالية تتمسك في ان الامم المتخلفة (أي التي لا تملك قوات مسلحة قوية) تكون أسعد مما تكون حرة تحت سيطرتها . والى غاية ما أصبح للنساء حق الانتخاب ، كان الرجال يتمسكون بأن النساء هن أسعد في ظل حكومة من الرجال اكثر من حكم من التساوي . ورؤساء الصناعة يتمسكون بأن ذوي الدخل المحدود تحت إشرافهم الحكيم هم اكثر رفاهية مما يكونون اذا كانت الصناعة عرضة لادارة عامة . مثل هذا الجدال يقنع نسبة مئوية معينة من الفئة المقصودة التي يوجه لها .

ولكن كما في هـذه الحالة ، فإنهـا ليست مدعومة من قبل الصالح الشخصي لتكون ممكنة عندما تكون كذباً في جعل هذه الحقيقة واضحة بواسطة الجدال ، وحتى الفئـة المسيطرة سوف تفقد الضمانة الشخصية اذا كانت قناعتها لصوابها الخاص بالامكان ان تكون مزعومة . وان العديد من الارستقراطيين الفرنسيين في عـام ١٧٨٩ والعديد من الارستقراطيين الروس في عـام ١٩١٧ شكوا فيما اذا كانت امتيازات نظامهم منصفة ،

ولكن من اجل هذا الشك ، فان الثورات الفرنسية والروسية كان سيكون عندها الكثير من المصاعب في النجاح .

فعملياً مهما كانت الأساليب المستخدمة في الدعاية الاخلاقية ، لغـاية هذا الحد من اجل المظاهر العقلية للمسائل القيمة ، فانها شعورية اكثر مما تكون عقلية . ولمشاهدتنا فإن جميع احكام القيم تكون مرتكزة في التحليل الاخير على الشعور ، فانه طبيعياً ان الدعاية الاخلاقية عليها ان تكون شعورية . ومهما يكن ، هنـاك تميز يعمل بالنسبة لأنواع الشعور التي تكون متولدة ، كما بالنسبة للأساليب التي تنفذ بها .

الدعاية الشعورية يمكن ان تكون مباشرة او غير مباشرة . ان كوخ العم توم هو دعايـة مباشرة ، وهكذا شأن « يا بحارة انـكلترا » . ففي الدعاية المباشرة يوصف الهدف المعني بمثل هذه الشروط ، اي يدفع نحوه الشعور المرغوب من قبل الدعائيين . والدعـاية غير المباشرة تحتوي على إثارة الشعور في النفوس بدون ارتباط مع الهدف في مناسبات تنشأ من اتحاد مع الهدف . وهذا هو عمل موسيقى الكنيسة ، وجميع الموسيقى التي تستعمل فيها يتعلق في بعض فئة اجتماعية .

إن الحب الذي تشعر به الطبقة العالية من الانـكليز من اجل مدارسهم العامة هو شعور معقد ، وعلى نطاق واسع عائد لحقيقة انـــه شعور لجتماعي قوي مختلف ، قد شعر بــه في جماهير المدرسة . وهذا الشعور قوي لدرجة كافية في ان يستمر عبر الحياة وليكون له اهميـة سياسية معتبرة . فان شعور الكاثوليك الرومانيين من أجـــل الكنيسة مرتبط بالشعور الذي شعر به بعهد الشباب في قداس منتصف الليـل في خشوع

الجمعة الحزينة ، وابتهاج عيد الفصح على البخور والظـلام والغموض . في حين يصبح شعور الاولاد والشباب من هذا النوع مشتركاً مع فئة سياسية ، فبإمكانه غالبـــاً ان يولد شعوراً يكون قادراً للتغلب على جميع العقائد الفكرية .

ان هذا الشكل من الدعاية يفهم احسن من قبل الكنيسة الكاثوليكية التي اصبح عندها تقريباً ألفا سنة لتكمل فنها . ولكن الشيء نفسه قد أنجز في حين انه اقل إكمالاً بواسطة الدول الوطنية في مثل هذه الاوضاع، كالموسيقى العسكرية والاستعراضات العسكرية . ففي عهـــد طفولتي ، كان الجنود البريطانيون لا يزالون يرتدون السترة التقليدية الحمراء، واذكر تماماً السرور في مشاهدة الفرق في العرض . فمثل هذا السرور يميـل اذا لم يكن موجهاً ضده هجوم معاكس ليولد ايماناً في العسكرية .

ان الدعاية الشعورية لها عـدة أخطار . ففي المكان الاول تكون مستعملة بسهولة تامة كما تستعمل في دافع سيء لاداة أحسن ، ولربما أكثر سهولة . حقاً ان السلوك المعقول بصورة عامـة يشمل بعض السيطرة على الشعور ، وشكلاً من الدعاية التي تحتوي على الاثارة نوعاً مـــا بسيطة ، وشعوراً غير حضاري ليس بإمكانه أن يكون عقبـــة في سبيل السلوك الحساس .

وعندما تكون الحرب آتيـــة ، فان البشر يطربون لأنهم سيدعون شعورهم البربري يلعب دوره الحر . انهم يمارسون سروراً ليس كلياً غير مشابه لذاك الذي يهدىء عادة اعتبارات الشخص عندما يقع في الحب .

إن كلا من الدين والوطنية يعوه الى شعور بدائي جداً يكون خطراً

على الحضارة . فاذا كان للبشر أن يعيشوا متقربين بحزم من بعضهم البعض ، فيجب أن يكون عندهم تنظيم اجتماعي حريص ، وأن يكبحوا غرائزهم العدوانية لبعضهم الآخر . إن صيانة مثل هذا العدد الضخم من السكان كما هو في البلاد المتحضرة حالياً ، يكون غير ممكن اذا أطلق حرية العنان للطباع غير المتحضرة ، وهكذا يكون الناس المتحضرون عندهم إزعاج مؤكد ، وتجربة للعودة الى طرق أكثر بدائية للشعور ، يرجع اليها مثيروا الدعاية الشعورية . الحرب والدين هما أهم الاوضاع السياسية لمثل هذا النوع من المرض الاجتماعي .

هناك خطر آخر للدعاية الشعورية ، هو أنها تميل الى اقفال أدمغة النقاش . فالطفل الواعي يمكن أن يكون عاقلاً ، ولكن تماماً تحت مستوى الادراك لاعتقادات لا يمكن تحويلها وهي باقية من السنين الباكرة . ان الكثير من البشر في الاوقات الهادئة يكونون عالمين ومفكرين أحراراً ولكن عندما يكون هناك خطر حرب او موت ، فإنهم يصبحون وطنيين او دينيين . وهذا يكون طبعاً عائداً جزئياً فقط للدعاية الباكرة على قياس كبير حيث انها تأثير طبيعي للخوف . ولكن الدعاية تلعب دورها في تمكين الخوف ليتنكر لذاته كشيء ما أكثر احتراماً ، مثل حب الوطن او حب الله .

والدعاية فيما يتعلق بالاقتراحات العامة مثل العقائد الدينية ، تكون موجهة بصورة رئيسية بواسطة الوسائل الشعورية . بالنسبة للكاثوليك على سبيل المثال ، فان الشعور الذي يعزز يكون متحداً مع الايمان الكاثوليكي حيث انه بدون الايمان في الافادات الفلسفية المبينة يكون غير سعيد . وحيثما يكون الاعتقاد في طائفة لها علاقة فانها تكون ممكنة نظرياً في

أن تكون متقاربة مع الوسائل العقلية الخالصة . ولكن هذا لن يكون ناجحاً إلا مع نسبة ضئيلة من النـــاس العاقلين بصورة استثنائية . وعلى العموم عندما يكون عدد ضخم من الرجال والنساء قد هجروا عقيـدة قد ترعرعوا فيها ، فانه يكون هناك بعض البواعث الاقتصادية في العمل ، في حين انه غالباً يكون بدون ادراك .

لم يكن للاصلاح أن يتمكن من النجاح الذي توصل اليه ، ولكن من أجل أراضي الكنيسة والجزية المدققة من قبل روما ، كان الاشتراكيون في القارة بصورة رئيسية معادين للمسيحية . وقد قدموا جدلاً اقتصادياً أن المسيحية هي في صالح الأغنياء ، وانـه نادراً مـــا تنازعت عقيدة دينية بنجاح من المنطق . ولعل الادراك الفرنسي في القرن الثـامن عشر هو أهم مثال .

انه مهما يكن مرغوباً ذاك المبرر الذي سيلعب دوراً أكبر مما يفعل في تقرير اعتقادات الناس ، فان فقدان الاعتقادات في مثل هذه الامور تتصرف بها العقائد الدينية . فالدعاية التي تلازم الشعور ، المديح خاصة او القدح ، تؤمن او لا تؤمن في افتراضات معينـة تكون عقبـة للروح العلمية وكذلك للحضارة .

ومع ذلك ، فمن النادر أن تتحمل الحكومات اختيار الوسائل لتعريض الاحداث لدعاية من جوانب مضادة في مسائل هامـــة مكدرة . فانه لا يساورني ادنى شك في ان هـــذا سيكون أحسن مخطط اذا كان بالامكان ادخاله .

ان مطلب المدرس هو انه يجب ان يمتنع كلياً عن التعبير عن آراء

جدلية يكون مطالباً فيها أن يكون بليداً ، وأن يخمد نصف شخصيته . والحقيقة ان أولئك الذين ليس عندهم ميل حزبي نادراً ما يعملون اساتذة قديرين . وليس مرغوباً في التربية ان تتجنب تصنعاً جميع المسائل التي تتحول بها الاحداث المناوئة . على الشباب أن يشجعوا ليفكروا في مثل هذه المسائل بواسطة سماعهم إياها تبحث عن جميع وجهات النظر .

إن الشيوعية يجب أن تناقش في المذياع أيام الاثنين المتعاقبة من قبل السفير السوفييتي ومسز ونستون تشرشل ، وأولاد المدارس يجب ان يرغموا على الاصغاء . وبعد أن يستمر النقاش ثلاثة أشهر تجري كل مدرسة انتخابات حرة . وفي أيام الثلاثاء ، تناقش الهند بين غاندي والحكم العام . وأيام الأربعاء المسيحية فيما بين ستالين ورئيس اساقفة كنتربري .

إن هذا سيكون تحضيراً حقيقياً من اجل اخذ الدور في الديمقراطية ، وسوف يعلم الفن الصعب لاستخلاص الحقائق من الادعاءات الباطلة . انها ليست دعاية كتلك التي تكون خطأ ، ولكن دعاية ذات جانب واحد .

ولتكون ناقداً للدعاية يجب إن يكون عندك ما يعرف في اميركا « بمقاومة المبيع » ، ان ذلك مرغوب فيه لدرجة . وليس للتوصل اليها بواسطة الابتعاد عن الدعاية اكثر من الحصانة من مرض الحصبة ، انه يتوصل اليها من خلال الابتعاد عن مرض الحصبة . وقد يتوصل اليها بواسطة اختبار الدعاية والاكتشاف انها غالباً مضللة . من اجل هذا الهدف ليس من مخطط ، بإمكانه ان يكون مناسباً للدعاية المنافسة في المدرسة ، التي من اجلها تزود الاذاعات بالتركيب الميكانيكي .

وأظن انه يجب الاعتراف ان عياراً معيناً من الدعاية يكون ضرورياً

من اجل الحد الأدنى من الالتحام الاجتماعي . بينما يمكن ان تكون هناك مناسبات حين يكون نقض القانون فرضاً ، فالاحترام من اجل القانون يكون على وجه العموم مرغوباً فيه .

واذا أردنا تجنب الحروب ، علينـــا ان نكوّن أداة دولية لتسوية الخلافات ، ومن الضروري تعلم الاحترام من اجل الجهـاز الذي سيعمل التسوية .

ان المجادلة من قبل محب السلم هي انها ليست مجادلة وجود الدعاية التي تسبب الضرر ، ولكن وجود الانواع المناقضة للدعاية . فاذا بدلنـا تعليم كل أمـة لقوميتها الخاصة ، تعلمت الاعجاب بالولايات المتحدة ، ولن يكون بعد الآن أي مناسبة للخلاف فيما بين الأمم .

واذا كان جميع التعليم الاقتصادي بأنحاء العالم شيوعياً ، او اذا كان جميعـه رأسمالياً ، فان الخلاف فيما بين الحكومة السوفييتية والحكومات الغربية سوف ينتهي فوراً . هكذا أقول ان محب السلم يمكن ان يناقش . فالدعاية اذاً يجب ان تكون مغايرة بقدر الامكان لأجل كل من التقدم والتربية تأملاً وموافقة . وهـذا جزء من الممانعة لكل نوع من المراقبة السياسية .

ان أحد الاقسام الهامة للتربية وأشد الاقسام المهملة ، هو ذاك الذي يعلم كيف نصل الى النتائج الحقيقية عن المدلولات غير الكافية . وكمنطقي فانني مدرك لأطلق ما يكون منطقياً دقيقاً ، انه مجرد عبث حين أرى هذا . ومهما كان جميع النجاح في الحياة العملية ، فانه يعتمد على الكفاءة لينتجز ، وهذا ظاهر مهارة غير ممكنة .

ان القائد الناجح هو الشخص الذي يحزر بصواب ما يعمل خصمه . والمنظم الناجح يكون الشخص الذي بامكانه ان يختـار أعوانه الجيدين بعد مواجهة قصيرة . حتى رجل العلم النـاجح يعمل تخميناً فيما يمكن تحقيقه بعد .

ففي السياسة ، تكون المدلولات كافية بصعوبة لتمكن رجلاً عاقلاً ان يتوصل الى نتيجة معقولة . ولكنها تكون غالباً هكذا كي تمكن الانسان الذي يكون عاقلاً وماكراً ليصل الى نتيجة بارعة . ولعمل هـذا ، تتطلب الفقدان العلمي للميل وقوة الافكار الحدسية . ولكنها تتطلب ايضاً شيئاً آخر – تلك النوعية التي تدعى بابهام الحكم .

هـذه هي النوعية التي تتحسن بدرجة بالغة في اي اتجـاه بواسطة خبرة في المواد المناسبة . فالشباب يتوجب عليهم في بعض أطوار تربيتهم ان يتعلموا التمييز السياسي بواسطة الاصغاء الى بلاغة معروفة مقـدماً ، لتكون مضللة بواسطة قراءة الروايات الحزبيـة عن الأحداث الماضية ومحاولة استنتاج ما حدث حقيقة وهلم جراً . ان جميع هذا هو عكس الدعاية ، انه التكنيك من اجل تقديم مناعة الرجال للدعاية .

انني مدرك لما كنت أقوله ، فقـد اتخذت تقديراً لجميع الجوانب في المباحثات التي هي موافقة جداً لهذا الانجاز . لقد أكدت على ان الآراء يمكن ان تكون صحيحة او كاذبة ، وليس مجرد مفيـدة وضارة ، كما أكدت انها قاعدة في اي حال حيث شؤون الحقائق تكون مفيدة ومن السهل لتعرف سواء كان الرأي صحيحاً اكثر ممـا يكون نافعاً . وأخيراً لقد أكدت ذلك كقاعدة عامة . انها اكثر نفعاً لتصدق مـا هو صحيح

مما يكون كاذباً . ان جميع هذه التقديرات يمكن ان تتحدى وذلك من قبل الفلاسفة المنطقيين والشيوعيين . فدعونا اذاً نتفحصهم بأكثر دقة .

لقد قيل ان القيصر قتل في عيد منتصف آذار . لم أفحص الافادة بأي اعتناء ، ولكنني قرأت الرواية في كتب مختلفة ، ويظهر انه معتمد عليها وأنا هكذا صدقتها . ففي عهد الشباب يمكن ان يكون مفيداً لتصديقها طالما انه ممكن ان تكون مساعدة في اجتياز الامتحانات . ولكن عندما تنقضي فترة الامتحانات ، فان هذا الاعتقاد يتوقف عن خدمة أي هدف نافع .

وفي الحال نأتي الى افتراضنا الثاني ، حيث بوضوح أسهل لتعرف الحقيقة من الافتراض « القيصر قتل في عيد منتصف آذار » مما يكون لتعرف منفعتها ، الا لمن يجتازون الامتحانات فانها لدرجة كبيرة عرضة للتساؤل . ففي قولنا هذا ، ومن المحتمل ان أظهر لأنقض الافتراض الثالث اسمياً ، على انه كقاعدة عامة فانه اكثر نفعاً لتصديق ما هو حقيقة مما هو كاذب .

ان هذا يكون صحيحاً فقط عندما تكون هناك منفعة في واحد او آخر . وأغلب الافتراضات لا تستحق التصديق او عدم التصديق .

تصور عملية الضرب تمتد بصورة غير محدودة لأرقام اكبر فأكبر ، انها ستحتوي على عدد غير محدود من الافتراضات ، التي منها عدد محدود فقط سيكون نافعاً عملياً . ولكن حينما تكون احدى هذه الافتراسات من أجل سبب ما يحتاج اليها ، فانها تكون في أعلى درجة غير محتملة ، ليكون من الاحسن الحصول عليها خطأ مما تكون صواباً .

ومن غير الممكن ذلك طالما انك ارتكبت غلطة سابقة تقاس تماماً بغلطتك الجديدة . لكن هـذه الامكانية بعيدة جداً عن أن تهم السياسيين والذين يطالبون بصواب ان الاولاد يجب ان يعملوا حسابهم بصواب .

لعل عملية الحساب يسلم بها من قبل الشيوعيين ، ولكن فـيما يتعلق بالآراء الجدلية فانه سوف يتمسك بـأن هناك وجهة نظر برجوازية ووجهة نظر بروليتارية . خذ على سبيل المثال مسألة الخلود . فان الطريقة للتصرف في هذه المسألة هي ان الشيوعي سيقول انه لا يفحص علاقات الروح والجسد او البنية التي قدمت من قبـل الابحاث الروحانيه ، ولم تتمكن بعد من ارجاء الحكم على اساس ان البنية تكون غير كافية من اجل قرار ، ولكن لتلاحظ ان وعد السماء فـيما بعد يستخدم ليجعل البروليتاريين يقنعون بنصيبهم هنا تحت ويقبلون بأجورهم المنخفضة مـع أنهم يطلبون خلاف ذلك . وهكذا تكون عقيدة البقاء قد جعلت لتظهر كأحد اسلحة الرأسمالية ، في حـين ان تكذيبها يكون احد اسلحة الشيوعية .

ان مسألة الصدق او الكذب لا تدخل في هـذا الشأن ، فواحد بامكانه ايضاً ان يسأل هـل الرصاصة هي حقيقة ام كذب . ان الشيء الهـام بالنسبة للرصاصة يكون اي جيش تخدم ؟ وبالضبط نفس الشيء يكون ما هو هام بالنسبة للرأي .

هذه وجهة النظر هي طبعاً انكار للوضع العلمي ، وهي تكون عـبر اقليم كبير ممكنة لاكتشاف الصدق التقريبي ، وانه حيث يكون هذا غير ممكن لتردد الحكم ، يكون الوضع المعقول الوحيد . علاوة على ذلـك ، فان الشيوعي لا يتمسك بصورة مناسبة بوضعه الخاص الالحادي .

ان مذهب الماديين المنطقيين يتمسك به لكونه حقيقة واقعة ، وليس هناك اعتقاد موافق من اجل البروليتاري ليؤمن به . والافتراض ان كذا وكذا لا يمكن ان يجعل القواعد لعمل ناشري الدعاية ، فان الفلسفة البرجماتية للشيوعي ينقصها هكذا الشجاعة ، واكثر بقليل عـــن تعبير فقدان الصبر .

انني انجز ان هناك حقائق بالامكان معرفـــة بعضها تقريباً وذاك يكون غالباً مفيداً ، وذاك الاعتقاد الذي يكون كذباً هو نادر ومفيد . وانني انجز ابعد من ذلك في انها تكون واحدة من اهداف التربية تعلم الاحداث ليتوصلوا الى نتائج صحيحة حيثما يكون ذلك ممكناً .

ان الفشل لعمل هــذا سوف ينمي المرارة في روح الحزب ، وخطر نزاع مدمر . بينما مــن الجانب العقلي تؤخر بشدة التقدم العلمي . جميع هــذه البيانات ستعمل جيداً عندما تغري لاستعراض التربية كمجرد فرع من الدعاية السياسية .



١٦

التوفيق بين الفردية والمواطنة

في الفصل الأول طرحنا سؤالاً : هل بإمكان نشوء الفرد الكامل أن يكون مرتبطاً بأقل مـا يمكن من التلاحم الاجتماعي الضروري ؟ وهذا قادنا الى اعتبار الأساليب المختلفة التي تكون بها التربية متأثرة بالسياسة والاقتصاد موجوداً أغلبها ليكون ضاراً للأولاد والبنات المعينين . هل من الضروري ان يكون تأثير السياسة والاقتصاد على الفرد دائمـاً ضاراً ؟ أم أن هذا سوء طالع مؤقت لزماننا ؟ وفي الحالة الاخيرة ما هو الأمل القائم لتناسب اكثر فيما بين الفردية والمواطنية في المستقبل غير البعيد ؟

إن الضرر الذي يلحق التربية بواسطة السياسة ينبع بصورة رئيسية من مصدرين : الأول ، هو أن مصالح بعض فئات حزبية توضع قبـــل مصالح العنصر البشري . والثاني ، ان هناك حباً متزايداً لدرجة في التشابه في كل من الشعب وموظفي الحكومة . ومن هذين الشرين ، فان الاول حاليـــاً هو الاعظم . ولكن اذا تغلب على الشر الاول فان الثاني سيصبح محزناً .

لقد كانت عادة التربية تحبيذ بلد الشخص الخاص ودينه الخاص ، وجنس الذكور ، والثراء . ففي البلاد حيث تكون عدة اديان مختلفة قائمة جنباً الى جنب ، فان الدولة لا تتمكن من تحبيذ اي منها في مدارسها . ولكن هذا يقود الى خلق تبعية المدارس لطوائف مختلفة أو كما في مدينة نيويورك وبوسطن ، فانها ميالة للانحراف في صالح الكاثوليك بالتاريخ الذي يدرس في المدارس العامة [1] .

إن جنس الذكور ليس بامكانه ان يفضل اكثر من ذلك كما اعتاد أن يكون . ولكن التربية في روسيا لا تزال توجه لتبعد مصالح الاغنياء ، وطبعاً في كل مكان تعلم الاخلاص الشامل لدولة الفرد الخاصة .

ونتيجة الوضع الراهن هي ان التربية اصبحت جزءاً من الكفاح من اجل النفوذ فيما بين الاديان والطبقات والامم . فان الطالب لا يعتبر من اجل خاطره الخاص ولكن كمتطوع : ان الآلة التربوية ليست مهتمة في رفاهيته ، ولكن بأهداف سياسية بعيدة المدى . وليس هناك مبرر للافتراض ان الدولة سوف تضع مصالح الطفل قبل مصالحها ، ولذا علينا ان نستفسر سواء هناك أي امكانية للدولة التي نرى أن مصالحها فيما يتعلق بالتربية ، سوف تكون مماثلة مع تلك المصالح للطفل .

من الواضح أن المطلب الاول لهذا الهدف هو إزالة الحروب على نطاق واسع . فاذا هذا توصل اليه بواسطة إقامة سلطة دولية ، فان تعليم الوطنية العسكرية سوف لا يخدم بعدها اي هدف ، كما سيضمحل حالاً لدرجة يصبح عديم الضرر . وسوف لا يكون هناك أي حاجة لدورات

(١) في مدينة نيويورك ، على سبيل المثال ، لا يستطيع الاساتذة التكلم عن حركة الاصلاح في « الثورة البروتستانتية » .

تدريب الضباط او للخدمة العسكرية الاجبارية ، او من اجـل تدريس تاريخ كاذب . فان التدريب المسلكي سوف لا يكون بعد ذلك ، عنده قتل الانسان للانسان كأسمى هدف لحياة فاضلة وكل شيء سواه يوصل اليه . ان إقامة سلطة دولية قوية ، تفرض حلولها في الخلافات مـا بين الدول المتنازعة ستكون احسن شكل من وجهة النظر التربوية كما من أي وجهة نظر اخرى .

هناك مهما يكن عقبات مخيفة لإقامة مثل هـذه السلطة — عقبات مخيفة اكثر بكثير مما يدرك اغلب المصلحين . اعتبر مثل هـذا الوضع القائم فيما بين الشيوعية والرأسمالية ، انه من غير المحتمل لدرجة بالغة ان يسوى هذا الوضع سلمياً . فمن كلا الجانبين يعتبرها البشر حيوية لدرجة تستحق ان يحاربوا من اجلها ، ومن الصعب التصور ان اي جهاز دولي قوي يمنعها من ان توصل للحرب .

تصور على سبيل المثال ، حرباً أهلية في المانيا مـــا بين الشيوعيين والوطنيين ، فهل تتطلع كل من روسيا وفرنسا اليها بنظرة عابرة ؟ واذا انخرط فيها الكل ، فهل بامكان بريطانيا العظمى ان تبقى على الحياد ؟ وهل تغامر الولايات المتحدة بانتشار الشيوعية في جميع القارة الاوروبية ؟ وهل تتوانى كل من الصين والهند من الاستفادة من هذه المناسبة ؟ فالى ان تقرر المشكلة بين الشيوعية والرأسمالية في أسلوب او آخر ، فان العالم لا يمكن ضمانه مهما كان الجهاز الذي سيوجد .

ومن الصعب ادراك كيف بامكان هذا المشكل ان يقرر إلا بانتصار الشيوعية على اقل تعديل في جميع انحاء اوروبا . وبعدها لم تعط الرأسمالية قناعة لأنها لن تكون بعيدة حيث يمكن ان يصبح المستوى العام للرخاء

في روسيا اعلى من أي مكان آخر . فان تأثير الدعاية في الوضع الراهن سوف لا يقاوم . ويظهر انـــه من المحتمل ان اقرب طريق لسلم العالم ينحصر في الدعاية الروسية . فاذا كان الوضع هكذا ، فانـه من قصر النظر ان نمنع اي أساليب صارمة تستخدم من قبل الحكومة السوفييتية في تدريسها الشيوعبة لأبنائها وبناتها . إنني لا أقدر هـــذا بالتأكيد ، ولكن مجرد اقتراح ، ليس بأي حال غير محتمل .

من الواضح طبعاً انه لا عكن ضمان السلم لغاية مـا يتوقف عقاب المانيا بعد دحرها في الحرب ، وان هذا لن يحدث لغاية مـــا تتوقف فرنسا عـن احتلال اوروبا . ومن المحتمل ان فرنسا لن تتوقف عـن الاحتلال إلا نتيجة لحرب .

ومما لا شك فيه ايضاً سواء تحررت الهند من الاحتلال الانـكليزي ، والصين من اليابان . يمكن التوصل الى ذلك بدون حرب من الدرجة الاولى .

ان جميع هذه القضايا الكبيرة سوف يكون عليها ان تحل قبل ان يكون هناك اي امـل جدي للمحافظة على السلم بواسطة ايجـاد سلطة دولية . فمن المحتمل ان تحل جميعها بواسطة انتصار الشيوعية خـــلال العشرين سنة القادمة ، ولكني نادراً ما اكون متفائلاً في توقع هذا .

الشيء الثاني لإزالة الحروب وهو المطلب الاكثر أهمية في تسوية الفردية والمواطنة ، ذلك في إزالة الخرافات . ومن اجل هذا الهدف ، فانني أحدد اعتقاداً خرافياً اذا كانت قاعدته الوحيدة تقليدية او حسية . فعنـــدما يعتبر الناس التمسك بمثل هــذه الاعتقادات هاماً ، فانهم يوجدون أنظمة للتربية تشتمل على احترام لحكمة أجدادنا ، وعـادة لتقرير المشاكل خلافاً للظروف المعقولة . فمن بيدهم زمام السلطة حتماً ، يرغب أغلبهم مواضيعهم

لتكون حسية اكثر مما تكون معقولة ، طالما ان هذا يجعلها اسهل لجعل اولئك الذين هم ضحايا نظام اجتماعي جائر قانمين بنصيبهم .

هكذا يصبح التخيُّلُ حليفاً حيادياً للظلم ، وفقط حيث تكون المؤسسات الاقتصادية والسياسية تماماً تربية حكومية محتملة ، تنمي وجهة نظر معقولة .

انها طبعاً ليست بواسطة اي وسائل معينة ، اذا أُقيم نظام اقتصادي عادل ، نتيجة للخلافات الطويلة ، وستكون في بادىء الامر غير مصحوبة بالتخيل . ففي أثناء الحروب اعتاد الاعتقاد الكاذب ان يولد الحماس ، والنظام الادراكي الصارم سيكون مفيداً في منع الشكوك فيما يتعلق بأهمية السبب .

ان الشيوعية الروسية لها تماماً جهازها من الايمان اللاهوتي وقدسيتها وتاريخها المقدس . فاذا بعد قرن من الكفاح ، هدى المذهب الروسي العالم ، فانه في فترات يكون قد أوجد العديد من الخرافات ، وتوصل الى عنف عقائدي عظيم . وعندما يحل الوقت ، فان الانسان الذي سوف يغامر ليقول ان ماركس ولينين لم يكونا أعظم الرجال الذين عاشوا لتاريخه ، فمن المحتمل ان يعاقب بشدة .

انها ممكنة في حين انني لا افكر انها محتملة ، على ان الحزب الشيوعي يمكن ان يحتل مركزاً مشابهاً لمركز الكنيسة في العصور المظلمة . وانه من الممكن ان الحروب التي ستسبق انتصار الشيوعية سوف تدمر جميع المعامل الصناعية في العالم ، وتسبب الموت لجميع رجال الفكر والاختصاصيين الأكفاء .

ففي تلك الحالة اذا وجد مسجلاً في الكتب المقدسة ان لينين توقع

النجاة من « التكهرب » فان الناس يمكن ان يستغربوا ماذا عنت تلك الكلمة ، ويمكن ان يستنتجوا انها اشارة الى اتحاد غامض مع كارل ماركس .

انه ليس معقولاً أن تأتي حكومة عالمية ذات نظام اقتصادي عادل يكون مسيطراً عليها الاوهام . ولكن هذا من الصعب أن يحدث إلا بواسطة تقديرات الحروب المدمرة الفظيعة .

وفي أي تقديرات اخرى يكون متوقعاً ان عناصر الوهم ، التي هي حالياً ملازمة للحكومة السوفيتية سوف تضمحل عندما يكون النصر قد ازال الحاجة لعقلية الحرب . وعلى المدى البعيد ، حتى الاعتقاد بالشيوعية ، سوف يتوقف ليظهر هاماً ، طالما انه لن يأتي نظام آخر ضمن وجهة نظر السياسة العملية .

وسآتي الآن الى خطر ثان ، وهو الحب العظيم للابهة . هذا يمكن أن يقوم كما قلنا سابقاً في كل من البيروقراطية والجمع .

ان الاطفال هم غريزياً معادين لأي شيء غريب في الاطفال الآخرين ، خاصة في الاعمار من العاشرة الى الخامسة عشرة . فاذا ادركت السلطات ان هذه العادة غير مرغوبة فانه بامكانها التحفظ ضدها في طرق مختلفة وبامكانها كما كان قد اقترح في فصل سابق ان تضع الاولاد الامهر في مدارس منفصلة .

ان تعنت العجائب الذي اتكلم عنه ليس الاقوى في الاولاد البلهاء الذين يميلون لاعتبار الاذواق الغريبة للاولاد الممتازين ، كانها تقدم مبررات للقصاص . وعندما تكون السلطات ايضاً حمقاء (والذي يمكن أن يحدث)

فانها تميل مع الاولاد الحمق ، وتذعن على اقـــل تعديل ضمنياً في معاملة قاسية لاولئك الذين يظهرون نبوغاً .

ففي تلك الحالة ، سوف يحل المجتمع الذي فيه جميع المراكز الهامة تكسب من قبل اولئك الذين حماقتهم تمكنهم من بسط الجمهور . فمثـل هذا المجتمع سيكون فيه ساسة فاسدون ، وأساتذة مدارس جهلاء،وشرطة لا تتمكن من القبض على المجرمين ، وقضاة يدينون الناس الابرياء . هذا المجتمع ، حتى اذا حـل في بلد مليء بالثورة الطبيعية فسوف يصبح في النهاية فقيراً من عدم الكفاءة في اختيار الرجال القادرين للمراكز الهامة. وفي حين يكون كذلك ، فانه يمكن ان يكون هزاراً للحرية ، وحتى ان يقيم نصباً تذكارية على شرفها . وبذلك يكون مجتمـع تعذيب ، يوقع القصاص في كل انسان قد تخلصه آراؤه من الكوارث .

ان جميع هذا سوف ينبع من الضغط المفرط شكلاً من قبل المجتمع : فأولاً في المدرسة ، وفيما بعـد في العـالم على نطاق واسع . فحيث يكون مثل هذا الضغط المتزايد سارياً ، فان اولئك الذين يوجهون التربية ليسوا مدركين انها شريرة . وحقاً انهم جديرون تماماً ليرحبوا بها كقوة تعمل من اجل السلوك الحسن .

انـه من المهم اذاً ان نعتبر الظروف التي تــدفع اساتذة المدارس وموظفي التربيـة أن يقعوا في خطأ نظام من المحتمل ان يمنعهم من أن يفعلوا هكذا .

هناك في مهنة التدريس نوعان مختلفان تماماً . اولئك الذين عنــدهم حماس لبعض موضوع ، والذين يحبون تعليمه ويغرسون حماسهم الخاص في طلابهم . ومن الجهة الثانية ، هناك اولئك الذين يتمتعون بمركز السلطة

والسيادة السهلة ، والذين يحبون الحكم ، وليس عندهم مهارة كافية ليحكموا رجالاً راشدين . فبعض الأنظمة تحبـــذ النوع الاسبق وبعضها الاخير . وان الكفاءة الحديثة تميل أكثر فأكثر لتحبيذ الانسان الذي يحكم عن ذاك الذي يعلم .

انني لا أنكر ان نوع الحكم له فوائده ، فلقـــد عرفت مرة سيدة علمت في مدرسة عامة في تكساس ، وقد وجدت انه من الضروري أن تأتي دائماً مسلحة بمسدس الى الأماكن النائية . وفي الاقاليم المبعثرة السكان ، فان الاولاد او البنـــات الذين يكونون متمردين بصورة غير طبيعية ، بالامكان عزلهم مع النتيجة ان اولئك الذين يبقون يكونون قـد فقدوا قائد حلقتهم ، وسيصبحون عرضة لأساليب أقل عنفاً .

ان الاستاذ الموحى اليه بواسطة حبـه لموضوعه مرتبط مع عواطف الاولاد ، بإمكانه في أغلب المناسبات الحصول على أكثر عن طريق للمعرفة والحضارة . وذلك من قبل الانسان الذي يحب النظام والأسلوب والكفاءة ، ولكنه يفتقر الى المعرفة ويكره الاولاد . ولسوء الحظ ، ففي اي مدرسة كبيرة ، هناك مقدار معتبر من الروتين الاداري ، الذي ينفذ بصورة عامة لأكمل درجة من قبل اسوأ الأساتذة .

وبما ان السلطات العليا ترى العمل الاداري ولكنها عرضة ان ترى التدريس ، فهناك ميل للرصيد أن يكون تماماً مقسماً خطأ . وعلاوة على ذلك ، ففي أي جهـاز اداري كبير يكون الموظفون المشرفون عليـــه يمتبرون طبيعياً الادارة الأكثر شرفية في النوع الصعب من العمل ، مع نتيجـــة ان المراكز الأحسن والراتب الأعلى تمنح لأولئك الذين يقومون بالعمل الاداري للمدارس ، أكثر من أولئك الذين فعلاً يُدرِّسون .

وجميع هذا يظهر ليجلب النوع الخاطىء من الدراسة . انــه النوع التنفيذي الذي يشجع الأبهة بينما النوع الآخر يسر بالمقـدرة (والتي هي بحد ذاتها شذوذ) . ومن اجل شأن المقدرة ، فانها قابلة لتحمل الأوضاع الاخرى من الغرائب . وهامة جداً في منازلة خطر الابهـــة ، لتشجيع الاساتذة الذين يحبون التدريس أكثر من أولئك الذين يحبون الحكم .

اننا آتون هنا على صورة واحدة لمعضل من المحتمل أن ينمو بتزايد جدي ، طالما ان العالم يصبح أكثر تنظيماً . ان الانسان الذي عنـــده مركز سلطة في منظمة عظيمة يتطلب نوعاً محدداً من الكفاءة اسمياً وما يدعى منفذاً او ادارياً . انها تعمل فرقـاً قليلاً فيما يكون الشأن الذي تتداوله المنظمة ، ونوع من المهارة المطلوبة في القمة ، سوف تكون دائماً نفس الشيء . والانسان الذي بإمكانه أن ينظم بنجاح (دعونا نفترض) تجارة قطن لانكشير ، فانه سوف يكون ايضاً ناجحـاً اذا تسلم الدفاع عن لندن ، والتنقيب في آسيا الوسطى ، او نقل الاخشاب من كولومبيا الى انكلترا .

من أجل هذه التعهدات المختلفة فانه لا يتطلب اي معرفة بالقطن ، ولا معرفة بشؤون الحرب ، ولا معرفة بالمدن المدفونة في تركستان ، ولا معرفة بالغابات او الملاحة .

ان المساعدين في المراكز الادنى سوف يتطلبون في الحالات العديدة هذه الانواع الكثيرة من المهارة ، ولكن مهارة تكون ادراكياً خلاصة ، ولا تعتمد على علم اختصاصي . فاذاً هكذا حـدث كما تزداد المنظمات في الحجم ، فان المراكز الهامـــة للسلطة تظهر أكثر فأكثر لتكون بأيدي رجال ليس عندهم اي إلفة مع اهداف العمل الذي ينظمونه . بينما هذا

لا يمكن تجنبه ، فان له اخطاره ؛ ولنعـد الى موضوعنا فان له أخطاره في مجال التربية .

ففي ركن التربية ينبع خطر الاداري من خلال حبـه للتصنيف والاحصاءات . ومن غير الممكن أن لا يكون عنده الصبر ، طالما انـه يتصرف بسرعة بكتل هائـلة من المواد ، والتي فقط التصنيف سوف يمكّنه من أن يعمل . الآن في بعض أنواع من المواد ، يكون التصنيف كافياً تماماً ، وهذا حين يحدث ، يكون هناك أنواع خام مثمرة جداً .

فان الخضري يبيع البـازيلاء والفصوليا والسبانخ والملفوف ، وليس ملزماً أن يتوقف ليسأل نفسه « هل هـذا الشيء بازيلاء او قرنبيط ؟ » فمع الاولاد يكون الأمر خلاف ذلك .

فالسؤال فيما اذا كان الولد المعين ناقصاً عقلياً ، فانه غالباً يكون سؤال حد فاصل ، والذي نتكلم عنـه علميـاً ، فلا جواب قيم يمكن ان يعطى . ولكن لنتكلم ادارياً ، فان الجواب القيم يجب ان يعطى ، سواء ارسل الطفل الى مدرسة خاصة او حفظ في المدرسة العادية .

إن الاداري إذاً ينظر حوله لبعض الوسائل للتوصل الى قيم لا وجود لها في الطبيعة ، وهذه أحد الاسباب التي من أجلها يظهر لتخريب وسائل الذكاء . وما ينطبق في حالة النقص العقلي ينطبق ايضاً في حالة تصنيف عقلي . فان الرجل الذي يتعامل عاطفياً مع فئة قليلة من الاولاد يعرفهم كافراد ويشعر بأشياء عنهم ، يصعب وضعها في كلمات ، فغالباً ما هو غريب عن الطفل هو ان مثل هذا الانسان يحب الاحسن .

ولكن الانسان الذي يستعرض الاطفال من بعـد ، بواسطة ضباب التقارير الرسمية ، يكون متضجراً من هذا النوع . ويتمنى ان يكون جميع

الاولاد متشابهين ، طالما ان ذاك سيجعل عمله سهلا ، ولكنه مرغماً ليعترف بالتصنيف بواسطة العمر ، الجنس ، الجنسية ، والدين . وان اغلب المتنورين يقرون ايضاً التصنيف بواسطة اختبارات الذكاء .

ولكن حتى اغلب المتنورين يحبذون كل شيء مقطوع ومجفف ، وينسون نوعية حياة الفرد التي تجعل كل مخلوق مختلفاً عن كل الآخرين . فلهذا السبب ، هناك خطر خشية موظفي التربية ان يشجعوا التوحيد الذي يميل العالم باتجاهه في اي حال .

ان هذا مشكل اداري ، وحله الاداري الاسمي هو الانتقال . فاذا كانت هناك حكومة عالمية فانه مما لا شك فيه انها سوف تمارس درجة معينة من الاشراف على جميع التربية ، وانها ستمنع التعليم المتزايد للوطنية المحلية ، ومن الممكن ان تمنع العقائد التي تعتبرها هدامة .

ولكن في جميع الشؤون الاخرى ، فانها مما لا شك فيه تترك التربية لتنظم محلياً . فاذا كان موحى اليها بروح علمية ، فانها ستسمح ايضاً للتجارب المختلفة في اساليب جديدة . حيث الروح الاختبارية تكون حالياً اجنبية لأغلب الاداريين ، ولكن اذا كانت التربية أعمق علمياً فانها ستصبح اكثر الفة .

والى الروح الاختبارية يجب ان نتطلع الى احتمال منافذ واستثناءات في الوضع العلمي . وبدون منافذ او استثناءات سوف يكون هناك تقدم ضئيل وتنوع غير كاف ، ولكني اظن ان هذا يصبح مصدقاً من قبل الموظفين عندما يحصل جميعهم على تربية علمية وليس فقط على علم الطب والكيمياء ولكن ايضاً في علم الحياة .

ان الفردية في حين انها هامة ، ليس لننسى مطالبها العادلة وحاجتها في عالم صناعي مكتظ بالسكان ، ليكون مشرفاً عليه ، حتى في علم

نفس الفرد ، اكثر مما كان عليه في الازمنة السابقة . وجميع الذين عاشوا منا في مدن كبيرة حصلوا على اساليب التوجيه في الجماهير لمنع الاضطراب : اننـا نحافظ على اليمين ونتحرك بالسرعة الملائمـة ونعبر الشوارع حيث يتوجب علينا ذلك .

هذه الامور صغيرة وخارجية ، ولكن شيء ما من نفس النوع يكون مطلوباً في امور اكثر اهمية . لقـد اعتاد القديس يوحنا المعمدان ان يتجول بلباس غير كاف هاتفاً : « توبوا انتم من اجل ملكوت السموات التي تكون باليد » . فاذا اقدم رجل لعمل هذا في لندن او نيويورك ، فانه سوف يجمع جمهوراً كبيراً بحيث يعطل حركة السير ، ويكون على الشرطة أن تعلمه كيف عليه أن يستأجر قاعة قبل أن يطلق ميوله .

ان القليل جداً من الناس في المجتمع الصناعي يكونون وحدة مستقلة في عملهم ، والاغلبية الساحقـة تنتمي الى منظمة ، وعليهم أن يقوموا بقسمهم من التعهد الجماعي .

ان ادراك المواطن للمجتمع التعاوني يكون اذن اكثر ضرورة عمـا كان عليه ، ولكنه يبقى هاماً لأن يضمن هذا بدون تقليل كبير من حكم الفرد وبداهة الفرد . فـاذا كانت حياة الانسان مرضية سواء من وجهة نظره او من العالم على نطاق واسع ، فانهـا تتطلب نوعين من التناسب ، تناسب الذكاء الداخلي، واحساس وارادة وتناسب خارجي مع ارادة الآخرين.

ان التناسب الداخلي يمنع بواسطة الدين والتعاليم السلوكية التي تعطى في عهد الطفولة والشباب ، والتي عـــادة تستمر لتتحكم بالشعور ، ولكن ليس العبقرية في الحياة الاخيرة . بينما الارادة تترك تترجح في ميل جانب او آخر طبقاً لما يكون الشعور او الذكاء له مؤقتاً اليد العليا .

مثل هـذه المنازعات بالامكان منعها اذا تعلم الاحداث عقائد يكون

بامكان الاذكياء الراشدين ان يتقبلوها . بالامكان عمل هذا في المدارس الخاصة على نطاق ضيق ، ولكن بدون معاونة الدولة لا يمكن تطبيقها على معدل كبير كاف ، لتعطي نتائج يكون عندها خلاف عن الاهمية الاختبارية .

ان امر التناسب الخارجي مع ارادة الآخرين يكون اكثر صعوبة وليس كفؤاً لحل كامل . التنافس والتعاون كلاهما فعاليات بشرية طبيعية في العالم الحديث . قد يتزاحم رجلان من اجل ود المرأة بدون ضرر لأي شخص ، شريطة أن يبقى تنافسهم بعيداً عن القتال . والشكل الخطير لعدم التوافق في العالم الحديث يكون الشكل المنظم فيما بين الامم والطبقات . فطالما ان هذا النوع من التوافق قائماً ، فان العالم لن يكون بامكانه التمتع بالفوائد التي جعلها العلم والتكنيك ممكنةً .

ان عدمَ التوافق فيما بين الامم يشجع بواسطة التربية في وقتنا الحاضر ، ويمكن أن يأتي على نهايته بواسطة ادخال الدعاية العالمية الى المدارس . وهذا قد يكون نوعاً ما ممكناً بصعوبة بدون الانتصار السابق للسياسة العالمية . بامكان التربية أن تثبت الانجازات السياسية ، ولكن ليس من المحتمل أن تجعلها هكذا ، طالما انه مشرف عليها من قبل الدول الوطنية .

لقد كانت هناك أزمة عندما كانت المنافسة في شكل حرب مفيدة للمنتصر . تلك الأزمنة مضت . وواضح الآن لكل شخص مفكر ان كل أمة ستكون أسعد اذا حلت جميع القوات المسلحة في كل مكان ، وتساوت جميع الخلافات ما بين الامم بواسطة محكمة عدل دولية ، وتكون كافة التعريفات قد أزيلت ، وبامكان جميع الناس الانتقال بحرية من بلد لآخر .

ان العلم قـــد غير هكذا نظامنا كي يجعل العـالم وحدة اقتصادية واحدة . ولكن منظماتنا السياسية واعتقادنا أخر نظامنا ، وكل أمة تجعل نفسها فقيرة اصطناعياً يكون بواسطة الحجر الاقتصادي . لقـد اوجدنا تدابير توفير العمال واننا مزعجون من البطالة . فعندما لا نتمكن من بيـع منتوجاتنا ، فاننا نخفض الأجور تحت الانطباع الظاهر على ان الأقـل ما يحصله الناس الاكثر سينفقون . وجميع هذه الشرور تنبع من مصدر واحد ، هو انه بينما نظامنا يتطلب تعاون جميع الجنس البشري كوحدة انتاجية ووحدة استهلاكية ، فان عواطفنـا واعتقادنا السياسي يثابر على طلب المنافسة .

إن عالمنا عالم مجنون منذ عام ١٩١٤ ، قد توقف ليكون بَنّـاءً لأن الناس لا يتعبون عقولهم في خلق تعـاون دولي ، ولكنهم يصرون على الاحتفاظ بتقسيم الجنس البشري الى فئات متعادية . وهذا الفشل الاجماعي لاستعمال الذكاء الذي يملكه الناس لأهداف الاحتفاظ الذاتي يعود بصورة رئيسية الى غرائز الجنون المدمرة ، التي تكمن في عدم ادراك اولئـك الذين أديروا بسوء حكمة في طفولتهم وشبابهم وبلوغهم .

وبالرغم من تحسين النظام باستمرار في الانتاج ، فاننا جميعاً ننمو أفقر . وبالرغم من كوننا مدركين فظائع الحرب التالية فاننا نتابـع لنغرس في الاحداث تلك العقائد التي سوف تجعلها محتمة . وبالرغم من العـلم فاننا نتصرف ضد عادة اعتبار المشاكل بواقعية . وعلى الرغم من زيادة النظام على الطبيعة فان اغلب الناس يشعرون بدون أمل وعاجزين عمـا كانوا يشعرون به منذ القرون الوسطى . ان مصدر كل هذا لا ينحصر في العالم الخارجي ، ولا ينحصر في العواطف الخالصة ، بل في الجزء الحساس الخالص من طبيعتنا ، طالما اننا نعرف اكثر مما عرف الناس سابقاً . انها تنحصر

في عواطفنا ، وفي عاداتنا الشعورية ، وتنحصر في العقائد التي غرست في عهـد الشباب ، وفي الذعر الذي خلق في الطفولة . والعلاج لمشكلنا هو أن نجعل الناس عقلاء . ولجعـــل الناس عقلاء يجب ان يهذبوا بتعقل . وتميل حاليـاً العوامل المختلفة التي كنا نبحثهـا الى المآسي الاجتماعية . إن الدين يشجع الحمق وإدراك غير كاف للحقيقة ، وتربية الجنس بصورة مستمرة تنتج اضطراباً عصبياً ، وحيثما تفشل لتعمل هكذا علناً ، فغالباً جداً تزرع التنازع في عدم الادراك ، والتي تجعل السعادة في حياة الراشد غير ممكنة. فالوطنية ، كما تدرس في المدرسة تدل على ان أهم واجبات الشباب هو القتال ، وشعور الطبقية ينمي الرضوخ لعدم العدالة الاقتصادية، والمنافسة تنمي عدم الاكتراث في الكفاح الاجتماعي .

وهل بالامكان الاستغراب في أنه في عالم تكون فيـه طاقات الدولة مكرسة لتخلق في الاحداث الجنون والحمق ، والاستعداد للقتـال ، وعدم العدالة الاقتصادية وعدم الاكتراث – هل يمكن الاستغراب من ذلك ؟

انني أقول أن مثل هذا العالم ليس سعيداً ؟ وسيُدان الانسان كفاسد وهدّام لأنه يرغب أن يستبدل هذه العناصر في التربيـة السلوكية لذكاء الوقت الحاضر ، وطهارة الانس وادراك العدالة ؟.

إن العلم قد أصبح هكذا لا يطـاق ، متوتراً ومشحوناً بالكراهية ، ومليئاً بالتعاسة والألم . حيث فقد الناس قوة الحكم المتعادل ، والذي يحتاج اليه للتخلص من التورط الذي يتخبط به الجنس البشري . إن عصرنا مؤلم لدرجة ، حيث إن اليأس قد حل بأحسن الناس ، ولكن ليس هناك مبررات واقعية لليأس : فان وسائل السعادة للعنصر البشري قائمة ، وانها ضرورية فقط لأن العنصر البشري عليه ان يختار كيف يستعمل هذه الوسائل .

الفهرست